بِنَى الحِجَاج

في نهج البلاغة

دراسة لسانية

د. علي عبد الوهاب عباس

الطبعة الأولى

٢٠١٧



دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع. العراق

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية

رقم 1190 لسنة 2017

دار نيبور للطباعة و النشروالتوزيع

فرع اول : ديوانية – السوق الكبير

فرع ثان : بغداد – شارع المتنبي

هاتف ٩٦٤٧٧٢٨٦٨٠٢٥٥+ / ٩٦٤٧٥٠٢٧٧١٨٣٩+

البريد الالكتروني: dar.nippur1@gmail.com

www.dar.nippur.com

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

صدق الله العلي العظيم

{يوسف : ٢}



الإهداء

إلى ...

صوت العدالة الإنسانية، ورمــز الحُكــمِ الإلهــيِّ، والإنسان الذي انتصر على نفسه قبل أن ينتصــر علــى الخصوم فبنى دولة سادها العدل والإنصاف، وآمن بــأنَّ الإنسان هو أغلى ما في الوجود، وكان في كــل حياتــه يعتمد الحوار الإقناعي وسيلة رئيسة للتواصل مع الآخــر سواء أكان ذلك الآخر من أتباعه أم من أعدائــه وحتــى عند تسلمه الخلافة لم يلجأ إلى اســتعمال الســيف مــع خصومه إلا عندما لم يجد حلًّا غير ذلك .

فإليك سيدي أبا الحسن أهدي هذا الجهد.

علي



ثبت المحتويات

الفصل الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

يعدُّ البحث الحجاجي من أهم ما طرحته لسانيات الخطاب ولاسيما التداولية منها، وما يميِّز البحث في الحجاج هو انفتاحه على بحوث الفلسفة، والمنطق، والعلوم الإنسانية المختلفة، بل إنّه نشأ أول الأمر على يد السفسطائيين من فلاسفة اليونان في ما عُرِف لاحقا بـ(الخطابة)، ثم انتقلت دراسة الخطابة التي هي أهم محوري(الحجاج) عند القدماء إلى أفلاطون وأرسطو لتنشأ عندهم خطابة بديلة عن ألاعيب السفسطائيين مقنَّنة طرقها ومنطلقاتها، وهو ما استقرَّت بعد ذلك في بحوث فلاسفة المسلمين ولاسيما الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، ففي هذا الجو الفلسفي نشأت دراسة الخطابة، وشهدت بعد ذلك تدهورا نتيجة انشغال البحوث في العصور الوسطى بدراسة عناصر الجمال وبخاصة ما يتعلق منها بشكل النَّص من دون الاهتمام بما يحمله من أفكار، فاهتموا بالمحسِّنات اللفظية التي يحملها الخطاب وفي السياق نفسه ساد توجّهٌ بالبحث في قضايا(البرهان) الذي يلغي إمكانية تعدد الآراء وبخاصة ما نجده في آراء(ديكارت) من تخطئة الآخر المخالف، و مهاجمته(الخطابة) التي عدَّها(فن الأكاذيب)، وبعد هذه المرحلة من تدهور الخطابة عادت لتنهض من جديد بعد ازدهار علم الآراء، ومواجهة المنطق الصوري الذي عجز عن إيجاد حل للمشكلات الإنسانية القائمة؛ لأنّه

انطلق من قوالب جاهزة، فكان أن عاد الحجاج بقوة في ميادين الفلسفة والقانون، وبما أنَّ نهضته تزامنت مع ازدهار البحث التداولي ولاسيما أفعال الكلام، ولطبيعة البحث الحجاجي المنفتح على تحليل أنواع الخطاب انتقلت دراسة الحجاج إلى البحث اللساني على يد(ديكرو)، وبذلك دخلت دراسة الحجاج في لسانيات الخطاب، وطُرِح في سياق ذلك القول بحجاجية اللغة أي بكونها تحمل طاقة حجاجية في ذاتها ولاسيما فيما يتعلق بدراسة الروابط، ودلالة الألفاظ على معانٍ خاصة بمقام التلفظ بها.

وقد قرئ نهج البلاغة قراءات كثيرة ولاسيما الجوانب اللغوية فيه بمستوياتها المختلفة فكثرت تبعا لذلك الدراسات فيه لكن كثرة الدراسات المتعلقة بخطاب ما كالقرآن الكريم، ونهج البلاغة لا تعني عدم إمكانية البحث فيه من جوانب تختلف عما دُرس من قبل، وبناء على ذلك اخترت دراسة خطاب نهج البلاغة على وفق بنيته الحجاجية من لغوية، وفكرية للوقوف على أهم ما طُرِح من مفاهيم حجاجية نستطيع استثمارها في إعادة قراءة الخطاب العلوي، وبيان أهم عناصر الإقناع التي وظفها الإمام وهو يحاول إقناع الجمهور من خاص وعام بصحة ما يطرحه من أفكار، فموضوع البحث هو دراسة بنى الحجاج في خطاب نهج البلاغة من بنى لغوية وفكرية، وهذا الأمر يمثل قراءة جديدة للخطاب العلوي في نهج البلاغة.

وأصل الكتاب كان أطروحة دكتوراه نوقشت في الجامعة المستنصرية في كلية الآداب سنة ٢٠١٣ م، وكانت في مقدمة الدراسات الحجاجية إن لم تكن الأولى في العراق في موضوعها وطريقة معالجة الخطاب المدروس؛ فهي قد سجلت عنوانا للبحث في اواخر سنة ٢٠١٠ م، ولم تكن الكتب والمصنفات في الحجاج وموضوعاته قد ظهرت أو وصلت إلينا ولاسيما في العراق عدا كتابين

هما(اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من ارسطو إلى اليوم) و(الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الاسلوبية)، وبمــرور الأيــام ظهــرت بعــض الدراسات الأخرى التي مثلت إضاءة لي في بحث الحجــاج إلا أنهــا اتصــفت بظاهرة التكرار، وطرح بعض المصطلحات أو المفاهيم من دون توضيح وربما كان ذلك بسبب الترجمة من اللغات الأخرى فضلا عن تشعب البحث في الحجاج وتنوع ميادينه.

تضمَّنت الدراسة تمهيدا تلته أربعة فصول، هي: الحجاج، مفهومه وأركانه، والمستوى النَّحوي في الخطاب الحجاجي، والمستوى التَّــداولي فــي الخطــاب الحجاجي، ومنطلقات الحجاج في نهج البلاغة.

وتحدثت في التمهيد على نحو موجز عن نسبة الخطاب الوارد في النهج إلى الإمام(ع)، لأنَّ هناك دراسات متعددة تكفَّلت بذلك الأمر، ثم أوضــحت بعــض المفاهيم التي تعد إضاءة لموضوع الأطروحة كمفهوم(البنى)، ومفهوم(الوحــدات الحجاجية) التي يستعملها الخطيب في حجاجه واستعمال مصطلح الخطاب عنــد ذكر أمثلة المواضع الحجاجية، ومفهوم(الدراسة اللسانية) الذي يعني ضرورة عدم إغفال دراسة دلالة الخطاب عند الأخذ بدراسة المستويات المختلفة للغة ولاسيما أنَّ مفهوم(ديكرو) في دراسة المعنى يعرف بــ(التداولية المدمجة) أي الدراسات التداولية المدمجة في الدلالة، وهو ما يعني عدم إمكان الفصل بين دراسة الدلالة، ومقام التلفظ الذي يرتبط بعناصر الدرس التداولي فضلا عن عدم إمكان الفصــل بين دلالة النَّص والمستوى النحوي لما لذلك كله من أهمية في حجاجية الخطاب.

أمَّا الفصل الأول(الحجاج،مفهومه وأركانه) فكان مخصصا بالبحث في مفاهيم الحجاج عبر العصور بدءا بفلاسفة اليونان ومرورا بفلاسفة المسلمين والبلاغيين وانتهاء بمفاهيم الحجاج في العصر الحديث وما قدمته مفــاهيم الحجــاج حــديثا

لتصحيح نظرة القدماء إلى الخطابة وإعادة إنتاجها بعد تشظيها على مباحث الفلسفة والجدل ونظرية الأدب، ودرست فضلا عن ذلك أهم أركان الحجاج وقضاياه التي طرحها منظرو الحجاج، ومنها منطلقات الحجاج، وطرائق بناء الخطاب الحجاجي، وخصائص ذلك الخطاب، وأهم الشروط التي يقوم عليها الحجاج في نصٍ ما.

ومما يرتبط بدراسة قضايا الحجاج طرح مفهوم(الألفاظ الحجاجية) الذي ينقسم على العوامل، والروابط الحجاجية، وهما من عناصر ارتباط البحث الحجاجي بالدرس اللغوي، وهو ما سيكون مدخلا للفصول اللاحقة؛ ففي الفصل الثاني(المستوى النحوي في الخطاب الحجاجي) درست أهم العوامل الحجاجية التي يستعملها الخطيب في إقناع الجمهور بالأطروحة التي يطرحها؛ فكانت عوامل التوكيد في مقدمة الألفاظ التي استعملها الإمام(ع) في ترسيخ المفاهيم المطلوب الاعتقاد والعمل بها من قبل الجمهور، وقد وردت عوامل مختلفة للتوكيد كالأدوات، والقسم، والقصر، ومن أهم العوامل الحجاجية أدوات(المساءلة) التي يطلق عليها في تراثنا اللغوي أدوات(الاستفهام) التي أخذت هذا الاسم من الوظيفة المفترضة لها التي لم نجدها في الخطاب الحجاجي؛ فتلك الأدوات لم تستعمل بغرض طلب الفهم وإنما بغرض(المساءلة)التي تتعلق بحركة(الظاهر، والمضمر) في الخطاب لإقناع الجمهور؛ فوظيفتها طرح الإشكال على الجمهور بما تحمله من دلالات لإقناعهم بما يريده الخطيب، وهو ما وقفنا عليه في مواضع متعددة من الخطاب الحجاجي، أمّا المبحث الأخير فعالجت فيه توظيف روابط الشرط في حجاجية النص وما تحمله تلك الأدوات من معانٍ جرى استعمالها في الحجاج.

وقد عالجت في كل ذلك مفهوم(الروابط الحجاجية) بما ينسجم مع النص المدروس؛ فلم تكتف الدراسة بالبحث في دلالة الأدوات المؤسسة للتراكيب بل درست في سياقها الروابط الحجاجية التي تربط بين عناصر النّص الحجاجي من حجج ونتائج؛ لاعتقاد الباحث عدم صحة الاكتفاء بدراسة الأدوات المؤسسة للتراكيب وضرورة دراسة أهم الروابط التي تؤسّس الدلالة الحجاجية للنص.

أمّا الفصل الثالث(المستوى التداولي في حجاج نهج البلاغة) فقد درست فيه ظاهرة(الاستلزام الحواري في حجاج النهج، وتوزّع البحث فيه على مبحثين، الأول درست فيه مفهوم الاستلزام الحواري وعلاقته بنظرية أفعال الكلام، والاقتضاء، والافتراض المسبق؛ فهذه المفاهيم من محاور الدرس التداولي التي تترابط فيما بينها باهتمامها بدراسة معنى(التلفظ) في السياقات المختلفة التي يرد فيها النص، لكن يبقى لكل مفهوم منها خصوصيته وميدانه في لسانيات الخطاب، أمّا المبحث الثاني فدرست فيه على نحو تطبيقي ظاهرة الاستلزام الحواري وأسباب نشوئها في نهج البلاغة على وفق الرؤية التي قدمها(غرايس) لتفسير هذه الظاهرة، فكان ذلك جزءا من قراءة الخطاب الحجاجي في النهج من وجهة نظر معاصرة ولاسيما أنّ دلالة اللفظ على معنى مستلزم يقترب كثيرا من مفهوم(التداولية المدمجة) التي ترى أنّ مقام الخطاب هو من أهم العناصر التي تدخل في تأويله.

أمّا الفصل الرابع(منطلقات الحجاج في نهج البلاغة) فكان جانبا تطبيقيا لأحد عناصر مفهوم الحجاج عند(برلمان) وهو دراسة المنطلقات أو الركائز التي يتكئ عليها الخطيب في إقناع الجمهور؛ فانقسم البحث في تلك المنطلقات على مبحثين، الأول منطلقات الحجاج في الخطاب العام، والثاني منطلقات الحجاج في الخطاب الخاص، والملاحظ أنّ منطلقات الحجاج كانت من القسم الأول بحسب

تقسيم(برلمان) وهو قسم(الوقائع)؛ فتنوعت بحسب ذلك في الخطاب الحجاجي، وكانت الحقائق منطلقا رئيسا في حجاج الجمهور العام بخلاف الوقائع التي طغت في الحجاج الذي يستهدف الجمهور الخاص ولاسيما أعداؤه(ع)، والافتراضات وردت في سياق ذلك لتعضد ما يطرحه الإمام(ع) من مفاهيم، وقد تناولت في سياق ذلك بعض الظواهر اللغوية في تلك المنطلقات بما يقوي من حجاجيتها.

وآثر الباحث ألا يكثر من أمثلة الخطاب الحجاجي كي لا تتكرر تلك الأمثلة عند بحث الموضوعات المختلفة؛ فانصب الاهتمام على تحليل الأمثلة المدروسة للوقوف على عناصر حجاجيتها من لغوية أو فكرية من دون الانشغال بسرد الأمثلة وإحصائها لأنَّ ذلك مما عارضته لسانيات الحجاج؛ فلكل نص ظروفه الخاصة التي يرد فيها وتوظيف الألفاظ الداخلة في حجاجية ذلك النَّص يرتبط بمقام التلفظ الخاص به وليست المسألة عمل إحصاءات لمواضع ورود تلك الألفاظ بقدر ما هي محاولة الوقوف على أنماط من الخطاب الحجاجي في نهج البلاغة وتحليلها.

ولأهمية دراسة مقتضى الخطاب في بيان حجاجه تمَّ بحثه في مختلف النصوص التي دُرِست نحويا وتداوليا وعند دراسة منطلقات الحجاج؛ فالمقتضى كما سنقف عليه يمثل مجموعة المعارف المشتركة بين المتخاطبين ولتلك المعارف المشتركة أثر كبير في طرح الخطيب الأفكار التي يريد إقناع الجمهور بها.

وختاما لا أدعي خلو الكتاب من الهنات؛ فالكمال لله وحده فضلا فقد تصدى لدراسة موضوع يعد من أحدث مناهج تحليل الخطاب، والدراسات التي اهتمت بهذا التوجه قليلة وهي على قلتها تناولت جوانب تختلف عن موضوع دراستي فضلا عن أنَّ ما كتب في موضوع الحجاج يعد اللبنات الأولى في هذا الموضوع

والبحوث فيه متنوعة بحسب تنوع مفاهيمه؛ فلا تنحصر بالبحث في الجوانب اللغوية بل تتجاوزها إلى ميادين مختلفة؛ فإن أصبت في شيء فهو مما وفّقني إليه الله تعالى محض الكمال والرحمة وإن يكن فيها ما يستلزم إعادة النظر أو التصحيح فهو من طبع الإنسان المتصف بالزلل إلا من اجتباه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

التمهيد

نهج البلاغة هو جملة ما اختاره الشَّريف الرَّضي(ت٤٠٦هـ) من كلام الإمام علي ابن أبي طالب(ع)، واختيارات الشَّريف الرَّضي جاءت موزّعة على أربعة أبواب، هي: باب المختار من خطب الإمام، وباب المختار من كلام الإمام، وباب المختار من كتب الإمام ورسائله، وباب المختار من حكم الإمام ومواعظه، ومن هنا كان كلام الإمام (ع) "يدور على أقطاب ثلاثة: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ"[١].

وضمَّ الكتاب سبعا وثلاثين ومئتي خطبة وكلام تقريبا، وتسعا وسبعين كتابا ووصية وعهداً وثمانين وأربع مئة من الكلمات القصار[٢].

ونرى عند الاطلاع على المصادر التاريخية أنَّ الشَّريف الرَّضي لم يكن أول من تصدى لجمع كلام الإمام فقد تحدَّث المسعودي(ت٣٤٦هـ) عن خطب الإمام قائلا:"والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربع مئة خطبة وثمانون خطبة يوردها على البديهة، وتداول النَّاس ذلك عنه قولا وعملا"[٣].

ولا أريد الدخول في مناقشة لآراء من شكَّك في نسبة النص الموجود في النهج إلى الإمام؛ فقد تكفَّلت بذلك دراسات متعددة[٤]، ولكن أشير على سبيل الاختصار إلى أنَّ خطب الإمام(ع) كانت موجودة ومتداولة وإن لم يكن تداولها على نحو واسع في العصرين الأموي، والعباسي الأول اللذين اتصفا بالبطش

---

[١] نهج البلاغة: مقدمة الشريف الرَّضي:٥٤.

[٢] ينظر: مصادر نهج البلاغة وأسانيده: ١/٨٧-٨٨.

[٣] مروج الذهب ومعادن الجوهر:٢/٣٢٦.

[٤] ينظر في ذلك: ما هو نهج البلاغة:٤-١٧، وغريب نهج البلاغة:٧٤.

والتنكيل الشديدين للشيعة ولاسيما أئمتهم وهذا الأمر أدى إلى التكتُّم على كلمات الإمام(ع)، وعدم روايتها، وأسباب ذلك لا تخفى على المطلع وأهمها أنّ منهج الإمام في الحكم كان على النقيض من سياسة الأمويين والعباسيين فضلا عن أنّ نظرية الإمامة وحق الإمام المعصوم في خلافة النبي(ص) هي من أهم ركائز الفكر المناهض للحكمين الأموي والعباسي؛ إذ ترى أنّ الخليفة الشرعي هو الإمام .

ومما يدل على أنّ خطب الإمام(ع) كانت محفوظة ما ذكره الجاحظ(ت٢٥٥هـ) فيما يتعلق بخطب النبي(ص) وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي من أنّها: "مدونة محفوظة، ومخلّدة مشهورة"[١].

والملاحظ أنّ الشريف الرضي لم يرد أن يجمع كل ما تفرّق من خطب الإمام(ع)، وكلماته، ورسائله، بل اختار مجموعة من النصوص وجمعها في كتاب نهج البلاغة على وفق ذوقه؛ لذلك نجد المصادر التاريخية تنسب إلى الإمام خطبا يفوق عددها ما نجده في النهج، ولا أريد الإطالة في هذا البحث الذي تناولته دراسات متعددة منها دراسة الدكتور عبد الكريم حسين التي تناول فيها على نحو مفصّل مصادر نهج البلاغة، ورواته، والمظان التي اعتُمِدَت في جمع النهج[٢]، وما ذكره شرّاح النهج من بعد الشريف الرضي من مصادر وهم يتصدون لبيان كلمات الإمام، وذكر الكتب التي ذكرها هؤلاء العلماء ضمن شروحهم للنهج .

---

[١] البيان والتبيين:١/٢٠١.

[٢] ينظر في ذلك:غريب نهج البلاغة:٧٣-١٦٤.

البنى والمباني

تصدر البحث مصطلح(بنى)، والبنى هي الوحدات التي يُنشَأ منها الخطاب، وهذا المصطلح مقارب لمصطلح آخر هو(المباني)، والمصطلحان يستعملان في الدراسات اللغوية فضلا عن الدراسات المنطقية والأصولية، وقد اخترت مصطلح(البنى)؛ لأنَّه أقرب إلى الدراسات اللغوية من مصطلح(المباني)؛ إذ تشيع عبارات معينة من نحو:(بنية الكلمة)، و(بنية الجملة)، و(بنية النص) في البحوث اللغوية، أما مصطلح(المباني) فأجده أقرب إلى علوم الفقه، والمنطق؛ إذ غالبا ما يرد هذا لمصطلح في المصنفات المنطقية والأصولية[1]، مع أنَّه يرد في الدراسات اللغوية ولاسيما في المستوى الصرفي منها[2]، فلما كان مصطلح(المبنى) يتصف بالعمومية قياسا على مصطلح (البنية) وقع اختياري على مصطلح(البِنى) بصيغة(فِعَل)، وهو جمع ما كان بصيغة(فِعْلَة)[3]؛ لدراسة الخطاب الحجاجي في نهج البلاغة .

الوحدات الحجاجية

من القضايا التي ينبغي أن أشير إليها في التمهيد هي قيام بحثنا في حجاج نهج البلاغة بدراسة عنصري(الصناعة القولية) في فكر أرسطو، وهما(الخطب)، و(المناقشات الجدلية)[4]، ولا أريد الخوض في تفاصيل مفهوم(الحجاج) قديما وحديثاً؛ إذ سأتناول ذلك في الفصل الأول على نحو مفصَّل لكن تقتضيني طبيعة

---

[1] ينظر على سبيل المثال:المحكم في أصول الفقه:٦/٢٩٨، ومصباح الأصول:٣/٤٥٦.

[2] ومن ذلك ما نجده عند الأستاذ تمام حسان في كتابه(اللغة العربية معناها ومبناها) ففيه يتحدث عن النظام الصرفي و(مباني) تقسيم الكلمات فيه.

[3] ينظر: شرح التصريح:٢/٥٣٢.

[4] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٦٨ .

البحث أن أشير في التمهيد إلى أقسام الخطاب التي اتصفت بطاقة حجاجية عالية التي ستكون محل الدراسة في نهج البلاغة .

تمثل المحاورة الجدلية، والخطبة جنسين حجاجيين لكل منهما نمط خاص، وبين النوعين وجوه اختلاف دقيقة، ويكوّنان الوحدات الحجاجية الكبرى التي اهتم بها أرسطو، ويمثّلان ما يُعرَف بالصناعة القولية، "وهما مؤسسان على ركنين أساسيين: القول، والقائل، وما يتصل بهما من شروط"(١).

وأشار أرسطو إلى أهمية كل من المناقشة الجدلية، والخطبة وحاجة المجتمع إليهما بقوله:"إنّ الناس جميعهم يشاركون بدرجات متفاوتة في كليهما؛ لأنهم جميعا إلى حد ما يحاولون نقد قول أو تأييده والدفاع عن أنفسهم أو الشكوى من الآخرين"(٢).

ووجود فروق بين الوحدتين الحجاجيتين الكبريين(الخطبة)، و(المناقشة الجدلية) قد دفع أرسطو إلى دراسة أسس فكرة(الحجاج) في مصنفين، هما: المواضع، والخطابة(٣).

فمن الفروق بين النمطين الحجاجيين اعتماد المناقشة الجدلية على المناقشة النظرية المجردة وغير المتعلقة بذات معينة وظرف معين بخلاف الخطابة التي يعوّل فيها على النظر في خصوصيات الجماهير التي تتلقى الخطاب(٤).

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة:٤٦.

(٢) الخطابة، أرسطو:٢٣.

(٣) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٣٠٣ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

والمناقشة الجدلية أوثق صلة بالأمور الفكرية، والمنطقية أمّا الخطبة فمجالها توجيه الفعل والتوجيه إليه وخلق الاعتقاد[١].

ومن الفروق بين الخطبة والمناقشة الجدلية السمة الفردية في الحجاج الجدلي والجماعية في الحجاج الخطابي[٢]؛ فالمناقشة الجدلية جنس(تخاطبي)، والخطبة جنس(خطابي)، "يضطلع في الأولى بفعل البناء طرفان، ويضطلع بذلك الفعل في الثانية طرف واحد"[٣]، ومما يميز الخطبة من المناقشة الجدلية هي قيام المناقشة الجدلية على حركة السؤال والجواب أو المساءلة بخلاف الخطبة التي تقوم على إقصاء المساءلة؛ فالحجاج الخطبي يقصي السؤال ويبني الاعتقاد لدى جمهور المتلقين والخطابة وإن كان منشؤها تساؤلا مطروحا إلا أنّها لا تقوم على السؤال والجواب[٤]، أمّا الحجاج الجدلي فيقوم على عنصر التساؤل، وحركة السؤال والجواب التي يديرها(السائل) هي التي تجعل(المجيب) يسلّم له بما يريد[٥]، وسأشير في الفصل الأول على نحو أكثر تفصيلا للفروق بينهما، وما تبناه(برلمان) من رفض لمسألة الفرق بين الحجاج الجدلي؛ والحجاج الخطابي في إطار الخطابة الجديدة، وتأسيسا على ذلك سترتكز دراستي لبنى الحجاج في النهج على دراسة البابين الأول والثاني وهما المتضمنان خطب الإمام وكلماته وكتبه؛ لأنّ المطّلع عليها يجدها تتضمن أهم عناصر الحجاج، وأركانه مما يجعلهما ميدان الخطاب الحجاجي، والملاحظ أنّ خطب الإمام

---

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة:٥٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٣) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٢٤.

(٤) ينظر: المصدر نفسه:١٢٦.

(٥) ينظر: المصدر نفسه:١٢٥.

ومكاتباته ينطبق عليهما مفهوم(الخطاب)؛ فالخطاب هو"ذلك الملفوظ الموجَّه إلى الغير، بإفهامه قصدا معينا"[1]، وهذا التعريف للخطاب يُعدُّ أهم تعريفاتـــه التـــي تجمع بين كونه بنية لغوية والوظيفة التي يضطلع بها خطاب ما[2]، وبارتبـــاط الخطاب بمقام التلفظ وسياق الموقف يتميز عن الـــنّص بوصـــف النص(كائنـــا فيزيائيا) مُنجَزا بخلاف الخطاب فهو تفاعلي ويتمثل بالتعبير والتأويل[3]، فهـــو الواقعة اللغوية المرتبطة ببعد زمني والمتضمنة معنى ما[4]؛ وهذا الأمر يعنـــي "أنَّ الخطاب شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب"[5]، وبناءً على ذلك يبدو لي أنَّ كل خطبة أو كتاب للإمام تمثل خطابا خاصا وهي جزء من الخطاب العام المتمثل بـــنهج البلاغة.

وتنبغي الإشارة إلى أنَّ ما قصدته من استعمال لفظ(الحجاج) فـــي عنـــوان الدراسة هو استعماله بوصفه مصـــدرا لـــــ(حاجَّ)؛ فقـــد ذكـــر اللغويـــون أنَّ مصدر(فاعل):"فِعَال ومفاعلة"[6]، وليس جمعا لـــ(حجَّة).

والدراسة ستكون انتقائية في اعتماد النصوص الحجاجية من دون الانشغال بعمل إحصاءات لأدوات الحجاج أو ألفاظـــه؛ لأنَّ الخطابـــة الجديـــدة(الحجاج)

---

[1] استراتيجيات الخطاب،مقاربة لغوية تداولية:٣٧، وينظر:اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢١٥.

[2] ينظر: استراتيجيات الخطاب،مقاربة لغوية تداولية:٣٨.

[3] ينظر: نسيج النص:١٥، والنص والخطاب والاتصال:٩.

[4] ينظر: نظرية التأويل،الخطاب وفائض المعنى:٣٤-٣٥.

[5] لسانيات الخطاب،مباحث في التأسيس والإجراء:١٨.

[6] همع الهوامع:٦/٥١.

تتعارض مع(الأسلوبية)[1]، وبخاصة في جانب الأسلوبية القائم علــى الاهتمــام ببنية النّص الخارجية المتعلقة بوجود ظاهرة معينة مما يجعل الباحــث ينشــغل بعمل إحصاءات لها، فبدلا عن ذلك يقوم(الحجاج) على دراسة نصوص معينــة للوقوف على أهم عناصر الإقناع فيها.

وستهتم الدراسة بالجانب اللغوي في مستوييه النحوي، والتداولي فضلا عن دراسة الجانب الفكري في الخطاب الحجاجي، ومــا يوظفــه الخطيــب وهــو الإمام(ع) من منطلقات حجاجيــة لإقنــاع الجمهــور، وهــذا الأمــر يــرتبط بجهود(برلمان،وتيتيكاه) التي تعد فاتحــة الحجــاج فــي العصــر الحــديث[2]؛ فدراسة(الحجاج) تقتضي عدم إغفال مفاهيمه الرئيسة التي سأبحثها علــى نحــو مفصل في الفصل الأول ولاسيما مفهوم(برلمان وتيتيكاه) الــذي يكشــف قــوة الحجاج الذي يُدرَس؛ إذ إنّ اعتماد دراسة الأدوات اللغوية وحدها في الوقــوف على حجاجية الخطاب لا يبين لنا قوته؛ فالأدوات نفسها تــرد فــي النصــوص المختلفة حتى غير الحجاجي منها، وما يدفعنا إلى اختيار نصٍّ دون غيره هو ما يملكه من عناصر قوة تتجسد فيما ينطلق منه الخطيب من منطلقات، أمّا المفهوم الآخر فهو مفهوم(ديكرو) الذي يدرس الروابط الحجاجية في الخطــاب تأسيســا على ما يعده من أنّ الحجاج طاقة كامنة في اللغة بل إنّه يعد كل قول حجاجا[3]، ونظرا لأهمية الأدوات في الدراسة النحوية سأبحث العوامل الحجاجيــة وفــي سياقها أهم الروابط الحجاجية فضلا عن دراسة المستوى التداولي الذي يعد من

---

[1] ينظر: الفلسفة والبلاغة: ٥٠، والبلاغة والأسلوبية: ١٩.

[2] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٢٩٨ .

[3] ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢/٣٦٣.

أهم مستويات الدرس اللغوي الحديث ولاسيما فيما يتعلــق بمفهــوم الاســتلزام الحواري الذي سأبحثه بصورة تطبيقية في خطاب النهج.

والمحوران النحوي، والتداولي يقعان في صميم لسانيات الحجاج ويرتبطان بالدلالة التي يحملها النَّص؛ فقد رأى(ديكرو) أنَّ اللسانيات الحجاجية تقوم علــى ثلاثة محاور هي:التركيب، والدلالة، والتداولية[1] .

وقد استخرج(ديكرو) هذا التقسيم الثلاثي للدراسات الحجاجية ممــا قدَّمــه (موريس) في كتابه(أسس نظرية العلامات)[2]؛ قال(ديكرو):"إنَّ دراسة اللغــة– طبيعية أو صناعية– تشمل ثلاث مراحل متتابعة"[3].

وبناء على إقرار(ديكرو) بقيام الحِجاج على ما تملكه اللغة من طاقة إقناعية في نظامها النحوي ولاسيما الأدوات، وما تحمله النصوص من دلالات حرفية أو ظاهرة وأخرى مستلزمة أو حقيقية سندرس المستوى اللغــوي فــي الخطــاب الحجاجي؛ وبذلك ستكون الدراسة تلفيقية بين مفهومي(برلمــان)، و(ديكــرو)؛ لأهميتهما في دراسة الحجاج .

وليس خافيا أنَّ نظرية الحجاج بمفهومها الجديد لم تتطور إلا في العصــر الحديث؛ ولم تظهر أول الأمر في ميدان الدراسات اللسانية والأدبية بل ظهــرت في الدراسات المنطقية والفلسفية، وفي مجــالات القــانون، والسياســة، وهــذه المجالات قد عالجها(برلمان وتيتيكاه) في كتابهما(مصنف في الحجــاج)[4]، ثــم دخلت بعد ذلك الدراسات اللسانية .

---

(1) ينظر : المصدر نفسه:٢/٢٥٨، وفي أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٢٨.

(2) ينظر : الفلسفة والبلاغة:١٠٧.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) ينظر : الحجاج، مفهومه ومجالاته:٥/٩٧ .

انتقلت في السنوات الأخيرة دراسة آليات الحجاج، وقضاياه المختلفة إلى الدراسات العربية إلا أنّها بقيت قليلة، ويبدو لي أنّ سبب ذلك يكمن في حداثة هذا التوجه في دراسات تحليل الخطاب، وتنوع المفاهيم المطروحة فيه في الدراسات الغربية، ومع ذلك بدأت المحاولات في دراسة أنماط مختلفة من الخطاب في تراثنا على وفق بعض التصورات الحجاجية، ومن هنا وقع اختياري على دراسة الحجاج في نهج البلاغة؛ لأهمية هذه المدونة في تراثنا اللغوي والفكري، ولأنّ ذلك الخطاب هو خطاب حجاجي في مجمله فهو يستهدف إقناع الجمهور سواء أكان ذلك الجمهور مؤيدا الإمام(ع) من خلص شيعته أم جمهورا عاما يتبع الخلافة؛ فخطاب نهج البلاغة كان يهتم بترسيخ ما جاء به الإسلام من أفكار كما اهتم في الوقت نفسه بتفنيد ما يطرحه أعداء الإمام من أفكار تتعارض مع منهجه(ع) في الحكم.

وتجدر الإشارة إلى وجود دراستين تتعلقان بحجاجية الصورة الفنية في خطاب نهج البلاغة، وقد درست الأولى(حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي خطب الامام علي أنموذجا)[١]، والكتاب كما يتضح من عنوانه يتعلق بدراسة عناصر الصورة الفنية؛ فبحث التشبيه والاستعارة وتداعي المعاني ومصادر الصور من تجريبية وثقافية فضلا عن وظائف الصور الفنية في محاور: التوبيخ، والاستشهاد، والمثال، وتوظيف الحكمة، أمّا الدراسة الثانية فتناولت حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع)[٢]، وهي لم

---

(١) الكتاب من تأليف الدكتور علي عمران وطبع في دار نينوى للدراسات والنشر في سوريا سنة ٢٠٠٩م.

(٢) الكتاب من تأليف الدكتور كمال الزماني وطبع في عالم الكتب الحديث في الأردن سنة ٢٠١٢م.

تختلف عن الدراسة التي سبقتها في تناولها عناصر الصورة ووظائفها، وقد أشارت إلى أهم مفاهيم الحجاج في العصر الحديث أولا ومن ثم القديم فكانت أوسع نوعا ما من الدراسة الأولى في بحثها.

وما سأدرسه يختلف إجمالا وتفصيلا عن هاتين الدراستين فقد اقتصرتا على دراسة أغراض معينة من الخطب فنيا بخلاف دراستي اللسانية للخطاب الحجاجي التي ستكون عامة من دون الاقتصار على نمط أو غرض بعينه؛ لاعتقادي عدم صحة هذه التقسيمات لخطاب النهج وبخاصة محاولة عزل الجانب السياسي عن غيره؛ فنهج البلاغة في مجمله خطاب سياسي ولاسيما القسمين الأولين(خطب الإمام وكتبه)، فالإمام(ع) تصدى في معظم تلك النصوص لبيان سياسته في الخلافة وطارحا أفكاره(ع) في التعامل مع القضايا المختلفة التي تتعلق بالرعية فضلا عن الرد على ما يطرحه خصومه من أفكار تتعلق بالخلافة وبذلك أرى أنّ خطاب النهج كان سياسيا في مجمله بل حتى بعض النصوص الخاصة للخلّص من أتباعه كوصيته للإمام الحسن(ع) نراها تمثّل سياسة يحاول الإمام(ع) أن يقنع ابنه ومن تصل إليه هذه الوصية باتباعها في شؤون حياته المختلفة، فهي وإن لم تكن من باب السياسة العامة إلا أنها تمثل السياسة التي يريد الإمام أن تُتبع في الحياة الخاصة للأفراد؛ فهي النتيجة المطلوبة التي يستهدف الحجاج الاقتناع بها أولا ثم العمل في ضوء ذلك الاقتناع ثانيا، والأمر لا يتعلق بالدراسة التي اختصت بالجانب الحربي؛ فقد انشغل(ع) طول مدة خلافته بالتصدي العسكري لتمرد أعدائه فضلا عن مواجهتهم سياسيا، إذ حارب من نكث البيعة ثم معاوية، وأخيرا الخوارج، والتصدي لهؤلاء وإن كان حربيا في النهاية إلا أنَّه يقتضي التصدي لأطروحاتهم أولا لتعبئة الجمهور وإقناعه بمحاربتهم والتصدي يكون بطرح الفكر السياسي البديل عما يطرحونه

من أفكار، لذلك لا نستطيع أن نفصل بين ما هو سياسي وما هو حربي في خطاب نهج البلاغة، ومن هنا أرى أنَّ الخطاب الحربي إنما هو جزء من الخطاب السياسي للإمام(ع).

ومما يميز دراستي فضلا عن ذلك أنَّها لا تبحث في الجانب البلاغي وهو ما اهتمت به الدراستان السابقتان بل ستتناول جانبين من جوانب الدرس اللغوي هما المستوى النحوي، والمستوى التداولي؛ فحجاجية الخطاب في المستوى اللغوي التواصلي تقوم في جانب كبير منها على دراسة الجانبين النحوي، والتداولي في الخطاب الحجاجي فضلاً عن عدم إغفال دراسة مفهوم(برلمان) في دراسة منطلقات الحجاج؛ فهذا المفهوم يعد الوسيلة التي تكشف لنا ما يتمتع به النَّص من قوة حجاجية انطلاقا مما يتضمنه من منطلقات أو مبادئ حجاجية تجعل المتلقي مقتنعا بما يُطرَح عليه من أفكار، وهذه النظرة لدراسة الحجاج في الخطاب هي نظرة شاملة للدراسة وتعتمد أبرز مفهومين من مفاهيم الحجاج، وهما مفهوما(برلمان) و(ديكرو)؛ إذ لا تقف عند دراسة الطاقة الحجاجية للنص المتولدة من بنيته اللغوية من أدوات وألفاظ ، بل تتجاوز دراستنا ذلك إلى دراسة بنى الحجاج من الناحية الفكرية على وفق ما طرحه (برلمان، وتيتيكاه) فهذا التوجه نهض في عصرنا الحاضر بنهوض(علم الآراء) وهو علم يرى أنَّ الوسيلة في فهم الظواهر والخطابات تقوم على الآراء[١]، وبهذه النظرة انطلق (الحجاج) في الدراسات الحديثة، إذ إنَّ الحياة اليومية والسياسية تتطلب أنماطا من الخطابات، والاستدلالات الصورية لا يمكن تطبيقها في المجالات التي لا تتعلق بالأحكام(الصورية)، ولا في القضايا ذات المحتوى الذي يمكن الرجوع

---

[١] ينظر: الفلسفة والبلاغة:٧٤

فيه إلى التجربة[١]، و(المنطق الصُّوري) هو المنطق الذي يبحث في صور الفكر فقط من دون اهتمام بالموضوعات التي نفكر بها[٢]؛ فهو آلة للعلوم من غير فرق بين علم وآخر، وعمل المنطق الصوري هو أن يقدم لنا القواعد التي نحتاج اليها لكي يكون الاستدلال صحيحا، أي أن نصل إلى ما يمكن استنتاجه من مقدمات معينة بوساطة قواعد منطقية معينة وبهذه القواعد فقط[٣]، وبذلك فإنّ(الحجاج) ليس استدلالا تعليليا يدور في حقل البرهان المنطقي بل هو(خطاب) ينشط في إطار عملية تواصلية تضم(الخطيب) و(المخاطب)[٤].

وتأسيسا على ذلك نرى أن أهم ما نقف به عند نظريتي الحجاج في المنهج هو الموازنة بين مفهومي (بيكو) و(تولمين)؛ فالأول ينطلق من البنية اللغوية للنص، والآخر مما يتضمنه من أفكار مشتركة يلتقي عندها المتحاورون، ولكن تنطلق الدلالة من افتراض أنّ نصوص اللغة كلها حجاجية وهو مفهوم (بيكو) للحجاج[٥]، وفي الوقت نفسه لم تقصر (الحجاج) على اتصالات لغوية محددة بإطار منطقي يتمثل في افتراض ثلاثة عناصر في النّص كي تُقبل حجاجيته وهي (الحجة والنتيجة والضمان) وهذا ما نجده في مفاهيم أخرى للحجاج[٦]، [illegible] موقفا وسطا من ذلك [illegible] النصوص بحسب ما أجد فيها من نصية كبرى أ

---

(١) ينظر: عالم الفكر العدد(٢) المجلد(٤٠):٣٤.

(٢) ينظر: المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة:١٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه:١٨.

(٤) ينظر: الحجاج بين المنوال والمثال:١٦-١٧ .

(٥) ينظر:الحجاج،مفهومه ومجالاته:٢/٣١٢-٣١٣.

(٦) وذلك في مفهوم(تولمين) للحجاج، ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:٢٢.

الأطروحة يجهد الإمام في إقناع الجمهور بها أو ما يتضمنه الخطاب مما في الأطروحة تدلّ على ما يطرحه الخصم من أفكار، لهذه الأطروحة جمهور متلقٍ، وهو على مستويين، متلقٍ مباشر للخطاب، ومتلقٍ ضمنيّ، هو كل من وصل له خطاب الإمام، فضلا عن أنّ النصوص الحجاجية قد تكون فيها النتيجة أو المقدمات مضمرة، وذلك لا يخل بحجاجيتها؛ إذ يبقى إقناع الجمهور بفكرة ما هو المهيمن عليها، لذا لا يصح الحكم على حجاجية خطاب بمجرد وجود العناصر الثلاثة فيه.

ومما يؤيد منهج الدراسة المتبع في هذه الأطروحة في اختيار نصوص معينة وعدم اعتماد المفهوم القائل بأنَّ الأقوال أو النصوص كلها حجاجية هو وجود تصنيفات متعددة للنصوص[1]، ومن هذه التصنيفات ما جرى تقسيم النصوص فيه بحسب العمليات الذهنية أو العقلية التي توظَّف فيها أكثر من غيرها، فمنها(النّص السّردي)، و(النَّص الوصفي)، و(النّص الإعلامي)، و(النّص الحجاجي)[2]، وقد قيل في تعريفه قياسا إلى النصوص الأخرى إنَّه الذي "يقصد تغيير اعتقاد يُفترَض وجوده لدى المتلقي باعتقاد آخر يعتقد المرسل أنَّه الأصح"[3].

ووجود هذه الأقسام المتعددة للنصوص في الدراسات النَّصية يدلُّنا على أنَّ منها ما ليس حجاجيا وهو ما يتفق مع ما نراه في دراستنا من تركيز البحث في النصوص التي تتصف بأهم ما يميز النص الحجاجي وهو وجود حوار إقناعي موجَّه من الخطيب إلى الجمهور المتلقي الذي قد يكون فردا يُخاطَب به جمهور عام أو جماعة خصَّها الإمام(ع) بخطابه .

---

(١) ينظر في ذلك: النّص والخطاب والاتصال:١٨٤-١٨٥.

(٢) ينظر: النّص والخطاب والإجراء:٤١٥، ومدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه:١٠-١١

(٣) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه:١٠٨ .

الفصل الأول

الحجاجُ ، مفهومه وأركانه

تعدُّ لسانيات الحجاج من أهم مباحث تحليل الخطاب في العصر الحديث، وما يميز الدرس الحجاجي هو تنوعُ روافدهِ المعرفية من فلسفة، ومنطق، وتداولية، وغيرها؛ فالحجاج بوصفه حوارا إقناعيا يقوم على أسس منها ما هو فكري يتعلق بمجموعة من المنطلقات أو المبادئ الحجاجية المتمثلة بالأفكار المشتركة بين المتحاورينَ التي تمثِّل نقطة انطلاق الحوار الحجاجي، وبطرائق عرض الحجج نفسها من تقنيات شبه منطقية أو ناظرة إلى الواقع وربما مؤسِّسة للواقع، ومن الأسس ما يتعلق بالقول الحجاجي نفسه أي بما يتضمنه الخطاب من الروابط والألفاظ(العوامل) الموظَّفة حجاجيا فضلا عن ألفاظ تحمل دلالات لها معنى ظاهر عرفي، وآخر حقيقي حجاجي يستلزمه مقام التلفظ بحسب التوجيه التداولي للخطاب، كما قامت الخطابة الجديدة أو ما يُعرف بـ(الحجاج) على جملةِ مفاهيم، ولكلِّ مفهوم منها نظرة خاصة لفكرة الحجاج، وقد ذكر علماء الحجاج مجموعة من الخصائص التي تميِّز النَّص الحجاجي من غيره من النصوص؛ فقد قسَّمت الدراسات اللسانية النصوص على أقسام بحسب الخصائص المميزة لكل قسم[1]، ومنها النَّص الحجاجي الذي يُقصَد به تغيير اعتقاد يُفترَض وجوده عند المتلقي وإقناعه بوجهة نظر جديدة؛ فالهدف الرئيس من النص الحجاجي هو إقناع المتلقي[2].

---

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٥.

[2] ينظر: مدخل إلى علم النّص، ومجالات تطبيقه:١٠٨.

وسأقف على مجمل هذه الأفكار؛ نظرا لما تتصف به لسانيات الحجاج من جدة تقتضي تسليط الضوء على ركائزها الفكرية قبل الدخول في الجانب التطبيقي؛ إذ سأبحث في تداخل مفهوم(الحجاج) مع(الجدل، والبرهان)عند القدماء وما يتصف به مفهوم الحِجاج في العصر الحديث من خصائص تمِّيزه من المفهومينِ السابقينِ، وسأدرس أهم مفاهيم الحجاج في الدراسات الحديثة وما يمكن توظيفه من هذه المفاهيم مع قضايا أخرى كالخصائص التي يتصف بها النَّص الحجاجي، والسلالم الحجاجية والأدوات الحجاجية.

المبحث الأول

الحجاج (الخطابة الجديدة)، تاريخ ومفاهيم

يرى الباحث أنّهُ من الضروري توضيح بعض المصطلحات التي تتداخل مع مفهوم(الحجاج) عند القدماء قبل الحديث عن تطور فكرة(الحجاج) عبر العصور؛لأنّ تلك المصطلحات وما تحملهُ من مفاهيم ودلالات تخالف ما استقرّت عليه دراسات الحجاج في العصر الحديث بوصفه البحث في آليات الحوار الإقناعي، وسأشير إلى هذا التداخل فيما يأتي:

١. الحجاج بوصفه مرادفا للجدل:

تداخل مصطلح الحجاج مع الجدل عند علمائنا القدماء في اللغة، والاصطلاح، قال ابن منظور(ت٧١١هـ): "حاججته أحاجُّه حجاجا، ومحاجّة حتى غلبته بالحجج التي أدليت بها...، وقال الأزهري: الحجَّة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جَدِلٌ، والتحاجُّ: التخاصمُ"[١].

إنّ هذا المعنى المعجمي لمفهوم الحجاج يرادف الجدل عند أكثر علمائنا القدماء وهما بمعنى الخصومة والاختلاف، وهو ما نجده في بيان معنى(الجدل) لغويا، يقول ابن منظور:"الجدلُ: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا...،الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة...، ويقال: إنَّهُ لجَدِلٌ إذا كان شديد الخصام"[٢].

---

[١] لسان العرب(حجج): ٢/ ٢٢٨.

[٢] المصدر نفسه(جدل): ١١/ ١٠٥.

وهذا المعنى اللغوي قريب من المعنى الاصطلاحي للجدل، وهو:"دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجَّة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة"[1].

وقد ألَّفَ بعض العلماء مصنفات تحمل عنوان الحجاج، وذكروا أنَّ سبب تأليفها وضع كتاب يجمع أبواب الجدل، قال أبو الوليد الباجي(ت٤٧٤هـ):"أزمعتُ على أن أجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه وفروع أقسامه وضروب أسئلته"[2].

وهكذا نجد المصطلحين يترادفان في الاستعمال عند القدماء، وكذلك المتأخرون الذين تناولوا أبحاث علوم القرآن، على نحو ما نجده عند السيوطي(ت٩١١هـ) الذي خصَّص فصلا في كتابه(الإتقان) أسماه(جدل القرآن) تحدَّث فيه عن(الجدل وحجاج القرآن للمعاد) وغير ذلك من المصطلحات التي تدخل فيما يُعرَف بـ(علم الكلام)[3]، وذكر السيوطي أنَّ ابن أبي الأصبع المصري(ت٦٥٤هـ) قال:"زعم الجاحظ أنَّ المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن وهو مشحون به، وتعريفه أنَّهُ احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام"[4].

وعلَّل بعضهم موقف الجاحظ الرافض لوجود الجدل، وما يرادفه من مفهوم الحجاج عند القدماء، بقوله:"فالجاحظ وهو الجدلي البليغ والدافع بمنكبيه في زحمة

---

[1] التعريفات: ٧٩.

[2] المنهاج في ترتيب الحجاج:٧.

[3] ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:١٤، وكتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج:٥٤.

[4] الإتقان في علوم القرآن:٢/١٣٥.

المذاهب الكلامية، كان ينظر إليه[أي المذهب الكلامي] من الوجهة المنطقية البحت فهو لم يجد في القرآن أي تركيب من الأقيسة البرهانية أو الجدلية واردا على الصيغ والأشكال المقررة في علم المنطق"[1].

وهكذا نجد أنَّ مفهوم الحجاج أو المحاجَّة عند القدماء يرادف مفهوم الجدل، وسنرى أنَّ مفهوم الحجاج أوسع من الجدل في الدراسات الحديثة لنظرية الحجاج؛ إذ ليس الحجاج محصورا بالحوار الذي فيه خصومة أو نزاع.

٢. الحجاج بوصفه مرادفا للبرهان، والدليل:

إذا كان هناك تداخل للحجاج مع الجدل على نحو كبير عند القدماء فمرادفته للاستدلال والبرهان في معجمات اللغة والمصطلحات أكبر من ذلك، جاء في لسان العرب:"الحجَّة: البرهان"[2]، وفي الاصطلاح:"الحجَّة ما دلّ به على صحة الدعوى، وقيل: الحجة والدليل واحد"[3]؛ والبرهان هو:"بيان الحجّة وإيضاحها على ما قال الخليل، وقد يطلق على الحجّة نفسها"[4]؛ والباحث في التراث الإسلامي يجد مصطلحات الحجّة، والاستدلال، والجدل تعد من مصطلحات علم الكلام الذي يعرَّف بأنَّه:"علم النظر والاستدلال أيضا...، وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه"[5].

وهكذا نجد مصطلحات الحجّة والدليل، والاستدلال مترادفة؛ إذ نرى المعجمات الخاصة بالمصطلحات قديما وحديثا تفسر الحجّة بالدليل، والبرهان،

---

[1] الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:١٦.

[2] لسان العرب(حجج):٢/ ٢٢٨.

[3] التعريفات:٨٧.

[4] كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم:٣٢٤.

[5] المصدر نفسه:٢٩.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: "إنَّ الحجَّة في معنى البينة، قريبة كل القرب من البرهان، وفي معنى المحاجة وثيقة القرب بالدليل"[١].

لكننا لا نعدم أن نرى من علماء الفلسفة والكلام من يشير إلى فرق دقيق بين هذه المصطلحات، قال الكفوي(ت١٠٩٤هـ):"والحجَّة بالضم البرهان، وعند النظار أعم منه لاختصاصه عندهم بيقين المقدمات، وما ثبت به الدعوى من حيث إفادته للبيان يسمى بيِّنة، ومن حيث الغلبة به على الخصم يسمى حجَّة"[٢].

وهذا الفرق الدقيق بين الحجاج، والبرهان أو الاستدلال، سيكون نقطة انطلاق نظرية الحجاج بمفهومها الحديث أو ما تُعرف بالخطابة الجديدة.

ذكرت فيما تقدَّم وجود ترادف في استعمال مصطلحات(الحجة، والدليل، والجدل) عند القدماء، وقد استعملوها على نحو كثير مع غياب مصطلح(الحِجَاج) ومفهومه بالمعنى الذي يراد به في الدراسات اللسانية والمنطقية الحديثة.

وبعد أن تداخلت هذه المصطلحات قديما أشارت الدراسات الحجاجية الحديثة إلى وجود فروق جوهرية بين هذه المصطلحات، وسنبحث هذه الفروق فيما يأتي مع التأكيد على أنَّ نظرية الحجاج أو الخطابة الجديدة جمعت ما تفرَّق بين الخطابة الجدل على نحو ما سنشير إليه في مفهوم(برلمان وتيتيكاه) للحجاج؛ لتقديم نظرية الخطابة الجديدة[٣]، وسأوزع الفروق بين هذه المصطلحات على محاور رئيسة، هي:

---

[١] الاحتجاج العقلي في النحو العربي، رسالة ماجستير:١٤.

[٢] الكليات:٤٠٦.

[٣] ينظر أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٣٠٦.

١. الحجاج والجدل:

نستطيع أن نلخِّص الفرق بينهما بأنّ "الحجاج أوسع من الجدل فكل جدل حجاج، وليس كل حجاج جدل"[١]؛ وبحسب(روبول) فإنّ الحجاج هو جوهر الخطابة بوصفها فن الإقناع[٢]، وفكرة الحجاج تقوم على الإقناع بخلاف الجدل القائم على(التبكيت)[٣]، والتبكيت هو "التقريع والتوبيخ"[٤]، وبذا يقع مشروع(الحجاج) بوصفه خطابة جديدة بين مفهومي(الجدل)، و(الخطابة القديمة)؛ فالجدل تبكيتي، والخطابة القديمة تقوم على إثارة المشاعر والانفعالات، وتسعى إلى إرضاء الجمهور واستمالته ولو كان بالمغالطة والخداع[٥]، أمَّا مفهوم(الحجاج) حديثا فهو قاسم مشترك بين هذين المفهومين[٦]؛ إذ يشترك كلاهما في إنتاج(الحجاج)، يقول أرسطو في الجدل والخطابة: "قوتان لإنتاج الحجج"[٧].

والجدل علم اختصت به مدارس الفقه فهو:"معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم؛ فإنّه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في

---

(١) (المحاجّة والإقناع في القرآن الكريم) بحث ضمن مجلة(المصباح)، العدد الثاني- صيف (٢٠١٠- ١٤٣١هـ):٢٢٣.

(٢) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٢٥-٢٦.

(٣) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٣٢.

(٤) لسان العرب(بكت):٢/١١.

(٥) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:١٨، والبعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٢٦.

(٦) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:١٨.

(٧) الخطابة، أرسطو:٣١.

الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الردِّ والقبول"[1]، فالجدل كما أسلفتُ: "شدة الخصومة"[2]؛ لذلك كان الغرض منه إسكات الخصم وإلزامه[3]، وهذا الأمر يختلف عن الغرض من الحجاج فالهدف منه(إقناع) وليس (إسكات)، فضلا عن أنّ المخاطب في الجدل خصمٌ وهو خاص بوقت الخطاب بخلاف ما نجده في مفهوم الحجاج حديثا؛ فقد نصّ(برلمان) على وجود مخاطب كونيٍّ فضلا عن المخاطب المباشر[4]، فالحجاج لا يُوجَّه إلى الخصم فقط بل قد يُوجَّه إلى جمهور(محايد) أو جمهور يتفق مع الخطيب في ما يطرحه من أفكار ومنا ستكون الغاية من الحجاج هي ترسيخ المفاهيم المتفق عليها.

٢. الحجاج والبرهان:

ذكرت فيما تقدم أنّ هناك تداخلا بين مفهومي الحجاج، والبرهان على نحو أوسع مما نجده بين الحجاج والجدل؛ فقد فُسِّرت الحجّة بالبرهان لغة واصطلاحا، وسأبين هنا أهم الفروق الجوهرية بين المصطلحين؛ إذ أشار المحدثون ممن نظّر إلى الحجاج إلى أنّ الفرق الرئيس بين الحجاج، والبرهان يقوم على ثنائية(الممكن/ الضروري)[5]؛ فالحجاج يقوم على البحث في الممكن بخلاف البرهان القائم على الضروريات، وقد بحث أرسطو هذه المقابلة، وبيّن أنّ

---

[1] المقدمة، ابن خلدون:٣/٢١.

[2] تاج اللغة وصحاح العربية(جدل):٤/ ١٦٥٣.

[3] ينظر: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم:٥٥٣.

[4] ينظر أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠١ .

[5] ينظر: المصدر نفسه:١١١ .

الضروري هو موضوع العلم، وأنّ الممكن هو موضوع الظـن[١]، ومـن أهـم الفروق التي نشأت من المقابلة بين الضروري(البرهان) والممكن(الحجـاج) مـا يأتي[٢]:

١. يكون البرهان قولا كليا، ويكون الحجاج قولا كليًا أو جزئيا؛ فالقول الواقـع في الضروري يكون بالضرورة كليًا نظرا إلى وجوب أن يكون الحمل فيـه على جميع الشيء؛ لذلك كان القول العلمي كليا.

٢. لا يمكن أن نعقد برهانا في مجال(الممكن) ولكن يمكن أن نعقد حجاجا فـي مجال(الضروري)، وأمّا إمكان قيام الحجاج في مجال الضروري فيرجع إلى أنّ بعض البراهين في العلوم قد يكون كاذبا وكل برهان كاذب يواجه بتبكيت يكشف عن وجه الخطأ فيه.

ومن أهم الفروق بين الاتجاهين قيام البرهان على(الاسـتنباط)، وقيـام الحجاج على(التمثيل)، ولهذه الثنائية أثر في تطور الأفكـار العلميـة؛ فـبعض الباحثين قد ربط العلوم العقلية بفعالية البرهان، بخلاف آخرين يرون أنّ(البرهان) لا يأتي بجديد، وأنّ(التمثيل) هو الذي يرتبط بالممارسة الإبداعية في العلم وفـي غيره[٣]؛ يقول(برلمان) في بيان أهمية(المثال) في العملية الحجاجية:"يلعب التمثيل دورا في الابتكار والتدليل والحجاج عبر عمليات التطوير والتمديد التي يسـمح بها، لكن أين يجب التوقّف في هذا التطوير؟ فباعتباره عنصر ابتكار يمكن تمديده بدون تحديد، لكن من اجل الحفاظ على قيمته، هناك حدود لا يمكن تجاوزها"[٤]؛

---

[١] ينظر: شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان: ١١٤- ١١٧.

[٢] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١١٢.

[٣] الحجاج طبيعته ومجالاته ووظائفه:٣٤-٣٦.

[٤] المصدر نفسه: ٢٩-٣٠.

ومن أهم الفروق بين(الحجاج)، و(البرهان) أنّ الجمل في الخطاب البرهاني يستقل بعضها عن بعض وتتآلف فيما بينها على أساس مجموعة من العلاقات الصورية الصارمة تستمد مشروعيتها من خصائص القوانين المنطقية بخلاف العلاقة الحجاجية التي تنشأ في الخطاب عبر دلالة الألفاظ أنفسها فمحتوى الخطاب تشترك في تكوينه أبعاد دلالية وتداولية ووقائع نفسية واجتماعية، والاستدلال البرهاني يكتفي بإيراد دليل واحد لتكون النتيجة مثبتة أو منفية.

أمّا الحجاج فلا يشترط فيه عدد محدد من الحجج؛ إذ قد يُكتفى بواحدة وقد تتعدد الحجج في النص وهي في كل ذلك تزيد في إقناع المتلقي، ويتصف البرهان باستقلاله التام عن الذات الإنسانية؛ فالأصل في الأبنية البرهانية أنّها تستند على جملة من العلاقات الموضوعية القائمة على قوانين عامة تفرض سلطتها على غيرها أمّا العلاقات الحجاجية فلا يكون لها أيُّ معنى إذا لم تستحضر سياق تداولها الإنساني؛ فالمخاطب يمثل ركنا أساسيا في الفعل الحجاجي فضلا عن أنّ الخطاب الحجاجي يقبل الاعتراض والدحض والتفنيد فكل عملية حجاج يمكن مواجهتها بعملية حجاج معارضة؛ لكونه مبنيا على مجموعة من المعايير التي تمتاز بكونها ظنية لكنّها تتمتع بشهرة ومقبولية لدى عامة الناس بخلاف البرهان الذي يكون ملازما على الدوام لطبيعته اليقينية والكلية[1].

وذكر الأستاذ طه عبد الرحمن أنّ حقيقة الحجاج لا تقوم على مجرد العلاقة الاستدلالية بين جانبين إثنين؛ لأنّ هذه العلاقة على بالغ أهميتها في الظفر بالصواب لا تسمح بإمكان التقلب في الوظيفة بين طرفي الاستدلال؛ فالمدعي وإن اجتهد في النظر إلى دعواه نظر المعترض عليها فإنّه لا يخرج إلى وظيفة المعترض، بل يبقى مدعيا لا غير، والمعترض كذلك، وان سعى إلى النظر في

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/١٨٥-١٩١.

اعتراضه نظر المدعي، فإنَّه لا يخرج إلى وظيفة المدعي، بل يبقى معترضا لا غير؛ فماهية الحجاج تقوم على كونه يطوي على قدر من(الالتباس) في الوظيفة، هذا الالتباس الذي لا نجد له نظيرا في الاستدلال هو الفاصل بين الحجاج، والبرهان[1].

وأشار الأستاذ طه عبد الرحمن إلى أنَّ(الالتباس) المقصود في الحجاج لا يعني تعدد معاني اللفظ الواحد في الخطاب بحيث يُحمل هذا اللفظ في قضية منه على معنى، وفي قضية أخرى على معنى ثانٍ، ولا يعني الغموض في تركيب الجملة الواحدة في الخطاب بحيث تقبل هذه الجملة تحليلين نحويين مختلفين فأكثر؛ فهذان الضربان من الالتباس يعرفان بـ(اسم مغالطات القياس)، إنّما(الالتباس) المقصود التباس في الوظيفة الحوارية ويخرج فيها المدعي إلى وظيفة المعترض، أي قصد الاعتراض وقصد الادعاء فضلا عن اجتماع اعتبارين في الحجاج لا يجتمعان في البرهان، هما: اعتبار القيمة، واعتبار الواقع[2]، بمعنى أنَّ الحجاج يتداخل فيه طلب معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته، مما يعني العلم بالحقائق والعمل بالمقاصد [3].

وقبل أن أختم البحث في نقطة الخلاف بين الحجاج، والبرهان أشير إلى جدول (بواسينو) الخاص بالفروق بين الاستدلال البرهاني، والحجاج، والحمل على الإقناع الذي يمثل أهم ما تتصف به(السفسطة)[4]؛ لأهمية هذا الجدول في توضيح الفروق بين هذهِ المصطلحات الثلاثة التي يتوهم كثير من الباحثين

---

(1) ينظر:اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢٢٩- ٢٣٠.

(2) ينظر:المصدر نفسه:٢٣٠ - ٢٣١.

(3) ينظر:المصدر نفسه:٢٣٠.

(4) ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣١.

ترادفها؛ فليس الحجاج استدلالا منطقيا مجرَّدا؛ إذ لا يملك الاستدلال الحجاجي صرامة البرهان، وإلزاميته، ولا موضوعية الدليل وقوته؛ فصلاحيته تقاس بمعايير قوتهِ أو ضعفهِ في الإقناع[1]، كما أنَّه ليس مناورة أو مغالطة أو إيهاما.

الاستدلال البرهاني	الحجاج	الحمل على الإقناع
١. منطق صوري لا يقبل اللبس (برهنة تحليلية).	- مساره حواري يستعمل أحكام القيمة (برهنة تحليلية).	- فن الإيعاز أو المناورة.
٢. مساره عقلي يخاطب الإدراك.	- هدفه الإقناع على أسس عقلية.	- هدفه الإقناع بكل الوسائل حتى غير العقلي منها.
٣. برهنة لا شخصية، وهي ملزمة.	- برهنة موجهة إلى طرف ما، وهي ليست ملزمة.	- صورة صانع الإقناع لها دور أساسي.
٤. مجاله اليقينيات.	- مجاله الرأي والممكن (العرف).	
٥. حجة واحدة يمكن أن تكون باتة قاطعة.	- الحجج قد تكون كثيرة نسبيا.	
٦. جمهوره كوني.	- جمهوره خاص لكن يُقصد من خلاله جمهور كوني.	- جمهوره خاص (جمهور مستهدف).
٧.	- جمهوره معني بالبحث عن الأفضل.	- جمهوره سلبي.

وبعد أن بيَّنتُ التداخل بين مفهوم الحجاج، وبعض المفاهيم الأخرى سأتحدث على نحو مختصر عن تطور مفهوم الخطابة وصولا إلى الحجاج بوصفه خطابة جديدة وأهم مفاهيمه.

---

[1] ينظر: عالم الفكر، المجلد ٣٠، العدد ١: ١١٧.

أولا: الحِجَاج في الفكر اليوناني

كان أول ظهور لمفاهيم الخطابة القديمة في المجتمع اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد؛ وذلك نتيجة للصراع الذي دار بين الفلاسفة، والسفسطائيين في إثبات الحقوق، وظهرت الخطابة القديمة أول الأمر على يد السفسطائي(كريكياس) حينما وضع أولى قواعد القول الخطابي، كما بحث الأقسام الرئيسة للخطابة[١]، وكانَ السفسطائيون يستعملون سلطة القول؛ لتحقيق أغراضهم، والحصول على المكاسب والأموال، وهو ما أدى إلى تصدي فلاسفة اليونان بدءا بسقراط للمغالطات السفسطائية[٢]؛ حفاظا على المثل العليا، والخلق الرفيع؛ لأنّ الخلاف الرئيس بين الطرفين كان بسبب اعتقاد السفسطائيين أن لاوجود لحق أو باطل، ولا صدق أو كذب إنّما" الحقُ هو ذلك الشيء الذي يعده الإنسان حقًا والباطلُ هو ذلك الشيء الذي يظنه الإنسان باطلا"[٣]؛ فالإنسان عندهم هو مقياس الأشياء[٤]، فتصدى لهم سقراط، ومن بعده أفلاطون، وتبعهما أرسطو الذي استقرت عنده مصطلحات الجدل، والخطابة، والبرهان، والتبكيتات السفسطائية في مجموعتهِ الفلسفية.

وقد عرّف أفلاطون الخطابةَ بأنّها:"صناعة قيادة النفوس بالقول"[٥] ويعني بذلك قيادة النفوس إلى الخيرِ والحق، وهذا المفهوم يختلف عن الغرض من

---

[١] ينظر :كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٢٩-٣٠،وتاريخ نظريات الحجاج:١٩-٢٠.

[٢] ينظر :الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١٣/٢.

[٣] أسس الفلسفة والمذهب الواقعي:٦٧/١، واللغة والمعنى،مقاربات في فلسفة اللغة:٢٣.

[٤] ينظر :تاريخ نظريات الحجاج:٢٣.

[٥] أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية:٧٩.

الحجاج السفسطائي؛ فالحجاج السفسطائي بحسب أفلاطون يزيِّفُ القول، ويقلبُ الحقائق، ويوهم الجمهور ويشككهم في الثوابت؛ لذا رأى أفلاطون وجوب تأسيس خطابة بديلة للرد على المغالطات السفسطائية.

نهض أرسطو بعد أفلاطون ليضع أسس التفكير الصحيح، وقواعد البرهان، والجدل، والخطابة، والرد على المغالطات السفسطائية، فكان بذلك الرائد في دراسة الحجاج والمرجع الأساس فيها لمن جاء بعده في العصور اللاحقة، والخطابة عنده تعني:"الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع"[١].

وهنا نلحظُ اختلافا بين الرؤيتين السابقتين للخطابة ؛ فأرسطو بنى تعريفه على فكرة الإقناع أما أفلاطون فقد بنى مفهومه على ما نستطيع أن نسميه(قيادة المتلقي) بما يتضمنه ذلك المفهوم من حمل على الإقناع؛ فالخطابة عند أفلاطون "ليست فضاء تفاعل قولي بين الإنسان والإنسان بما في ذلك من علاقات معقدة ومقاصد مختلفة وتنوع في الرؤى وإنما هي فعل قولي أخلاقي"[٢]؛ فالخطابة تجنح نحو نوع من الإكراه المنطقي والعاطفي عند أفلاطون بخلاف ما نجده عند أرسطو فهي إقناع المتلقي.

وعلى الرغم من الخلاف بين النظريتين إلا أنَّهما تتفقان في الهدف من الخطابة وهو تحقيق الخير للإنسان لا تحقيق المآرب واللذات كما هو الحال عند السفسطائيين.

ويبدو لي أنَّ النقد الذي وجَّهه أرسطو للسفسطائيين كان بسبب توظيفهم اللغةَ بما يتناسب مع فلسفتهم المبنية على تحقيق اللذةِ لا الخير؛ فقد أشار أرسطو إلى عمليتينِ تُعتمَدان في بناء الدلالة اللغوية في السفسطة؛ "فالإنجاز العملية

---

[١] الخطابة، أرسطو: ٢٩.

[٢] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٧٩.

الأولى يعتمد السفسطائي ثلاث وحدات لغوية تمتاز بما تحمله وتنشئه من تعدد دلالي، وهذهِ الوحدات بعضها معجمي(الاسم المشترك)، وبعضها صرفي(شكل اللفظ)، وبعضها الثالث فوق تقطيعي(النبر)، وهذه الوحدات الثلاث يستغلها السفسطائي على نحوٍ يُحدِث بهِ في بعض أقسام قولهِ عملية(انزلاق) من دلالة إلى دلالة أخرى...، ولإنجاز العملية الثانية يستعمل ما أسماه أرسطو(التركيب)، وبهِ يوهم السفسطائي بأنّ القول الصادق يجب أن تكون أجزاؤه صادقة ويتمكن بناء على ذلك من إحداث انزلاق في الاعتبار من حكم(التركيب) إلى حكم جزئه وجعل هذا الثاني في وضع ذاك الأول"[١]، ومن ذلك قول القائل: قد يمكن للجالس أن يمشي، والذي ليس بكاتب أن يكتب، فعطف الجملة الثانية يوهم المتلقي بأنَّها في حكم الأولى[٢].

ولأرسطو يعود الرأي القائل بالفصل بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي، وهو ما أشرنا إليه في التمهيد على نحو مختصر، ومن أهم الفروق بينهما الفرق في اتجاه كلٍّ منهما؛ فالحجاج الأول تبكيتي، والحجاج الثاني إقناعي[٣]؛ فكلمة(إقناع) هي المركز في مفهوم الخطابة؛ بخلاف الحجاج الجدلي فهو قائم على التبكيت، والتبكيت:"كالتقريع والتعنيف، وبكته بالحجَّة، أي غلبه"[٤]، أي أنّ الحوار يتخذ مسار التقريع والتوبيخ ومحاولة الغلبة بتعنيف الخصم؛ فذلك النمط من الحجاج ينطلقُ من قضية يجهد المجيب في حفظها، ويبني السائل فيها إستراتيجية يرغم بها المجيب على أن يسلِّمَ له بنفسهِ مقدمات ذلك القياس، وفي

---

[١] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٢٣٦- ٢٣٧ .

[٢] ينظر:المصدر نفسه: ٢٣٧.

[٣] ينظر:المصدر نفسه: ١٣٢.

[٤] تاج اللغة وصحاح العربية(بكت):١/٢٤٤.

نهاية الحجاج الجدلي لا يكون المجيب مقتنعا بالضرورة بما قاله السائل، وإنما يكون في وضع من لم يجد ما يردُّ بهِ عليهِ، أمّا الحجاج الخطابي فهو حجاج يقصدُ به الخطيب إقناعَ الجمهور بقضية ما مستغلّاً عواطفَهم.[١]

وتوصّل أرسطو بدراستهِ الخطابة إلى أنّ هناك ستة أفعال متقابلة يتم إنجازها بالخطبة، وهي:يتهم/ يدافع، يحض/ ينهى، يمدح/ يذم، والغرض الرئيس من الخطبة هو الإقناع[٢]؛ وقد قسّم الخطبة على ثلاثة أجناس هي: الجنس المشاوري، والجنس المشاجري، والجنس التثبيتي[٣]، ويمثل الإقناع في جميعها هدفا منشودا؛ والخطابة عنده تقوم على ثلاثة محاور:استكشاف الحجج الواردة في النص، وترتيب أجزاء القول أي الترابط بين أقسام الخطاب، والأسلوب ويتمثل بالخصائص الفردية للخطاب[٤].

وعدّت بعض الدراسات الحجاجية أنّ أرسطو استقل في طرحه الحجاجي عن أفلاطون والسفسطائيين معا؛ فالخطابة عند أفلاطون تهتم بالبحث عن الحقيقة فقط ومن يرفض ذلك يعد من السفسطائيين، وفي مقابل ذلك ادعى السفسطائيون أنّ الحقيقة لا وجود لها وأنّ الإنسان هو المقياس[٥]، مستندين إلى جملة طرائق لغوية تتعلق بما يعرض للألفاظ أو المعاني[٦]، وقد امتاز طرح أرسطو بالجدة قياسا على ما رآه أفلاطون والسفسطائيون؛ إذ لم يشترط في الخطابة البحث عن

---

[١] ينظر:أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٣٢.

[٢] ينظر:أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ١٤٣.

[٣] ينظر:المصدر نفسه: ١٤١.

[٤] ينظر:القاموس الموسوعي للتداولية: ٤٣٠.

[٥] ينظر: تاريخ نظريات الحجاج:٢٨.

[٦] ينظر: تلخيص السفسطة:١٤.

الصدق أو الحقيقة بل عن الإثبات وما هو قابل للصواب ولـم يـربط توظيـف الخطابة في الشر؛ إذ إنّها أداة نستطيع توظيفها في الخير أو الشر فضـلا عـن توسيعه حقل الخطابة؛ فلم تعد محصورة في الجانب القضائي على نحو ما نجده عند السفسطائيين أو في الجانب الفلسفي على نحو ما نجده عند أفلاطون[١]؛ فهي وسيلة حوار لا تتحدد بميدان دون آخر.

ثانيا: الحِجَاج في الفكر العربي

قبل أن أتحدث عن مفاهيم الحجاج في الدرس اللساني تقتضيني موضوعية البحث الإشارة إلى جهد علمائنا العرب من فلاسفةٍ، وغيرهم في قضية الحجاج، إذ تصدى علماؤنا لشرح كتب أرسطو، وتلخيصها، ولاسيما فيما يتعلـق بآليـة الإقناع؛ فقد عرّف الفارابي(ت ٣٣٩هـ) الخطابة بأنّها: "صناعة قياسية غرضها الإقناع في جميع الأجناس البشرية"[٢]، وذكر أنَّ الخطابة تتصف بأنَّ: "لها قـدرةُ على إقناع الجمهور بأسرهم في كل شيء"[٣].

وقد تصدّى ابن رشد(ت٥٩٥هـ) إلى بيان مفهوم الخطابة وتحدث عـن آليات الإقناع، وما يميِّز الخطاب السفسطائي مـن غيـرهِ؛ فالسفسـطة عنـدهُ هي:"المخاطبة التي توهم أنّها مخاطبة جدلية من مقدمات محمودة، من غيـر أن تكون كذلك في الحقيقة"[٤]؛ فالسفسطة تختلف عن الخطابة ؛ لأنَّ الخطابة تمثِّـل أساس الحجاج عند أرسطو والعلماء العرب وتكـون برهانيـة، أو جدليـة، أو خطبية، والخطاب البرهاني هو ما يكون من المبادئ الأولى الخاصة بكل علـم،

---

[١] ينظر: تاريخ نظريات الحجاج: ٢٨-٢٩.

[٢] الخطابة،الفارابي: ٧.

[٣] المصدر نفسه: ٢٥.

[٤] تلخيص السفسطة:١٢.

والتي تلقى من المعلِّم إلى المتعلِّم، والخطاب الجدلي هو المؤلف من المقدمات المشهورة المحمودة، والخطابُ الخطبي فهو الذي يُبنى من المقدمات المظنونة أو المقبولة أو المشهورة[1]، وهي بذلك تختلف عن المغالطات السفسطائية التي توهم الجمهور.

أمّا ما يتعلق بجهد علماء العربية في هذا لمضمار فقد أشرت في بداية الفصل إلى أنَّ مفهوم(الحجاج) عندهم كان مرادفا للجدل، في أغلب الأحيان، كما يترادف مع البرهان؛ لكن لم تخل مصنفاتهم من الإشارة إلى(الحوار الإقناعي) الذي يمثل وبحسب ما يبدو لي جوهر عملية الحجاج؛ فقد ورد لفظ(إقناع) في تقسيم الحجّة، وهو اللفظ الرئيس الذي يقوم عليه مفهوم(الحجاج)؛ فالحجَّة بحسب رأي بعضهم تكون إما قطعية وإما إقناعية؛ فالقطعية: "الحجّة التي تفيد اليقين ولا يقصد بها إلا اليقين بالمطلوب"[2]، والإقناعية: "الحجة التي تفيد الظن لا اليقين ولا يقصد بها إلا الظن بالمطلوب"[3].

وأرى أنَّ الحجة(القطعية) ليست إلا خطابا برهانيا، وأنَّ الحجة الإقناعية ليست إلا مخاطبة جدلية أو خطبية؛ والمخاطبة الجدلية، و الخطبية قد بنيتا على المقدمات الظنية بخلاف البرهان، وهذا الأمر أدّى إلى تشظي الخطابة وتوزيعها على الأجناس الخطبية الثلاثة وهو ما ترفضه الخطابة الجديدة.

وذكر بعض المحدثين أنَّ الاهتمام بالحوار الإقناعي عند علماء اللغة القدماء لم يرقَ إلى مستوى اهتمام الفلاسفة من يونانيين، وعرب، فلا نجد سوى

---

[1] ينظر: المصدر نفسه:١١- ١٢، وعيون الحكمة:١٢- ١٣.

[2] دستور العلماء أو جامع العلوم:٢/ ١١.

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

إشارات إلى جوهر مفهوم الحجاج في كتب البلاغيين منذ عصر الجاحظ(ت ٢٥٥هـ) إلى حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)[١].

وأعتقد أنّ السبب الرئيس في ذلك هو اهتمام علماء اللغة، والبلاغة ولاسيما المتقدمين منهم بدراسة بلاغة القرآن، وبحث إعجازه في الجوانب اللغوية، وقيام تلك الدراسات على نظرية(النظم) التي بحثت في جمالية النص القرآني ولم تتجاوز ذلك البحث إلى النظر في الغرض الرئيس منه وهو إقناع المتلقي بما يطرحه الله تعالى في كتابه الكريم من أفكار وما يستلزمه ذلك الطرح من البحث في وسائل الإقناع من فكرية ولفظية.

وقد انتقد اللسانيون المحدثون- ممن تبنّى نظرية الحجاج- القدماء في حصرهم الإعجاز القرآني في صورة النص، وهيأته، يقول الأستاذ حمادي صمّود: "ولم يدر بخلدهم أن يأتي إعجاز القول أيضا من الحجج التي يبنيها والسياسة التي ينتهجها في ترتيبها لتتضافر مع الشكل والهيأة فيبلغ النص من سامعهِ قصده، إن قدرّنا أنّ الجلود لا تقشعر بخصائص بنيته اللغوية فحسب، وإنّما تقشعر أيضا من إحكام بنية الحجة، والقدرة الفائقة على الإقناع"[٢].

وعلّل بعض الباحثين إهمال علماء اللغة، والبلاغة دراسة مفهوم الحجاج، وعدم جمع قضاياه وتحليلها، بأسباب متعددة، أهمها[٣]:

١. إنّ قضايا الحجاج أهتمّ بدراستها، وتوظيفها المتكلمون، والمناطقة الذين راحوا يستعينون بها في إثبات صحة معتقداتهم، وإبطال معتقدات

---

[١] ينظر: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٥١.

[٢] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٢٠.

[٣] ينظر:كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٥٤- ٥٥.

خصومهم من المذاهب الأخرى، ولهذا درست عندهم من الجانب البرهاني والجدلي، ولم تدرس بيانيا أو أدبيا.

٢. ارتباط الدراسات البلاغية بالقرآن الكريم بهدف بيان إعجازه، والكشف عن أسراره، والحجاج كما نعلم يقوم على وسائل بعضها من الخطورة بمكان، كالجدل، والقياس اللذينِ قد يؤديان بالباحث إلى نتائج غير مرضية، أو غير صحيحة إذا أسيء استعمالهما.

٣. إنَّ الثقافة الإسلامية أُدخِلت شروط الرأي الواحد السائد عن رضًا أو بحدِّ السيف؛ لأنَّه الحق والاستقامة، وما عداه باطل، وعوج يجب أن يقوَّم فانكمش القول وذهب ما كان فيه من سعي إلى الحجَّة والرأي.

فالثقافة الإسلامية تشظَّت إلى ثقافات متعددة، وقد دخلت هذه الثقافات الجزئية في نفق التكفير للآخر لمجرد الاختلاف معه، وهذه النظرة التي لا تؤمن بالتعدد الفكري، والانفتاح على الآخر وبخاصة عند أبناء الدين الواحد فضلا عن أبناء الأديان الأخرى كانت على النقيض مما وجدناه في الثقافة اليونانية؛ إذ نشأت الخطابة في فضاء(أثينا)، وتطورت على أيدي السفسطائيين الذينَ وإن وظَّفوها لتحقيق مآربهم، والحصول على الأموال، وتغليب(لذة الإنسان) على قيم الخير، إلاَّ أنَّ ذلك كان عاملا حاسما في نهوض الفلاسفة للردِّ عليهم، وتفنيد آرائهم، فنرى الجهود تستقر في بحوث أرسطو لبيان مغالطاتهم في الخطاب، وتلاعبهم باللغة لصالح أغراضهم، ليضع بذلك أسس الخطابة الحجاجية مفرِّقًا بينها والسفسطة.

فهذا الحوار الإقناعي يجري أمام أعين المجتمع اليوناني في جو(ديمقراطي)، ولم يعرف المجتمع الإسلامي مثلِ هذه الحالة من مناقشة الآراء خطابيا، وبحضور الطرفين المختلفين إلا في فترات قليلة إلا أنَّها لم تكن بمستوى

الحجاج الخطبي في المجتمع اليوناني، بل كانت أقرب إلى المناقشات الجدلية منها إلى الخطبية.

قد تنبّه بعض العلماء لأهمية(الحِجاج) في الحوار، يقول الجاحظ(ت٢٥٥هـ): "قال بعض الهند: جماع البلاغة البصرُ بالحجة، والمعرفة، بمواضع الفرصة"[١]؛ فالبلاغة عنده تقوم على إدراك الحجة التي تُلزم المخاطَب ومعرفة وقت توظيفها لإقناع الخصم؛ وقد ربط أبو هلال العسكري(ت ٣٩٥هـ) الحجاج بالبلاغة عادًّا ذلك من(اللطف) في مخاطبة الآخرين؛ فاللطيف من الكلام:"ما تَعطِف بهِ القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين بهِ العريكة الأبيّة المستَصعبة، ويُبلَغ بهِ الحاجة، وتُقام بهِ الحجّة".[٢]

وقد أولى ابن وهب الكاتب(ت القرن الرابع الهجري) أدبيات الجدل مكانة مهمة؛ إذ ذكرها ضمن أقسام بيان(العبارة) وهو أحد أقسام مفهوم(البيان) وهذا المفهوم يشتمل على كلِّ ما يوصل المعنى المتلقي من طرق[٣]، ولأدب الجدل عند ابن وهب الكاتب شروط مهمة تؤدي إلى غلبةِ الملتزم بها وسموه على خصمه، ومن تلك الشروط :أن يخرج من قلبه التعصب للآباء، وأن يعتزل الهوى فيما يريد إصابة الحق فيه[٤]، وألّا يُعجَب برأيه وما تسوّله له نفسه حتى يفضي بذلك إلى نصحائه، وأن يتجنّب الكذب في قولهِ وخبره؛ لأنّهُ خلاف الحق، وإنّما يريد بالجدل إبانة الحق وإتباعه[٥]، وأن يجتهد في تعلم اللغة، ويتمهّر في

---

[١] البيان والتبيين: ٨٨/١.

[٢] الصناعتين: ٥١.

[٣] ينظر :البيان والتبيين: ٧٦/١.

[٤] ينظر :البرهان في وجوه البيان: ٢٣٦.

[٥] ينظر :المصدر نفسه:٢٣٨.

العلم بأقسام العبارة فيها، وأن يحترس من اشتراك الأسماء، واختلاط المعاني باللغة، والمعرفة بها[1]، وأن يحلم عما يسمع من الأذى والنبز[2]، وألاّ يسمع خصمه ما لا يفهم من القول، والألفاظ؛ لأنّ ذلك يعد عيًّا وسوء عبارة، ووضعا للأشياء في غير مواضعها[3].

ونتوقف أخيرا عند حازم القرطاجني الذي ذكر أنّ الحجاج من أوجه الكلام، فقال: "لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال"[4].

وهذا التفريق ينطلق من نظرة البلاغيين إلى تقسيم الكلام على: خبر، وإنشاء[5]، وهذا الأمر رفضته لسانيات الحجاج التي ارتبطت على نحو وثيق بنظرية أفعال الكلام ولاسيما مفهوم(ديكرو) الذي سنفصل فيه الحديث عند تناولنا مفاهيم الحجاج في العصر الحديث.

وقد فرّق العلماء بين طريقتين لإقناع الخصم، وهما: التمويهات والاستدراجات، وهما من الاستراتيجيات المهمة في عملية الإقناع، يقول القرطاجني في ذلك: "التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنّه على غير ما هو بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرّب في

---

(1) ينظر: البرهان في وجوه البيان:٢٣٨-٢٣٩ .

(2) ينظر:المصدر نفسه:٢٣٩.

(3) ينظر :المصدر نفسه:٢٤٢.

(4) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٦٢.

(5) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة:٢٤، والشرح المختصر:٤٠.

احتذائها"[١]؛ وقد ميّز بين هاتين الاستراتيجيتين، بقوله: "التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيأة من يُقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه..... حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول"[٢].

ثالثا: مفاهيم الحِجَاج في العصر الحديث

تقدم الحديث عن الحجاج في الفكرينِ اليوناني والعربي، وسنبحث هنا نهضة الحجاج أو الخطابة الجديدة في العصر الحديث، وأبرز مفاهيمه.

أوضحت في المبحث السابق أنَّ الفكر الحجاجي نشأ أول الأمر على أيدي السفسطائيين في مغالطاتهم ثم ما لبث أن بحثه أرسطو في كتبه المنطقية لتخليصه من ألاعيب السفسطة، فبحث أنواع الخطبة، ومحاور الخطبة، وصفات الخطيب، و(المواضع) أو الأفكار التي ينطلق منها الخطيب لإقناع الآخرين، كما بحث الوحدات الحجاجية الكبرى بكل تفصيلاتها، وحركة السؤال ودوره الحجاجي إلى غير ذلك من قضايا[٣]، ثم انتقل البحث في الخطابة إلى علمائنا المتقدمين من فلاسفة، وبلاغيين، فكانت لهم زيادات مهمة.

وقضية ارتباط الخطابة بالمغالطة، ونشأتها السفسطية أمرٌ جعلها متهمة بتشويه الحقائق، وتشير الدراسات في تاريخ الحجاج إلى أنَّ طرح(ديكارت) كان أهم ضربة وجهت إلى الحِجاج؛ لأنَّه هدم أهم ركن من أركانه وهو إمكانية الحوار بين طرفين مختلفين، فرفض(ديكارت) إمكانية الحجاج انطلاقا من

---

[١] منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٦٣.

[٢] المصدر نفسه: ٦٤.

[٣] ينظر في ذلك: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية البحث الموسوم(الحجاج عند أرسطو).

مقدمات مشهورة، مؤكدا أنّ "الحقيقة لا يمكن أن تكون إلا بديهية وهي بالتــالي واحدة فإذا وقع الاختلاف في أمرين فأحدهما صحيح والآخر خاطئ بالضــرورة أو كلاهما خاطئان ولا يمكننا البتة أن نحتج لأمرين مختلفين"[١].

وأسهم فلاسفة آخرون فــي تقلــيص دور الخطابــة، ومــنهم الفلاســفة التجريبيون من الإنكليز، فقد جعلوا التجربة هي الوسيلة الوحيدة للتوصــل إلــى الحقيقة وكان بعضهم في حملته على الخطابة أشد من ديكارت جاعلاً منها فــن الأكاذيب، كما ظهرت تيــارات فلســفية أخــرى تــرفض الخطابــة[٢]؛ فهــذه النظرة(الأحادية) لـ(الحقيقة) والتي تذكّرنا بنظرة القرون الوسطى لها كانت أهم عامل في تقليص مساحة الحوار بين الأطراف.

لكن ما إن حلّ النصف الثاني من القرن العشرين حتى عادت الخطابة إلى الأطروحات الفلسفية، والأدبية بما يُعرف بالخطابة الجديــدة أو الحجــاج علــى يد(برلمان وتيتيكاه)، ليس لإعادة دراسة الخطابــة كفصــاحة، ولــيس لدراســة النصوص أسلوبيا، بل لدراستها حجاجيا، وأثر ذلك في إقناع المتلقي؛ فبعــد أن انشغلت الدراسات اللغوية بالبحث في المحسنات اللفظية والأسلوبية سعى البحث الحجاجي إلى إعادة الدور المهم للخطابة الذي تراجع في ظل التصــاعد القــوي للبرهان في العلوم المختلفة[٣]؛ فالبرهان يؤمن بالثابت لا المتحول وتضيق فيه بل تنعدم دائرة الخلاف الذي يعد أساس الحجاج، وبذلك أصبح من الضروري البحث عن الطريقة التي يعمل بها تفكير(عقلاني) لا يستطيع أن يضع جميــع قضــاياه ضمن دائرة الصحيح، ولكنّه يجد فعاليته في الخطاب الذي يتسع للآراء المختلفة

---

[١] الحجاج في الشعر العربي-بنيته وأساليبه:١٩.

[٢] ينظر: المصدر نفسه:١٩- ٢٠.

[٣] ينظر: تاريخ نظريات الحجاج:١٩.

وحتى المتضادة وهي تطرح حججها وما تستهدفه من نتائج، يقـول(برلمـان): "وبعد الإطاحة بأوهام العقلانية والوضعية والاعتراف بوجـود الغمـوض فـي الألفاظ وضرورة الأحكام القيمية، فإنَّ البلاغة تعود كدراسة حيَّة وتقنية للحجاج في القضايا الإنسانية وكمنطق لأحكام القيمة"[1].

ويرى منظرو(الحجاج) في العصر الحديث أنَّ مشروع(برلمان) في نهضة(الحجاج) انطلق بنهوض منطق(الدوكسولوجيا) أو علم الآراء؛ فالدوكسولوجيا كلمة مركبة من كلمتين هما(Doxa)، و(Logos)، وهو علم يبحث في المعرفة الإنسانية ينطلق من فكرة أنَّ المقاربة في فهم الظواهر الإنسانية تقوم على ما يطرح من آراء[2]؛ فهي تعني"الايدولوجيا المكرّسة لخدمة وجهة ما كما تعني كذلك جملة الأفكار المشتركة المتصارعة"[3]؛ ولا نريد الخوض في تطور التفكير المنطقي ابتداء بأرسطو وصولاً إلى(الحجاجية) أو مبادئ(علم الآراء)، إلا بقدر ما يرتبط ببحثنا في تأصيل (الحجاج) في عصرنا الحاضر؛ وما تطور علم الآراء ونهوض(الحجاج) إلا ردُّ فعلٍ على النزعة المنطقية(الصورية) التي حاولت منذ زمن أرسطو إلى العصور المتأخرة بناء القواعد العقلية التي تدفع التعارضات، والتناقضات وتحدد من خلال تلك النزعة قيمتي الصدق والكذب، وهذا بفصل المعاني الغامضة، والقيم الضبابية عن الألفاظ والأفكار، وبهذا عُدَّ المنطقُ آلة استخراج الأفكار الواضحة؛ فالمنطق الصوري الموروث من أرسطو قام بتقديم القواعد التي نحتاجها لكي يكون الاستدلال صحيحا؛ إذ نصل إلى نتائج معينة من خلال مقدمات خاصة وحصرا

---

[1] الفلسفة والبلاغة: ٧٨.

[2] ينظر: المصدر نفسه:٧٤.

[3] الحِجاج بين المنوال والمثال :٤١.

من خلال تلك القواعد[١]، ورأى علماء الحجاج "أنَّ البعد الصوري في المنطق وطابعه الاختزالي قد عطَّلا جزءا مهما من العمليات الذهنية في الحصول على الحقيقة المتضمنة في الخطابات والأفكار والقضايا، والتي لا تشتغل إلا في عملية ديالكتيكية تحلل التناقض والاختلال والمقارنة ولا تلغيها"[٢]، وحركة الفكر المرتبطة بـ(الدوكسا) لا تنتج عن(الصورنة) المغلقة أو الاختزالية التي يعد البرهان مثالا رئيسا لها، بل تنتج عن طبيعة الفكر ولاسيما الفلسفي واللغوي تلك الطبيعة التي تتضمن(الالتباس) الذي يتأسَّس عليه(الحجاج)، وقد أشرت في أثناء حديثي عن الفرق بين الحجاج، والبرهان إلى أنَّ الأستاذ طه عبد الرحمن أوضحَ طبيعة الالتباس الحجاجي القائم على اجتماع اعتبارين، هما: اعتبار القيمة، واعتبار الواقع، فضلا عن اجتماع القصدين الحواريين(الادعاء) و(الاعتراض) وهو ما ربطه الأستاذ طه عبد الرحمن بالمجاز[٣]، الذي يمثل أحد أهم وسائل حجاجية النص.

وهكذا يندرج الحجاج في علم(الدوكسولوجيا)؛ نظرا لقيام هذا العلم على الأفكار المشتركة المتصارعة، والمرتبطة بالإيدلوجيا، والفكر عامة[٤].

وأهم مبادئ هذا العلم الذي قامت عليه الخطابة الجديدة، هي[٥]:

١. كل فكرة هي رأي تقف وراءه حجاجية ما.

٢. كل منطق هو تصوير لآراء معينة تم تثبيتها رمزيا(آراء ذابلة).

---

(١) ينظر: المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة:١٨.

(٢) الفلسفة والبلاغة:٧٥.

(٣) ينظر:اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢٣٠- ٢٣١.

(٤) ينظر:الحجاج بين المنوال والمثال:٤٠.

(٥) الفلسفة والبلاغة:٨١- ٨٢.

٣. لا يمكن أن نضع للعقل في اللغة أنموذجا صوريا يشتغل به، "فعالم المنطق لا يصمد أمام عملية تحولهِ إلى عالم لساني، معترفا بأنَّ الملفوظات المستخدمة في صورانيتهِ هي ملفوظات لسانية بامتياز".

٤. إنَّ المنطق الذي تشتغل به الدوكسولوجيا هو منطق المحادثة، وهو منطق تداولي يستبدل قيم الحقيقة في الملفوظات(الصدق والكذب) بقيم الإثبات والنفي (كذا)[١]، ومنه فإنَّ ما ينتج عن المحادثة لا يمكن أن يكون نافذا بالإكراه المنطقي أو الإكراه التجريبي، بل عبر قوة الحجَّة الجيدة، وتسمى هذه القوة بالدافعية العقلانية.

وبذلك ظهر الحجاج وتطور في ظل ازدهار علم الآراء؛ إذ يشترك الأفراد في توجيه الدلالات، والرموز نحو حقيقة يؤيدونها، ويربطونها بشروط تحققها زمنيا، وبذلك يكون الحجاج مرتبطا بخاصيتي(الملاءمة)، و(الموافقة)، "وهو ملاءمة اللغة للأفعال التي تنجزها، والخطاب للمتكلم، والأسلوب للمعاني، وموافقة السامعين للرأي، وعلى القرار المنجز بواسطة الرأي النافذ"[٢].

أنتقل بعد ذلك إلى بيان أهم مفاهيم الحِجاج في الدراسات الحديثة:

١. مفهوم الحِجَاج عند (برلمان):

كان نهوض الحجاج على يد(برلمان وتيتيكاه) في كتابهما(مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة)، وقد أشارت الدراسات الحجاجية إلى أنَّ مشروع (برلمان) هدم تصورات العقلانية الموروثة عن(ديكارت)؛ فالعقل يمكن أن يكون

---

(١) وردت العبارة بهذه الصورة والصواب أن تدخل الباء على الصدق والكذب لأنَّهما تدخل على ما يُترك فـ(الدوكسولوجيا) قامت على منطق الإثبات والنفي في الوقائع بخلاف نظرة البلاغيين للغة التي تقوم على معيار الصدق والكذب.

(٢) الفلسفة والبلاغة:٨٤- ٨٥.

مقنعا من دون أن يكون حسابيا[١]، وما طرحه(برلمان) كان ثورة على المنطــق الصوري واللغة(الصناعية) التي نادى بها المناطقة في العصر الحديث وبخاصة الرياضيين منهم الذين علَّلوا ذلك بأنَّ هذه اللغة تمكننا من إقصاء مظاهر الاشتباه والالتباس[٢]؛ فالتجريبية المنطقية أو(الوضعية المنطقية) مدرسة فلسفية تشــترط في كل(عبارة) أن تُدرَك مدلولاتها بالحواس وتخضع ذلك لمعيار الصدق والكذب فضلا عن إخضاع(العبارة) نفسها إلى تحليل منطقي لكي تُقبَل على أساس ذلــك أو تُرفَض[٣].

وهذا المنحى المنطقي في النظر إلى اللغة أدَّى إلى نهــوض محــورين يعارضانه: أحدهما ما طرحه(برلمان) وهو ما نبحثه هنا، والآخر في ما يعرف بـــ(فلسفة اللغة الاعتيادية) وهو ما سنبحثه عند دراسة المستوى التــداولي فــي الخطاب الحجاجي؛ فقد ذكر(برلمان) أنَّ توظيف المنطق الصوري في دراســة اللغة يقيِّد الإمكانات في التعبير مما يجعل اللغة(صناعية) لا تسمح لنا بقول كــل شيء؛ فاللغة(الطبيعية) تقتضي منطقا(غير صوري)[٤]؛ لأنَّ(المنطق الصــوري) ينظر إلى المعنى بوصفه مجرَّدا وإلى الإنسان بوصفه محايــدا وهــذه النظــرة تتعارض مع التوجه التداولي في دراسة الخطاب؛ إذ لا يصح إغفال المقومــات السياقية في تحديد المعنى؛ فالقول لا يمثل واقعة فقط بل يعبــر عــن أحاســيس المتكلمين ومشاعرهم[٥]؛ وبذلك تنعدم علاقة الحجاج بالمنطق الأرســطي الــذي

---

(١) ينظر: الفلسفة والبلاغة:٨٣.

(٢) ينظر: منطق الكلام:٤٥٩، والحجاج،مفهومه ومجالاته:١٩١/٥.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد:٢٤٤.

(٤) ينظر: الحجاج،مفهومه ومجالاته:١٩٢/٥.

(٥) ينظر: المصدر نفسه:١٩٤/١.

يبنى على مقدمتين صغرى وكبرى تفضيان بالضرورة إلـى نتيجـة[١]، وقـد ذكر(برلمان) أنَّ إمكانية منح العبارة معانٍ متعددة وفي بعض الأحيـان معـانٍ جديدة وإمكانية الرجوع للاستعارات واعتماد بعض التأويلات للألفـاظ يـرتبط باستعمال فلسفة اللغة الطبيعية[٢]، وهذه الفلسفة تبحث عن المعنـى فـي حـدود الاستعمال بعيدا عن الوضعية المنطقية في افتراضها لغة مثالية[٣]؛ وكـان مـن نتائج هذا التصور الفلسفي في النظر للغة ظهور المنطق غير الصوري المرتبط بالنظرة الحجاجية التي عدّت الحجاج فعالية يسعى بها المتحاجُّون إلـى تعليـل نتيجة ما[٤]، وفي ذلك يقول(برلمان):"إذا كان المنطق الصـوري هـو منطـق البرهان فإنَّ المنطق غير الصوري هو منطق الحجاج"[٥].

ومفهوم الحجاج عند(برلمان وتيتيكاه) يقع في صميم الخطاب الإقناعي؛ فتعريف الحجاج عندهما: "درس تقنيات الخطاب التي مـن شـأنها أن تـؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[٦]؛ وهنا نرى أنَّ الحجاج عندهما أداة الحـوار الإقنـاعي، إلا أنَّ مـا أضافه(برلمان) كان في محاور متعددة منها قيام الفكر الحجاجي علـى تـداخل

---

[١] ينظر: لسانيات الخطاب،مباحث في التأسيس والإجراء:١٢٨.

[٢] ينظر :الحجاج،مفهومه ومجالاته:١٩٣/٥.

[٣] ينظر: المقاربة التداولية لخطاب المناظرة: ٦٠.

[٤] ينظر :الحجاج، مفهومه ومجالاته:١٩٥/١ .

[٥] المصدر نفسه:١٩٣/٥.

[٦] كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٨٤، وينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ٩٢.

مباحث الجدل والخطابة في قيام الحجاج؛ فقد جعلا "الجدل في خدمة الخطابة، والخطابة غاية الجدل فإنَّه لها عماد، وهي له امتداد"[1].

وهكذا رأى(برلمان وتيتيكاه) أنَّ التمييز بين الجدل، والخطابة الحجاجيين أمرٌ مغلوط، ووجه الخطأ في الفصل بين المناقشة الجدلية، والخطابة يكمن في " تصور الإنسان مركَّبا من ملكات بعضها منفصلٌ عن بعض انفصالا تاما، العقل من ناحية، والهوى من ناحية أخرى، وهو فصل ربما يعود إلى إفلاطون في تصوره لقوى النفس"[2].

والملاحظ أنَّ الدراسات الحجاجية أشارت إلى أهم فرق بين الحجاج الجدلي، والحجاج الخُطبي، وهو السمة الفردية في الحجاج الجدلي، والجماعية في الحجاج الخطابي، ومن ثمَّ يكون الحجاج الجدلي هو الدائر في أوساط المتخصصين، بخلاف الخطابي؛ فمهمة الحجاج الجدلي(فحص) مضمون الحكم بخلاف الحجاج الخطبي الذي يقوم بتوجيه الأفعال وبناء القوانين لذا كان مرتبطا على نحو وثيق بشؤون المجتمع[3]، وقد تنبَّه كمال الدين ميثم البحراني(ت٦٧٩هـ) وهو ممن شرح نهج البلاغة إلى وظيفة الخطابة(المشورية) فهي تتعلق بأمور "العُدَّة، والحرب والسلم، وحماية المدنيّة، ومراعاة أمر الدخل والخرج، وتفريع الشرائع ووضع المصالح"[4]؛ وهذا الأمر

---

[1] الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٨.

[2] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٣٠٣ .

[3] ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: ٥٢-٥٣.

[4] مقدمة شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم البحراني:١٧٤.

يرتبط بجنس الخطبة التي تؤسِّس الأحكام بخلاف الخطبة(المشاجرية) التي تقوم على بيان الظلم، والجور أو العدل وأسبابهما[١].

وأرى أنَّ الفرق السابق ناتج عن اتصاف كلٍّ من النمطـينِ الحجـاجيين بصفات معينة لكن في الوقت نفسه أرى أنَّ ما قيل عن توجه المناقشة الجدليـة إلى جمهور خاص أو متلقٍ واحد ناظرٌ إلى الحالة الآنية للخطاب من دون نظرةٍ شاملة له وهو من آثار تفسير الحجاج بالجدل وقد رفضته لسانيات الحجاج، فكما هو معروف أنَّ المحاورات الجدلية التي تدور بين المتحاورينَ علـى اخـتلاف مستوياتهم وبخاصة في المسائل العقائدية أو السياسية إنَّما تكون في واقع الأمـر بين ممثلي جماعات لها امتدادها في المجتمعات، ومن أهمها المناقشات الجدليـة بين زعماء الفرق، فمن وراء كل قائد جمهورٌ معنيٌّ بالرسـالة بصـورة غيـر مباشرة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك الكتب المرسلة من الإمام علـي(ع) إلـى معاوية، بوصفها مرسلة من خليفة المسلمين إلى زعيمٍ جماعة معارضة لخلافته، وله جمهور يتبعه، وهو مقصود بهذا الخطاب، فلم يعد الحجاج الجدلي فرديا بل يتصف بالجماعية، والأمر نفسه ينطبق على حجاج معاوية للإمام وأتباعه.

ومن أهم ما طرحه(برلمان) هو رفضه التقسيم الثلاثي للأجناس الخطبيـة الذي طرحه أرسطو، وأشار الأستاذ عبد الله صولة إلى أنَّ الأجنـاس الخطبيـة الثلاثة (المشورية، والمشاجرية، والتثبيتية) تقف كل واحدٍ منها على ركن أو نوع من الحجج، الأولى حجَّة(الإيتوس)، أي: أخـلاق الخطيـب؛ "فالخطيـب يُقنِـع بالأخلاق إذا كان كلامه يُلقى على نحو يجعله خليقا بالثقة؛ لأننا نستشعر الثقـة على درجة أكبر وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كل الأمـور"[٢]؛ وهـذا

---

[١] ينظر: مقدمة شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم البحراني :١٧٩.

[٢] الخطابة، أرسطو: ٢٩ –٣٠، وينظر:الحجاج وبناء الخطاب:٩٢.

القسم من الحجج الأرسطية يناسب الخطبة المشورية؛ لأن غايتها بيـــان النــافع، والضار والتوصية بإتباع أقوم المسالك، فعلى الخطيب أن يتصف بحسن الخلق؛ والحجة الثانية هي حجة (الباتوس)، وهي: "تصيير السامع في حالة نفسية ما"[١]، وهذا النوع من الحجج يناسب الخطبة التثبيتية القائمة على مدح الشـــريف، وذم الخسيس، (والباتوس) هو مجمل الانفعالات والأهواء، والمشاعر التي ينبغي على الخطيب، أن يثيرها في نفوس السامعين فيتحقق الإقناع المطلوب؛ أمـــا الحجـــة الثالثة فهي حجة(اللوغوس)، وهو: "القول نفسه من حيث هو يثبتُ أو يبدو أنَّـــه يثبت"[٢]، فـــ(اللوغوس) هو: ثنائية الكلام والعقل، قال عنه أرسطو: "إنَّ الإقناع يحدث عن الكلام نفسه حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالـــة المطلوبة"[٣]، وهذا القسم من الحجج يناسب الخطبة المشاجرية التي غايتها بيـــان العدل، والظلم وتقوم على الاتهام والدفاع[٤].

ورأى(برلمان) أنَّ أرسطو بتقسيماته الأجناس الخطابية قد فكَّكها، فتركَّـــزَ جهده على تفسير الحجاج "من حيث هو حمل على الاقتناع أولا، وعمل في ضوء ذلك الاقتناع ثانيا"[٥]، وهكذا استطاع أن يجمع شتات(الحجاج) الذي توزع عنـــد القدماء على مباحث الفلسفة، والجدل، والأدب[٦].

---

[١] الخطابة، أرسطو: ٢٩.

[٢] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[٣] الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢٨/١، وينظر: الحجاج وبناء الخطاب: ٢٠-٢١.

[٤] ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢٠/١؛ ومقدمة شرح نهـــج البلاغـــة،كمال الـــدين ميـــثم البحراني: ١٧٩.

[٥] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٦.

[٦] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ورأى(مايير) وهو من أهم منظري الحجاج في العصر الحديث أنّ(برلمان وتيتيكاه) عدّا حجّة(اللوغوس) هي المحور الرئيس في الحجاج المعاصر؛ إذ شدد (برلمان) على حجّة الكلام في حد ذاته، بقولهِ: "لن يهتم مصنفنا هذا بغير الوسائل الخطابية التي تحقق إذعان العقول، لن نفحص فيما يلي [من كتابنا] إلا عن أمرِ التكنيك الذي يستخدم الكلام لتحقيق الإقناع أو الاقتناع"[1].

وقد امتازت الخطابة الجديدة أو الحجاج عند(برلمان) عن الخطابة القديمة من جهتين[2]:

١. **نوع الجمهور:** إذ إنّ جمهور الخطابة القديمة حاضرٌ، وعامٌ، بينما يجوز في جمهور الحجاج أن يكون حاضرا أو غائبا، ويجوز أن يكون عاما، أو خاصا، ويجوز أن يكون بين شخصين متحاورينِ، أو المرء ونفسهِ.
٢. **نوع الخطابة:** فلئنِ حصرت الخطابة القديمة الخطاب في ما هو شفوي، فإنّ الخطاب الحجاجي عند المؤلفينِ يمكن أن يكون منطوقا كما يمكن أن يكون مكتوبا، بل إنهما يؤكدان على المكتوب، ولا يكادان يأخذان أمثلتهما إلا مما هو مكتوب.

ويتصف الحجاج في مفهوم(برلمان وتيتيكاه) بخمسة خصائص، هي[3]:

١. يتوجه إلى مستمع (متلقٍ).
٢. يعبَّر عنه بلغة طبيعية.
٣. مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
٤. لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

---

[1] الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/ ٣١.

[2] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٦- ٣٠٧ .

[3] استراتيجيات الخطاب: ٤٥٨، والتحليل التداولي لخطاب الحجاج النحوي:١١٣-١١٤.

٥. ليست نتائجه ملزمة.

ومن أهم ما قام به(برلمان وتيتيكاه) تخليص الحجاج من تهمة المغالطة، والتلاعب بالجمهور فضلا عن أنّه ليس استدلالا منطقيا مجردًا[١]، وبعبارة أخرى أستطيع القول إنّ(الحجاج) عند (برلمان) والمحدثينَ عموما قد جمع مباحث الجدل، والخطابة؛ فأخذ من الجدل آلياتِ الحوار، وأخذَ من الخطابة الهدف وهو إقناع الجمهور المتلقي، ويُعتمَد (اللوغوس) في الحوار وسيلة رئيسةً للإقناع؛ فالحجاج" ليس استدلالا تعليليا يدور في حقل البرهان المنطقي المحض وخارج كل اندراج للذات، بل يطلب أمرا آخر معاكسا لذلك تماما وهو وجود العلاقة التفاعلية بين الباث والمتلقي"[٢].

٢. مفهوم الحجاج عند (ديكرو):

إنّ دراسة مفهوم الحجاج عند(ديكرو) تبيِّن لنا أنّه مفهوم يهتم أساسا بالوسائل اللغوية التي يوظِّفها المتكلم؛ لتوجيه خطابه وجهة حجاجية ما، وليس كمفهوم(برلمان) الذي اهتم بالبنى العقلية التي يوظِّفها الخطيب في النَّص لإقناع الجمهور؛ ففي هذا التوجّه اللساني ذكر(ديكلارك) أنّ " البِنى الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية ولكنّها لغوية بالأساس"[٣]؛ ويبدو لي أنّ النظرية الحجاجية عند (ديكرو) هي الأساس في لسانيات الحجاج؛ لأنّها قامت على دراسة الإمكانات التي تتيحها اللغة؛ لإنتاج النصوص الحجاجية، وكذلك تدرس الأثر

---

[١] ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم ظواهره الأسلوبية: ٣٠.

[٢] الحجاج بين المنزال والمثال: ١٦.

[٣] لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية: ٢٤٥.

الذي يتركهُ النص في متلقيه؛ إذ انطلقت من فكرة مؤدَّاها: "إنّنا نتكلم عامة بقصد التأثير"[1].

وقبل أن استعرض خصائص(الحجاج) في هذا المفهــوم أذكــر تعريــف الحجاج عند(ديكرو، وانسكومبر)؛ فالحجاج "إنجاز لعملين هما عمل التصــريح بالحجَّة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخــرى؛ ســواء كانــت النتيجــة مصرَّحا بها أومفهومة من ق١"[2]،(والقول الأول) عند(ديكرو) هو القول الــذي يفضي إلى التسليم بقول آخر؛ فقد قال: "إنَّ الحجاج يكون بتقديم المتكلم قولا(ق١) أو مجموعة أقوال، يفضي إلى التسليم بقول آخر(ق٢) أو مجموعــة أقــوال"[3]؛ وترى هذه النظرية "أنَّ اللغة تحمل بصفة ذاتية، وجوهريــة وظيفــة حجاجيــة، وبعبارة أخرى، هناك مؤشرات متعددة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها"[4].

وهذهِ النظرية عالجت في جانبها اللساني الأبعاد التداولية، والدلالية الكامنة في لغة التواصل اليومية، وكذا اللغة الإبداعية، ومن أهم ما يميزُ شــواغل هــذهِ النظرية، هو عدُّها الحجاج قيدا يضبط نسق ترتيب الأقوال في النصوص؛ إذ إنَّ "ترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي، وإنّما هو ترابط حجاجي؛ لأنَّه مسجَّلٌ في أبنيةِ اللغة بصفتهِ علاقات توجِّه القــول وجهــة دون أخــرى، وتفرض ربطه بقول دون آخر، فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه

---

(١) التحاجج،طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٥.

(٢) الحجاج في القرآن من خلال أهم ظواهره الأسلوبية: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٤) التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٥ .

القول من قوة حجاجية تمثِّل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلَّم فيها يوجِّه قوله وجهة حجاجية ما"[1].

ونظرة(ديكرو) للحجاج تتصف بما يأتي[2]:

١. الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

٢. المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

٣. عدم الفصل بين الدلاليات، والتداوليات والدعوة إلى فرضية التداوليات المدمجة.

هذه الصفات الثلاث تلخص الحجاج عند(ديكرو)؛ وقد تأثَّر مفهومه الحجاجي بنظرية الأفعال الكلامية التي وضع أسسها(أوستن)، واقترح(ديكرو) إضافة فعلينِ ضمن تصنيف أفعال الكلام هما: فعل الحجاج، وفعل الاقتضاء[3]؛ واستلهم نظرية الأفعال الكلامية ليجعل من(الحجاج) فعلا كلاميا؛ إذ يسعى المتكلم بتوظيفه العلاقة الحجاجية بينَ(الملفوظات) إلى إقناع المخاطَب بالفكرة المطروحة وبما أنَّ الإقناع فعل ناتج عن الحجاج فإنَّ(الملفوظات) الحجاجية تنجز نوعا من الأفعال الكلامية[4].

واتصفت نظرية الحجاج عند(ديكرو) بالبحث في(الوظيفة الحجاجية) للغة انطلاقا من بنية الأقوال نفسها؛ فبحسب الوظيفة الحجاجية للغة تأتي التسلسلات الخطابية في النص محددة لا بوساطة الوقائع المذكورة داخل الأقوال فقط بل محدَّدة أيضا بوساطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبوساطة المواد اللغوية التي تمَّ

---

[1] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٥٢ .

[2] الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٥٥– ٥٦.

[3] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٦ .

[4] ينظر: الخطاب، دورية أكاديمية تعنى ببحوث الأدب واللغة، العدد٣: ١٠٧.

توظيفها[1]، وتأسيسا على ذلك وضع(ديكرو) نظريته اللسانية في دراسة الحجاج فيما يُعرف بـ(الروابط الحجاجية)، و(العوامل الحجاجية)، وسأدرسها في مبحث مستقل، أمَّا وظيفة الحجاج عند(ديكرو وانسكومبر) فقد حُصِرت في(التوجيه)[2]؛ فـاللغة حجاج محض، والحجاج توجيه صرف[3]، والتوجيه يكون للمتلقي في إقناعه بفكرة ما، وفي الخطاب يكون عبر تسلسل للأقوال فيه تؤديه الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، وفي ذلك يقول الأستاذ صولة:" ويحصل هذا التوجيه في مستويينِ: مستوى السامع، ومستوى الخطاب نفسه مع ما بين المستويينِ من تداخل"[4].

وقد بيَّن(ديكرو) أنَّ فعل(التلفّظ)، هو:"فعل لغويٌّ موجَّه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية، أي مجموعة الحقوق والواجبات؛ ففعل الحجاج يفرضُ على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير عليه الحوار"[5]؛ وهذا يدل على ارتباط مفهوم(التلفظ) بوظيفة الحجاج بوصفه وسيلة لتوجيه المتلقي.

والملاحظ أنَّ الأستاذ صولة رأى أنَّ أهم مأخذ علِى هذهِ النظرية هو حصر دلالة الملفوظ في التوجيه، ودلالة الكلام ليست التوجيه فحسب، وإنما التوجيه جزء من دلالة ذلك الكلام وبعض منها[6]؛ ويظهر لي أنَّ(ديكرو) لم يكن مخطئا؛

---

(1) ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته: ٥٧.

(2) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية:٢٨-٣١.

(3) ينظر:المصدر نفسه:٣١.

(4) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٦.

(5) الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/ ٥٧.

(6) ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٦.

مخطئا؛ لأنَّ الهدف الرئيس من النص الحجاجي هو توجيـه المتلقـي للاقتنـاع بالفكرة المطروحة بل لعله الهدف الوحيد الذي يقصده الخطيب عنـدما يطـرح فكرة ما.

وقد رأى بعضُ الباحثين أنَّ نظرية الحجاج عند(ديكرو) تتعارضُ مع كثيرٍ من النظريات، والتصورات الحجاجية التي تعد الحجاج منتميـا إلـى الخطابـة الكلاسيكية التي نهضت بأعمال(أرسطو)، أو إلـى الخطابـة الجديـدة ممثلـة بـ(برلمان، وتيتيكاه)، أو إلى المنطق الطبيعي عند(غرايس)[1]؛ منطلقينَ في ذلك من أنَّها "نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية، وبإمكانات اللغات الطبيعية التـي يتوافر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما"[2].

وأرى أنَّ القول بأنَّها(تتعارض) فيهِ تجوزٌ كبير؛ لأنَّ نظرية الحجاج تتدرج في علم الآراء كما أوضحت ذلك من قبل، وهذا العلم متشعبٌ في مختلف حقول المعرفة، ولاسيما العلوم الإنسانية هذا من جانبٍ، ومن جانب آخر فإنَّ الحجـاج بوصفهِ يهدف إلى إقناع المتلقي بصحة فكرة ما، وهذا الإقناع لـه مستويات، وصور متعددة لا يجوز أن نصفها بالتعارض بقدر ما هي تتضافر فيمـا بينهـا للوصول إلى الهدف المنشود، ولاسيما مفهومي (برامان)، و(ديكرو) للحجـاج، وإن كانَ الأول يركز على الجوانب الفكرية، والثاني على الأدوات، والإمكانـات التي توفرها اللغة للإقناع.

---

[1] ينظر:التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٥ .

[2] الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/ ٥٦ .

ويشترك(ديكرو) مع(برلمان) في التركيز في مباحثه الحجاجية على حجة(اللوغوس)، والتعويل على ثنائية الفكر والكلام مصدرا للحجج، ومسرحاً لها[1].

ومن أهم ما تتصف بهِ نظرية(ديكرو) هو تفريقها بين نوعين من الحجاج: حجاج يأتي من خارجِ أبنية اللغةِ، أي يحيلُ على التجاربِ، والحقائق الخارجية، وحجاج كامن في أبنية اللغة، فما هي إلا أقوال تقتضي أقوالاً أخرى[2].

ومن هنا يرى(ديكرو) وجوب التمييز بين ما نستطيع أن نسميه الخطاب الاستدلالي، والخطاب الحجاجي؛ لأنّهما ينتميان إلى نظامين مختلفين، الأول ينتمي إلى المنطق، والآخر ينتمي إلى الخطاب؛ فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما مستقلةٌ بعضها عن بعض بحيث يعبِّر كل قول منها عن قضية ما، أمَّا الحجاج فهو مؤسَّس على بنيةِ الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها، واشتغالها داخل الخطاب[3]؛ وفيما يتعلق بالوظيفة الحجاجية التي تتوافر خصائصها في الجملة نفسها يقول(ديكرو): "إنَّ القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هي حصيلة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل إنَّ الجملة بإمكانها أن تشتمل على وتعابير أو صيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري، فهي تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك"[4].

وبهذا يختلف الحجاج عند(ديكرو) عما نجدهُ عند(برلمان)، فقد قسَّم(برلمان) الحجاج بحسب الجمهور المتلقي على قسمينِ، هما:الحجاج الإقناعي

---

[1] ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٣٢.

[2] ينظر: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ١٧.

[3] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/ ٥٧– ٥٨.

[4] مجلة عالم الفكر المجلد٣٠، عدد ١: ١٠٥.

وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، والحجاج الاقتناعي، وهو حجاج يرمي إلى أن يسلِّم به كل ذي عقل[١].

وهذانِ المتلقيانِ(الخاص والكوني) يوجّهان الخطاب الحجاجي؛ فالمتلقي الخاص بحسب (برلمان) يجعل من الخطاب الحجاجي ينصرف إلى الإغراء، والحمل على الإذعان أكثر من كونهِ يرمي إلى تحقيق الاقتناع الفكري بما يحتج له بخلاف المتلقي الكوني الذي يكون إقناعه فكريا خالصا[٢]؛ وأعتقد أنّ سبب ذلك يعود إلى حضور صورة الخطيب في الحجاج الخاص ولما لذلك من تأثير في المتلقي بخلاف الخطاب الموجّه للجمهور الكوني.

أمّا تقسيم(ديكرو) للحجاج فكان تقسيما ناظرا إلى(الحجاج) نفسهِ ولم يكن متعلقا بالجمهور المخاطب كما رأينا(الحجاج) عند برلمان؛ إذ ميَّز(ديكرو) بين مستويين للحجاج في الخطاب، هما(الحجاج الاعتيادي)، و(الحجاج الفني)[٣]، فالحجاج بالمعنى الاعتيادي هو مجموعة من الترتيبات والطرائق التي يستعملها المتكلم في الخطاب قصد إقناع سامعيه، وترتبط بالحجاج العادي دراسات (برلمان) و(غرايس)، أمّا الحجاج بالمعنى الفني فيُعنى بصنفٍ مخصوص من العلاقات بين المضامين الدلالية تتحقق في الخطاب وتكون مسجّلة في (اللسان)[٤]، فالحجاج الفني عند (ديكرو) يرتبط بأبنية اللغة من تركيبية، ودلالية، وتداولية، والحجاج قائمٌ بما في النص من أدوات، وألفاظ تحمل دلالات تناسب مقام التلفظ.

---

(١) ينظر:الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٢/ ١٨٨.

(٢) ينظر:الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٣٣.

(٣) ينظر:القاموس الموسوعي للتداولية: ٩٢، والحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: ٢٧٢.

(٤) ينظر:القاموس الموسوعي للتداولية: ٩٣- ٩٤.

ومفهوم(ديكرو) يرتبط بنظرية طرحها تُعرَف بـ(التداولية المدمجة)، والتداولية المدمجة "نظرية دلالية تدمج في الشفرة اللغوية(اللسان بالمعنى السوسيري) مظاهر عملية القول"[1]، وسأشير إلى مفهوم(التداولية المدمجة) وأهم خصائصها في الفصل الخاص بالمستوى التداولي.

٣. مفهوم الحجاج عند (مايير):

وهو المفهوم الثالث من أهم مفاهيم الحجاج في العصر الحديث، وانطلق (مايير) من نظرية(المساءلة الحجاجية)؛ وحركة التساؤل الحجاجي بدأت مباحثها وأسسها على يد أرسطو؛ فقد أشرتُ سابقا إلى النمطينِ الحجاجيينِ الرئيسينِ اللذين بحثهما، وهما المناقشة الجدلية، والخطبة عند حديثي عن أهم الفروق بينهما، فهما يشتركان في دواعي النشأة؛ إذ لا ينشآن بحسب أرسطو إلا حيث يكون خلاف أو صراع[2]؛ فيستمد الجدل مادته من موضوعات تتطلب مناقشة منطقية، كما أنَّ مهمة الخطابة في الفكر الأرسطي هي التشاور في أمور يبدو أنَّها تنبثقُ في اتجاهين[3].

فالحجاج الجدلي والحجاج الخطبي ينشآن حيث ينشأ الخلاف، والخلاف هو مصدر السؤال "سؤال الاختيار بين رأيينِ يقعان في مسألةٍ واحدة في اتجاهينِ مختلفين"[4].

---

[1] القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٣؛ ومفهوم اللسان في فكر(سوسير) له جانبان فردي، واجتماعي؛ فالنظام الثابت يمثل الجانب الاجتماعي وهو(اللغة) أمَّا الجانب الفردي فيتمثل بالنظام المتغير وهو(الكلام)، ينظر في ذلك:علم اللغة العام:٢٦-٢٧.

[2] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ١٢٢.

[3] ينظر: الخطابة، أرسطو: ٣٢.

[4] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ١٢٢.

وقبل أن أشير إلى تعريف(مايير) للحجاج لا بدَّ أن أوضح ركنين أساسيين في نظرية(مايير) الحجاجية، وهذان الركنان هما(المُظهر)، و(المُضمَر)؛ فالمُظهَر، والمضمَر يمثلان(الزوج) الرئيس للاستعمال اللغوي، فهما ركنا الخطاب واستعمال اللغة مرتبط دائما بالتساؤل[1]؛ ومن هنا جاءت تسمية نظرية(مايير) (بالمساءلة الحجاجية)، وفي ذلك يقول(مايير):"بما أنَّ الوحدة الأساسية للغة هي الزوج سؤال/ جواب فإنَّ استعمال اللغة يُحدَد دائما تبعا له"[2]، ونتائج هذا القانون بحسب ما نصَّ عليه(مايير)، هي[3]:

١. كل استعمال للغة يمثل جوابا عن مشكل، حتى عندما يتعلق الأمر بالتعبير عنه.

٢. إذا كانت الغاية من كل حل هي عرض الجواب فإنَّ المشكل الذي استوجبه لن يطرح البتة بعد أن يقترح له؛ لذلك فإن غاية اللغة لا تتمثل في التعبير عن المشاكل بل في التعبير عن حلولها، ويلزم عن هذا أن التقابل (حل/ مشكل) يطابق التقابل القائم بين المُظهَر والمُضمَر.

٣. إنَّ الإجابة باللغة والالتجاء إلى المُظهر للبت في أيما مشكل معناه بناء صورة ما، وهذهِ الصورة، من حيث إنَّها لغة، هي ما به يرتسم التمييز بين المشاكل والحلول؛ لذلك فهي تقيم حاجزا بينهما بموجبِ الخط الفاصل بين المضمر، والمظهر.

٤. عندما نجيب عن مشكل ما بالتعبير عنه، فإنَّ هذا الحل الجزئي الذي يستدعي على نحو صريح حلا مكملا يُرتسَم صوريا بوصفهِ حلا جزئيا.

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٥/ ٣١ .

[2] الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٥/ ٣٢ .

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ولابد من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق ببعض النصوص التي يذكر فيها التساؤل والإجابة عنه، فهل يكون كلا الطرفين من قبيل المُظهر؟، ولم أعثر فيما بين يدي من دراسات عن تصدي(مايير) للإجابة عن ذلك الافتراض ويبدو لي أنَّ هذه الثنائية تبقى فعالة في توجيه الخطاب وولاسيما الحجاجي وعندئذ سيكون (المضمر) هو الإقرار بما يُطرَح والعمل في ضوء ذلك الإقرار وهو ما قد يستغرق وقتا ربما يطول بخاصة في الحجاج الذي يستدعي تغيير أنماط السلوك في المجتمع نحو الخطاب القرآني، والخطاب النبوي، والخطاب العلوي.

وبعد أن بيَّنت ما قصده(مايير) بالمُظهرَ/ الجواب، والمُضمر/ الإشكال أو السؤال، أذكر تعريفه للحجاج، فهو: "دراسة العلاقة القائمة بين القول المُظهَر، والقول المُضمَر"[1]؛ ويدافع(مايير) عن ربط الحجاج بنظرية(المساءلة) من خلال مقابلة الحجاج وهو استدلال غير صوري بالبرهان الذي يمثل استدلالا منطقيا يقوم على الضرورة، فبعد أن يذكر أوجه الصلة بينهما وفي مقدمتها إنّ كل خطاب سواءٌ أكان حجاجيا أم برهانيا يصل إلى الإقناع، وإنّ الاستدلال الصوري هو خطابٌ في حد ذاته[2]، يعود(مايير) ليفرّق بين الحجاج والاستدلال، بقوله: "البرهان الرياضي يقنع لأنَّهُ يقدِّم الجواب عن السؤال المطروح، وإذا طُرِح السؤال فإنَّه لا يمكن إلا أن يُقبل الجواب، من هنا يأتي الإذعان والاتساق، أما الاستدلال غير الصوري فلا يقدِّم ما يضمن أنَّ السؤال المثار لن يبقى مفتوحا"[3]، وهنا أرى أنَّ قوة الخطاب الحجاجي تكمن في كونه يبقى حيًّا يجيب عن التساؤلات المطروحة من جانب فضلا عن إثارة تساؤلات أخرى وبخاصة

---

(1) المصدر نفسه: ٥/ ٢٤.

(2) الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٥/ ٤٥.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

في الخطابات التي من قبيل القرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة أي تلك التي تتصف بكونها تخاطب جمهورا كونيا فضلا عن الجمهور الخاص المتلقي للخطاب؛ إذ إن هذه الخطابات وبما تحمله من أفكار تقع على النقيض أحيانا من أطروحات الآخرين في اتجاهاتهم المختلفة تستدعي على الدوام إيجاد الأجوبة عن تساؤلات الجمهور أو توظيف حركة السؤال والجواب لإقناع الجمهور بتبني ما يطرحه الخطاب.

ويخلص(مايير) من ذكر الفرق بين الحجاج، والاستدلال البرهاني إلى نتيجة مفادها "أنّ الحجاج يعود إلى نظرية المساءلة، فما الحجة إذا لم تكن رأيا في السؤال؟، إنّ إثارة السؤال– وهذهِ خاصية الخطاب– تعني ممارسة الحجاج، وطرح السؤال يقترن باحتمال طرحِ الرأي المخالف أو بكل بساطة باحتمال النقاش"[١].

وهكذا كان انفتاح بحوث(مايير) على الفلسفة، واللغة، وانطلاقها من نظرية (بِرلمان) الذي يستشهد بمقولاتهِ كثيرا قد جعل نظريته تأخذ أبعادا ثلاثة: تداولية (في بحثها ظروف إنجاز الخطاب وآلياته)، وتأويلية (من حيث علاقة السؤال بالجواب وما يتطلبه من تأويل لمكونات كل منهما وروافده المغذية له)، وبلاغية (من حيث ربطه إياها بالحجاج، وفتحه هذا الأخير على وسائل الإتصال المختلفة)[٢].

---

[١]الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٥/ ٤٥.

[٢] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١٣٨.

المبحث الثاني

أركان الحِجَاج، و قضاياه

بعد أن تحدثت في المبحث الأول عن الخطابة الجديدة(الحجاج)، والمراحل التي مرَّت بها في الفكر الإنساني بدءا بجهود اليونان، ومرورا بجهود الفلاسفة والبلاغيين العرب، وانتهاء بمفاهيم الحجاج في الدرس اللساني الحديث، سأبحث هنا أركان الحجاج وما يرتبط به من قضايا أشار إليها منظرُو الحجاج حديثا وفي مقدمتهم (برلمان وتيتيكاه)؛ فقد تحدَّثا عن أطر الحجاج، ومنطلقاته، وتقنياته، في مصنفهما (الخطابة الجديدة)، وسأتحدث بشيء من التفصيل عن أركان الحجاج ضمن جهود علمائه، وقد آثرت أن أدرس أركان الحجاج في الدرس اللساني؛ لاتساعها ولكونها تمثل جوانب تفصيلية في مفاهيم الحجاج عند كل رائدٍ من رواد الخطابة الجديدة في عصرنا، فكان من اللازم التعريف على نحو مختصر بأهم مفاهيم الحجاج من قبل أن أبحث أركان الحجاج، ومسائل الحجاج بحسب مفهوم(برلمان وتيتيكاه) تدور في ثلاثة محاور، هي[١]:

١. الأطر والمحددات:

لقد عالج(برلمان) في الأطر والمحددات تعريف الحجاج، ومنزلة الحجاج بين الاستدلال والحمل على الإقناع، وعلاقة الحجاج بالجدل والخطابة، وما امتاز به الحجاج من هذين الفنين على نحو ما أشرت إليه في المبحث السابق من جهة نوع الجمهور، ونوع الخطاب، كما تحدث في أطر الحجاج عن قسمين للحجاج بحسب الجمهور؛ فإذا كان الجمهور خاصا فالحجاج إقناعيٌّ، وإذا كان عاما

---

(١) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٢٩٩- ٣٠٧ .

فالحجاج اقتناعي"[1]، وتبعا لذلك يتم توظيف منطلقات الحجج على ما سنقف عليه في الفصل الخاص بذلك من الدراسة.

٢. المنطلقات:

وهي الركيزة الثانية من ركائز الحجاج، والمنطلقات:"هي القضايا التي يتكئ عليها الحجاج، أي المنطلقات التي ترتكز عليها المحاجة في النفي أو الإثبات"[2]؛ أو هي: "المقدمات المتعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق فهي نقطة انطلاق الاستدلال"[3].

وأستطيع القول إنّ منطلقات الحجاج تمثل مجموعة من الأفكار العامة التي تعد الأرضية المشتركة بين فاعل الحجاج(الخطيب) ومتلقيه، وتمثّل(الضامن) الذي يربط النتيجة بالحجة، وقد عبّر عنها(ديكرو) بالمبادئ الحجاجية، وتقابل مسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري أو الرياضي[4].

وتختص المبادئ أو المنطلقات الحجاجية بخصائص متعددة، هي[5]:

١. إنّها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة.
٢. العمومية فهي تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة.
٣. التدرجية: أي إنّها تقيم علاقة بين محمولين تدرجيين أو بين سلمين حجاجيين (العمل - النجاح) مثلا.

---

(١) ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: ٩٣.

(٢) كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٩١.

(٣) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨ .

(٤) ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٦٦ .

(٥) المصدر نفسه: الصفحة نفسه.

٤. النسبية: فإلى جانبِ السياقات التي يتم فيها تشغيل مبدأ حجاجي ما، هناك إمكان إبطالهِ ورفض تطبيقهِ بوصفهِ غير وارد، وغير ملائم للسياق المقصود، أو يتم إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له؛ فالعمل يؤدي إلى النجاح، ولكنه قد يؤدي إلى الفشل في سياق آخر إذا زادَ عن الحد المطلوب، وإذا نُظر إليه على أنَّه تعب وإرهاق وإهدار للطاقة.

ومنطلقات الحجاج بحسب (برلمان وتيتيكاه)،هي[1]:

١. الوقائع:

تمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس، وتنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة، ووقائع مفترضة، والتسليم بالواقعة من قبل المتلقي ليس إلا تجاوبا منه مع ما يفرض نفسه على جميع المساهمين في عملية الحوار؛ إذ يقتضي الواقع إجماعا كونيا.

٢. الحقائق:

وهي أنظمة أكثر تعقيدا من الوقائع، وتقوم على الربط بين الوقائع، ومدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية، كما تقوم على الربط بين الوقائع والحقائق من حيث هي موضوعات متفق عليها ليحقق موافقة الجمهور على واقعة معينة غير معلومة.

٣. الافتراضات:

وهي شأنها شأن الوقائع، والحقائق تحظى بالموافقة العامة لكنَّ الإذعان لها والتسليم بها لا يكونان قويينِ إلا إذا جاءت في مسار الحجاج عناصر أخرى تقويهما.

---

[1] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨- ٣١٣، وكتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج:٩١- ٩٨.

٤. القيم:

وهي المعوّل عليها في جعل السامع يذعن لما يُطرَح عليه من آراء، وعلى القيم مدار الحجاج بكل ضروبه، ولئن خلت منها الاستدلالات ذات البعد العلمي، فإنّها تمثل بالنسبة إلى محالات القانون، والسياسة، والفلسفة غذاءً أساسيا، والقيم نوعان: مجردة مثل: العدل والحق، ومحسوسة مثل: العراق، والمسجد الحرام.

٥. الهرميات:

ترتبط الهرميات بالقيم؛ فالقيم ليست مطلقة وإنّما هي خاضعة لهرمية ما؛ فالجميل درجات، وكذلك النافع، والهرمية نوعان: مجردة، مثل: عَدُّ العدل أفضل من النافع، ومادية محسوسة، مثل: عَدُّ الإنسان أعلى درجة من الحيوان.

٦. المواضع:

وهي مقدمات أعم من القيم، وهرميتها، فهي عبارة عن مخازن للحجج أو مستودعات لها، والمواضع "تؤكد حجاجية الملفوظ، بما توفرهُ من قيمة استدلالية مرجعية، إليها ينشدُّ الملفوظ، وبها تتحدد مدى صلاحيته"[1]؛ ولأهمية المواضع في الفكر الحجاجي اهتمَّ بها الفلاسفة، وقد أشارَ بعض الباحثين إلى أنَّ أرسطو لم يعرِّف(المواضع) لكنَّه قدَّم ملاحظتينِ تقربان من مفهومهِ[2]؛ فـ(الموضع) عند أرسطو يدل على أمرين اثنين: "يدلُّ على قضية عامة جدا منها يولَّدُ عدد غير متناه من المقدمات، ويدل على شكل القياس الذي تُستعمل فيهِ كل قضية من تلك القضايا العامة جدا"[3].

---

[1] كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٩٤، والحجاج والحقيقة وآفاق التأويل:١٠٦.

[2] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ١٩٣ .

[3] المصدر نفسه: ١٩٦.

وعرّف ابن سينا(الموضع) تعريفا واضحا بقولهِ: "معنى الموضع حكم منفرد من شأنهِ أن تتشعّب منه أحكام كثيرة تجعل كل واحد منها جزء قياس مثل قول القائل: إنَّهُ إن كان الضد موجودا لشيءٍ فضدهُ سيكون موجوداً لضد الشيء"[1].

وهكذا نرى أن(برلمان) استمد مفهوم المواضع في الحجاج من الفلاسفة؛ فهي "الأقفاص التي يمكن لكل الناس أن يذهبوا إليها من أجل أن يأخذوا مادة خطاب ما وحججا حول كل نوع من الموضوعات"[2]، وعبّر عنها(برلمان) بأنّها: "المقدمات العامة المتمحضة للاستدلال الجدالي"[3].

والمواضع المستعملة طلبا للتصديق، أنواع[4]:

أ. مواضع الكم:

وهي المواضع التي تثبت أنّ شيئًا ما أفضل من شيء آخر لأسباب كميّة، مثل: إنّ المال الأوفر أفضل من المال الأقلّ وفرة.

ب. مواضع الكيف:

وهي ضد الكم من حيث إنّها نسيجٌ وحدها فهي واحدة ضد جمع وتستمد قيمتها من وحدانيتها تلك، مثل: الحقيقية التي يضمنها الله؛ فهي واحدة في مقابل آراء البشر المختلفة.

---

[1] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ١٩٤.

[2] كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٩٤.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣١١- ٣١٢ .

ت. مواضع أخرى:

ومنها مواضع الترتيب، كاعتبار السابق من المبادئ والقوانين أفضل من اللاحق، أي إنّ ما سبق أفضل مما لحق، وإنّهُ ليس بالإمكان أحسن مما كان؛ ومثل مواضع الموجود التي تعتمد على مقولةِ: إنّ ما هو موجود أو واقع أفضل من المحتمل أو الممكن، أو ما سيأتي فيما بعد، ويبدو لي أنّ المواضع هي مقاييس أو قوانين تندرج تحتها بعض المنطلقات الأخرى، فالخطيب قد ينطلق من حقيقة دينية فيكتسب حجاجه قوة، وما يزيد فاعلية الحجاج هو كون ذلك المنطلق حقيقة يضمنها(الله تعالى).

وذكر(برلمان) أنّ هذهِ المقدمات يمكن ردُّها إلى ضربين اثنينِ، ضربٌ مدارهُ على الواقع، وهو الخاص بالوقائع، والحقائق، والافتراضات، وضربٌ مدارهُ على المفضّل، وهو المتعلق بالقيم، ومراتبها، ومواضع الأفضل فيها[1].

وأشارَ(برلمان) إلى أنَّ وجود مقدمات أو منطلقات لا يكفي بل لابد من إيقاع الاختيار بينها؛ لأنَّ ضروب المعطيات المقامة لفاعل الحجاج فيها من الاتساع، وإمكان تعدد وجوه الاستعمال ما يستوجب انتقاء عناصر الحجاج، ويقع هذا الاختيار على أساس نوعية الجمهور المتلقي للحجاج[2].

ورأى بعض علماء الحجاج أنّ للمخاطبِ أثرا في إنتاج الخطاب الحجاجي، وتكون النظرة إلى المخاطب في الحجاج نظرة مركبة "فالمخاطب هو الكائن الإنساني الواقعي الذي يتوجه إليهِ المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددينِ، والمخاطب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل إلى متخيَّل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه؛ المخاطب الأول بعديٌّ، أي هو من يتوجه إليهِ المتكلم بعد إنتاج

---

(١) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣١٣.

(٢) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١١٣.

الخطاب، والثاني قبليّ، أي هو هذا المخاطب الذي يستحضرهُ المتكلم قبل إنتاج خطابه"[١].

واستحضارُ صورة الجمهور المتلقي وهويته الثقافية يستدعي اختيار منطلقات حجاجية معينة دون غيرها من المنطلقات، واستعمال أنماط من الروابط الحجاجية، والموائمة بين دلالة الكلمة معجميا مع ما يتطلبه الخطاب.

فغاية النص هي الإقناع والإقناع يقتضي أولا الإفهام، ومن أجل ألا يحصل سوء الفهم، لابد للمتكلم من أن يأخذ بعين الاعتبار الكفايات اللغوية، والذهنية المخاطبية[٢].

٣. التقنيات الحجاجية:

وتعد تقنيات الحجاج الركن الثالث من أركان الحجاج، وقد قسّم(برلمان) طرائق الحجاج وما تتضمنه من أنواع على قسمين: هما[٣]:

أ. الطرائق الاتصالية:

"وهي الطرائق التي تقرِّبُ بين العناصر المتباينة في أصل وجودها فتنتج بذلك قيام ضرب من التضامن بينهما لغاية إبراز تلك العناصر في بنية واضحة أو لغاية تقويم أحد هذهِ العناصر بوساطة الآخر تقويما إيجابيا أو سلبيا"[٤].

---

(١) الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/ ٢٣٦ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٤٦.

(٣) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: ١٣٢.

(٤) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٢٤.

ب. الطرائق الانفصالية:

هي "تلك الطرائق التي تقوم على الفصل بين عناصر تقتضي في الأصل وجود وحدة بينها ولها مفهوم واحد"[١]، وتقوم هذه التقنيات بالفصل بين العناصر المتضامنة للمفهوم الواحد والقائمة على زوج الظاهر/ الحقيقة، ويمثل الظاهر الحد الأول، والحقيقة الحد الثاني، ومثال ذلك أن نقول في شخص غير ذي مروءة: ليس هذا الإنسان بإنسان، فلفظ(الإنسان) الأول يمثل الظاهر، ظاهر وجوده في المجتمع، ويمثل لفظ(الإنسان) الثاني الحقيقة، حقيقة هذا الإنسان كما صوّرها ديننا الحنيف، وخلق مجتمعنا[٢].

وحصر(برلمان، وتيتيكاه) طرائق الحجاج الاتصالية في ثلاثة أنواع من الحجج، هي[٣]:

١. الحجج شبه المنطقية:

وهي أقوى طرائق الحجاج، وتستمد قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق المنطقية، والرياضية في البرهنة، لكنها ليست هي إياها، إذ في الحجج شبه المنطقية ما يثير الاعتراض فوجب من أجل ذلك تدقيقها، والحجج شبه المنطقية لها أنواع منها ما تعتمد البنى المنطقية، مثل: التناقض وعدم الاتفاق: وهو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتينِ إحداهما نفي للأخرى، ونقض لها، والملاحظ أنّ(برلمان) يفرّق بين مصطلحي(التعارض)، و(عدم الاتفاق) رابطا(التعارض) بمقام التلفظ[٤]؛ والحجج القائمة على العلاقات التبادلية، وهي

---

[١] الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٢.

[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٢٣.

[٣] أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية: ٣٢٥- ٣٤٣ .

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٥ .

بناء الخطاب الحجاجي على قاعدة(العدل) في معالجة حالتينِ إحداهما تماثل الأخرى معالجة واحدة[1]، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾[2]، ومن الحجج شبه المنطقية ما يعتمد العلاقات الرياضية، مثل: إدماج الجزء في الكل، وتقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له[3].

٢. الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع:

وهي الحجج التي تستعمل الطرائق شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلَّم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى جعلها مقبولة، ومسلَّم بها، وذلك بجعل الأحكام المسلَّم بها، والأحكام غير المسلَّم بها عناصرَ تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلِّم بالآخر، وأنواعها متعددة[4]، منها الحجة البرغماتية، وهي: "الحجة التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجهِ الايجابية أو السلبية"[5]، وترتبط بهذهِ الحجة ما يُعرَف بـ(الوصل السببي)، وفيه يجوز الانتقال من الحجة إلى النتيجة، ومن النتيجة إلى الحجة بحسب طرائق عرض الحجة، والنتيجة[6].

ومن الحجج المؤسسة على بنيةِ الواقع حجة السلطة، وهي "حجة تأخذ قوتها ونفوذها من هيبة المتكلم، أو علمهِ، أو سطوتهِ، أو غير ذلك على أن تكون

---

[1] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٢٨ .

[2] المطففين: ١-٣.

[3] ينظر: الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه: ٢٠٧-٢١٠.

[4] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٣١- ٣٣٦ .

[5] المصدر نفسه: ٣٣٣.

[6] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

هذهِ السلطة معترفا بها من جمهور السامعين كالوعد الصادر من شخص له قيمة، ومنزلة رفيعة في نفوس الناس"[1].

٣. الحجج المؤسّسة لبنية الواقع:

وهي القسم الثالث من طرائق الحجاج أو تقنياته، ولها أنواع، نحـو ذكـر الأمثلة، وبناء القواعد عليها، والاستشهاد بالحوادث، وقد أشار الأستاذ صولة إلى الفرق بين المثل، والاستشهاد، فقال: "إن كانت الغاية من المثل تأسيس القاعـدة فإنّ الاستشهاد من شأنه أن يقويّ درجة التصديق بقاعدةٍ ما معلومة وذلك بتقديم حالات خاصة توضح القول ذا الطابع العام...، وعلى هذا فإنّ الاستشهاد يؤتى به للتوضيح في حين أنّ المثل يؤتي بهِ للبرهنة، ولتأسيس القاعدة"[2].

ومن الحجج المؤسسة لبنية الواقع(التمثيل)، ورأى(برلمـان وتيتيكـاه) "أنّ التمثيل في الحجاج ينبغي أن تكون له مكانته باعتباره أداة برهنة فهو ذو قيمـة حجاجية"[3]، وضرب الأستاذ صولة أمثلة قرآنية على(التمثيل)[4]. منهـا، قولـه تعـالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[5]، وقولـه تعـالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[6]؛ وأرى أنّ مصطلح(التشبيه التمثيلي) أقرب لتراثنا البلاغي من مصطلح(التمثيل) فضـلا

---

[1] كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ١٠٠.

[2] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٢٧ .

[3] المصدر نفسه: ٣٣٩.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ٣٣٩- ٣٤١ .

[5] الجمعة: ٥.

[6] العنكبوت: ٤١.

عن وجود تداخل في أقسام الحجج المؤسسة لبنية الواقع عند استعمالنا مصطلح(التمثيل)؛ لأنَّ من أقسام هذا النوع من الحجج(المثل)، وقد عرَّف البلاغيون(التشبيه التمثيلي) بأنَّه ما كان وجه الشبه فيهِ منتزعا من متعدد، والوصف فيه مركب[١].

ومن الحجج المؤسسة لبنية الواقع(الاستعارة)، ومنها(الاستعارات النائمة)، وهي تلك "الاستعارات التي تنوسي أصلها المجازي فغدت من معجم المجموعة اللسانية"[٢]، والطاقة الحجاجية لهذا القسم من الاستعارات تأتي من مادتها التمثيلية التي استقرت بوساطة الاستعمال في التقاليد الثقافية لأبناء اللغة[٣].

*** شروط الخطاب الحجاجي :**

من أهم ما عالجه منظرُو الحجاج قضية الشروط التي تقوم عليها حجاجية خطاب ما، وهي[٤]:

١. التداولية: فالحجاج كما عرَّفه طه عبد الرحمن:" فعالية تداولية جدلية"[٥]، فهو تداولي؛ لأنَّهُ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية، وهو جدلي؛ لأنَّ هدفه إقناعي قائم بلوغهُ على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة.

---

[١] ينظر: الشرح المختصر: ٣٢٠.

[٢] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٤٣ .

[٣] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[٤] الفلسفة والبلاغة: ٩٠- ٩٣.

[٥] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ٦٥.

٢. اللغة المشتركة: تقوم الحجاجية على تناسق مفاهيمها ومصطلحاتها؛ إذ إنَّ الحد الأدنى الواجب في قيام الحجاجية هو وجود لغة مشتركة وتقنية تسمح بالاتصال.

٣. إدعاء الحقيقة: لا تقوم الحجاجية في المنطلقات(الريبيّة)، بل إنّها تتبنى على مبدأ الإدعاء بالصدق والحقيقة والوعد بإنجاز ما يترتب على هذا الادعاء، فمنطلقات الحجاجية احتمالية لكنها تتضمن هدف الوصول إلى الإقناع بالصدق والحقيقة.

٤. الملاءمة: تختلف الحجج من حيث القوة، وهذا يعني أنّ الشروط السابقة لا تؤدي إلى قيام الحجاجية، إلا إذا كانت قائمة في محصلة توافقية، فالقوة التي تسمح لحجة ما بالوصول إلى إجماع، وتوافق، مرتبطة بملاءمة اللغة مع غايات الحجاجية ونسقها المفاهيمي المترابط، فالملاءمة في لغة الحجاجية وفي بنيتها المفاهيمية ووظائفها العامة إنّما تحققُ الإجماع العقلاني الذي لا يتحقق بدورهِ من دون اتصال بوصفهِ شرطاً في قيام الحجاجية.

٥. الجهوية التراتبية: تتميز الجهوية الحجاجية عن الجهوية المنطقية بكون الأولى مرتبطة بجهات تراتبية لا تختلف أو لا تتناقض بل بعضها أقوى، وبعضها أضعف؛ إذ من خلالها- أي الحجج المتراتبة- يمكن أن تُحدد قيمة الادعاء بالحقيقة، وعلى هذا الأساس رفض(ديكرو) التعارض بين معنى الملفوظ وقيمة المنطوق، ونظرية السلم الحجاجي تتدرج في سياق هذا الرفض، وتبيِّنُ أنَّ معنى الملفوظ وقوته لا يمكن وصفها من دون الرجوع إلى أغراض ذلك اللفظ، ومقاصده.

- **خصائص الخطاب الحجاجي:**

ومن قضايا الحجاج الرئيسة مسألة اتصاف الخطاب الحجاجي بمجموعة من الخصائص العامة؛ إذ ليس كل خطاب يكون حجاجا بالضرورة[١]، وهذا مخالفٌ لنظرية ديكرو التي تعممُ الحجاج على كل قولٍ، ويجعلُ المسألة معادلة ضرورية:

كل قول = حجاج

"أن تتكلم، يعني أن تحاجج، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجية"[٢].

أعود إلى القول بأنَّ هناك خصائص عامة للخطاب الحجاجي تميزه عن أنواع أخرى من الخطاب يكون فيها الخطاب ذاتيا، وإن كانت فيه تعبيرات حجاجية فإنَّها تأتي بصورة عرضية، ومن هنا "فإنّ الخطاب الحجاجي يتميز عن باقي الخطابات الأخرى بكونهِ خطابا مبنيا، وموجّها، وهادفا"[٣]، وأهم الخصائص التي تميزُ الخطاب الحجاجي من غيرهِ، هي[٤]:

١. خاصية البناء والدينامية: ليس هناك حجاج جاهز أو معطى منذ البداية، بل هي عملية يتم بناؤها تدريجيا، وتتطلب تكيفا مستديما لعناصرها إلى نهاية إتمام الحجاج، ومن ثم فإن غاية ما يمكن تحصيله من عملية الحجاج هو أنَّ القواعد، والأسس ترتبط بميدان اللغة في علاقتها بالإنسان والعالم؛ لذلك تأتي فعالية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائهِ، وتفاعل عناصره، فالاقتصاد في الأدلة الحجاجية مثلا تكون له أهمية في عملية

---

(١) ينظر: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ١٢٨.

(٢) الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٢/ ٣١٢.

(٣) عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ١٢٩- ١٣٤.

الإقناع؛ إذ المبالغة في سرد الحجج في غير مناسبة يفقد الحجاج فعاليته، وقوته؛ لأنَّ الذهن البشري لا يقوى إلا على معالجة عدد محدود من عناصر القول؛ لذلك ينبغي التركيز على الأهم والأساسي في الحجاج.

٢. خاصية التفاعل: ينبني الحجاج على مبدأين معرفيين أساسيينِ، هما مبدأ الإدعاء، ومبدأ الاعتراض، ويؤديان إلى الاختلاف في الرأي أو في الدعوى، ويدفعان إلى الدخول في ممارسة الدفاع أو الانتصار للدعوى وهو ما يؤدي إلى تحقيق نوع من التزاوج في ذات كل من المتكلم، والمخاطب، والمقصود بتزاوج المَتكلم هو "الانشقاق الاعتباري لذات المتكلم إلى ذاتينِ: إحداهما ظاهرة تستقل بمبادرة الإدعاء، والذات الثانية باطنة تشترك مع ذات المستمع في ممارسةِ الاعتراض؛ لأنَّ المتكلم قد يتعاطى- ولو ذهنيا على الأقل- تصوُّر مواطن النقد في الدعوى، وتقدير مختلف الأسئلة التي يجوز أن يوجهها المستمع إليها"[١]؛ والأمر نفسه ينطبق على التزاوج الاعتباري بين الذاتينِ الافتراضيتينِ في ذات المستمع لكن على نحو معكوس[٢].

٣. خاصية الالتباس: من أهم خصائص الخطاب الحجاجي هي خاصية الالتباس، فإنَّهُ وإن كان من الضروري التقيد بالآليات، والأدوات التي يعتمدها الحجاج لتأليف الخطاب يبقى المجال مفتوحا أمام مهارة المتكلم في فنِ القول؛ ليصل بسهولة إلى إفهام الآخر، وإقناعه بأطروحات المتكلم.

---

[١] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٦٥.

[٢] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

وقد ذكرت عند الحديث عن(البرهان والحجاج) أنَّ الأستاذ طه عبد الرحمن أشارَ إلى أنَّ الالتباس لا ينفك عن الحجاج، والالتباس الحجاجي يجتمع فيه اعتبارا(الواقع، والقيمة)؛ "فالحجاج مبني على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق، والعمل بالمقاصد"[1]، وقد ذكر في سياق ذلك مجيء الحجاج عن طريق المجاز؛ لأنَّ المجاز يأخذ بالازدواج الذي يُبنَى عليهِ الالتباس المطلوب في الحجاج، وهو الازدواج بين واقع الدعوى وقيمتها، وما واقع الدعوى إلا ظاهرها أو عبارتها، وما قيمتها إلا باطنها أو إشارتها[2]؛ فالمجاز هو "الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها"[3] وهذا الجمع بين العبارة، والإشارة هو عين الالتباس الحجاجي؛ "فليس هو تعدد في الدلالة، ولا تعدد في التركيب، وإنما هو تعالق بين معنيين، أحدهما معنى واقعي أو حقيقي والثاني معنى قيمي أو مجازي"[4].

لذلك فالعبارة في الحجاج إذا اقتصرت على ظاهرها جاءت اعتيادية لا يعيرها المستمع أدنى اهتمام، أما إذا حمَّلها إشارات رمزية، فإنَّها ستحرك آليات الفهم، والتأويل لدى المخاطب، وتدفعه نحو اعتقاد ما[5].

٤. خاصية التأويل: وهي وجه آخر من أوجه النشاط الحجاجي؛ إذ بعد أن يتم استقبال القول بوصفه علامات لغوية يتم التعالق بين عنصري الفهم والتأويل، فهم أولي لمعنى القول، ثم فهم ثان أو تأويل لمعنى معنى

---

[1] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣٠.

[2] المصدر نفسه: ٢٣١، واستراتيجيات الخطاب: ٤٦٠.

[3] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣١.

[4] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[5] ينظر: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ١٣١.

القول، وهنا تدخل مجموعة من العوامل الخارجية لتحديد البعد التأويلي؛ ذلك لأنّ طبيعة الحجاج لا تقوم على وصف ظاهري للقول لكنها تقوم على التدليل على بعض النتائج[١].

٥. خاصية الاعتقاد: يمثل استهداف اعتقادات المتلقي إحدى الجوانب الأساسية في العملية التخاطبية، ويعد رهانا صعبا في كل حجاج؛ فالاعتقادات بصفة عامة هي ملتقى الأخلاق المقبولة في مجتمع ما؛ إذ تقوم بدور المسلمات الرياضية لا تقبل النقاش والجدال في أحيان كثيرة، ولا تخضع للتحليل العلمي، والتمحيص الدقيق بقدر ما تقوم على أنساق فكرية[٢].

وأذكّرُ هنا بما أشار إليه(برلمان، وتيتيكاه) في منطلقات الحجاج، وبخاصة القيم، والهرميات، والمواضع بأقسامها؛ لأنها تمثل مجموعة من المعتقدات، والأفكار المشتركة بين أفراد المجتمع، وترتبط بها خاصية الاعتقاد.

٦. الانتهاض إلى العمل: إنّ تأثير القول الحجاجي غالبا ما يدفع إلى ردِّ فعل معين، قد يكون عملا، أو الكف عن العمل، أو عدولا عنه، أو تحويلا لمسارهِ، وهذا العمل هو الذي يؤكد بالملموس حصول اقتناع معين، لكن حصول الاقتناع لدى المستمع لا يكون إلا بعد مطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبهِ، ومبدأ الانتهاض إلى العمل محوري في كل الجوانب التواصلية، والخطابية، والتعاملية[٣].

وهذه الخصائص للخطاب الحجاجي هي أهم ما يميزه من غيره.

---

(١) ينظر: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ١٣٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٤.

والملاحظ أنَّ الأستاذ طه عبد الرحمن ذكر أقساما للحجَّة، وهذا التقسيم هو من أهم قضايا الحجاج ولاسيما في الدراسات العربية؛ فالأستاذ طه عبد الرحمن من أبرز من تناولوا مفهوم الحجاج، وأقسام(الحجَّة) عنده بحسب توظيفها في عملية التواصل ثلاثة، هي[1]:

١. الحجَّة المجرَّدة: وهي الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يستقل بنفسه.
٢. الحجَّة الموجَّهة: وهي الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يأتي بهِ المتكلم.
٣. الحجَّة المقوَّمة: وهي الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم بغرض إفادةِ المستمع مع نهوض المستمع بتقويم هذا العمل.

وأوضحَ الأستاذ عبد الرحمن أنَّ لكل قسم منها مجموعة من الخصائص تمثَّلت في الحجة المجرَّدة في محو الوظائف الخطابية، وإظهار المعاني المضمرة[2]، وتمثَّلت في الحجة الموجَّهة في عدم انفكاك القصدية عن اللغة، وتراتب القصدية[3]، وتمثَّلت في الحجة المقوَّمة في دراسة التفاعل بين المتكلم، والسامع، وقسَّم التفاعل على ممارسة حية، وممارسة غير حيَّة، وربط الممارسة غير الحية بعبارة النص مجردا عن مقام الخطاب بخلاف الممارسة الحية المرتبطة بإشارة النص، ومقتضى الحال[4].

ومن أهم قضايا الحجاج في مفهوم الحجاج عند(ديكرو، وانسكومبر) طرحهما لفكرتي(السلالم الحجاجية)، و(الأدوات الحجاجية)، وأهمية(السلالم

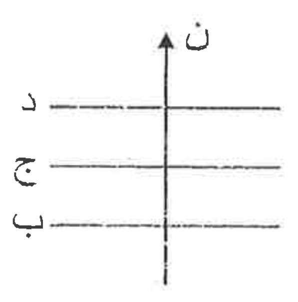
---

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٥٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٦.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦٥- ٢٦٦.

الحجاجية) تكمن في كونها تعالج تراتب الحجج في الخطاب والبدء من الأضعف فيها وصولاً للأقوى، وسأعرض بشيء من التفصيل لهذين المفهومين.

أولاً: السلالم الحجاجية

يمثل السُّلم الحجاجيُّ "علاقة تراتبية للحجج"[1]، ويُرمز لهذا التراتب بالآتي[2]:



(ن) = النتيجة، (ب) و(ج) و(د): حجج تخدم النتيجة (ن).

فالحجج المترابطة فيما بينها بعلاقة ترتيبية معينة تنتمي إلى السلم الحجاجي نفسه.

ويتصف السلم الحجاجي بالسمتين الآتيتين[3]:

١. كل قول يرد في درجة ما من السلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ(ن).
٢. إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن) فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح.

---

(١) اللغة والحجاج: ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٣) التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٦٠.

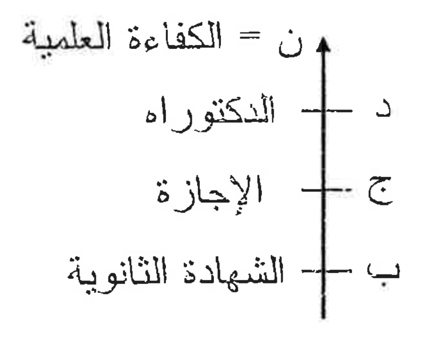
ويضرب الأستاذ أبو بكر العزاوي مثالاً للتراتب في السلم الحجاجي، بما يأتي[1]:

١. حصل زيدٌ على الشهادة الثانوية.

٢. حصل زيدٌ على شهادةِ الإجازة.

٣. حصل زيدٌ على شهادة الدكتوراه.

فهذهِ الجمل تتضمن حججا تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، وتنتمي كذلك إلى السلم الحجاجي نفسه، وكلها تؤدي إلى نتيجة مضمرة تمثل(كفاية زيد)، أو(مكانته العلمية)، ويرمز لها بما يأتي[2]:



والملاحظ أنَّ البحث في السلالم الحجاجية اتخذ أشكالا ثلاثة، هي[3]:

١. المراتب المتضادة: فيها تكون الألفاظ دالة على معانٍ يمكن ترتيبها بين طرفينِ متباينينِ، مثل جملة الألفاظ المرتبة الآتية:[الرمضاء، الحر، الدفء، الفتور، البرد، القَرَس]، فهذهِ الجملة تتضمن اللفظينِ: الرمضاء،

---

(١) اللغة والحجاج: ٢١.

(٢) التحليل التداولي لخطاب الحجاج النحوي:٢٣٦.

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٧٤- ٢٧٥.

والقَرَس اللذينِ هما بمنزلةِ طرفين أعلى وأسفل متباينين بينهما مراتب أربع، وقد جاء هذا التصور المرتبي عند اللساني(ادوارد سابير).

٢. المراتب الموجَّهة توجيها كميا: يوجد هذا الضرب من المراتب في الألفاظ الدالة علىٰ معان تقبلُ التدرج في اتجاه واحد، إما على مقتضى التزايد أو على مقتضى التناقص، مثل أسماء معايير الوزن الآتية: <درهم، مثقال، أوقية، رطل> على سبيل الزيادة، واستقل بهذا النوع من اللسانيات الأمريكي (هورن) والفرنسي(فوكويني).

٣. المراتب الموجَّهة توجيها قصديا: قد تدخل المراتب الحجاجية لا على الألفاظ وحدها، بل على الجمل كذلك، فيكونُ قصدُ المتكلم عاملاً في تحديد اتجاه المراتب التي تنزلها هذهِ الجمل، مثال ذلك أن يقصد المتكلم التوقف عن العمل متى شعرَ بالملل، أو متى غلبَ عليهِ النوم؛ فالقولان:(شعر المتكلم بالملل)، و(غلبَ على المتكلم النوم) هما بمثابة مرتبتينِ متفاوتينِ بموجب القصد الذي للمتكلم في التوقف عن العمل، واختصَّ بالنظر في هذا النوع من المراتب اللسانيان الفرنسيان(ديكرو، وانسكومبر).

والقسم الأخير هو الأوسع أفقا في الاستعمال اللغوي، والخطاب الحجاجي. وتنطلق هذه النظرية من إقرار للتلازم في عمل الحجاج بين الحجَّة، والنتيجة، ومعنى التلازم هو" أنَّ الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أنَّ النتيجة قد يُصرح بها، وقد تبقى ضمنية"[١].

وتكمن أهمية السلالم الحجاجية بحسب(ديكرو) في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيِّز المحتوى الخبري للقول، وهذا يعني أنَّ قيمة الملفوظات

---

[١] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٦٣ .

حجاجيا لا تخضع لشروط الصدق والكذب، بل تعتمد القوة والضعف بملاحظة التدرج فيها[١]؛ ولذلك أرى أنَّ الحجاج يقع في صميم الدراسات التداولية، وبخاصة في مفهوم الإنجازيات؛ فالتوجيه عند(ديكرو) وبحسب ما أشرت إليه عند بحثي مفهوم الحجاج عنده هو من أهم ما ينجز عبر الحجاج؛ "فغاية الخطاب الحجاجي تتمثل في أن تفرضَ على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيها"[٢].

وأرى أنَّ التصور الخاص بالمراتب الحجاجية فيما يتعلق بقضية رفضها قيم الصدق والكذب واعتمادها قيم القوة والضعف في الحجاج يقرب من نظرية (الدوكسولوجيا) التي تحدثت عنها في مفاهيم الحجاج في الدرس اللساني؛ إذ اعتمدَ علمُ الآراء قيم الإثبات والنفي بدلا من قيم الصدق والكذب[٣]،ويظهر لي أنَّ أهم عنصر من عناصر قوة حجاج ما هو أن نثبت ما انطلق منه الخطيب أو فاعل الحجاج من حقائق أو وقائع أو غيرها، وعكس ذلك في بيان ضعف ذلك الحجاج يكون بنفي ما يستند إليه الخطيب من وقائع أو إبطال ما يتصور أنّها حقائق.

وتحكم السلالم الحجاجية قوانين، أهمها[٤]:

١. قانون النفي: إذا كان قول ما مستعملا من قبل متكلم معين ليخدم نتيجة معينة، فإنَّ نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.

---

[١] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٧٠، والفلسفة والبلاغة: ١٩٤.

[٢] الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٣.

[٣] ينظر: الفلسفة والبلاغة:٨٢.

[٤] التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه:٦٠-٦٢.

٢. قانون القلب: ويرتبط هذا القانون أيضا بالنفي، ويعد إتماما للقانون السابق، ومفاد هذا القانون، أنّ السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية.

٣. قانون الخفض: يوضح قانون الخفض الفكرة التي ترى أنّ استعمال جمل منفية، مثل:

- الجو ليس باردا.
- لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.

يعني استبعاد تأويلات أخرى غير تلك التي تتبادر إلى الذهن، إذ سيؤوّلُ القول الأول إلى ما يأتي:

١. إذا لم يكن الجو باردا، فهو دافئ أو حار.

وسيؤوّل القول الثاني بما يأتي:

٢. لم يحضر إلا القليل منهم إلى الحفل.

وهكذا أرى أنّ نظرية(ديكرو) في التراتب الحجاجي كوّنت دفعا لنظرية الحجاج؛ وتراتب الحجج وتدرجها من الأعلى إلى الأسفل، ومن القوة إلى الضعف هو الذي يمنحها تلك الطبيعة(السلمية)[١].

ثانياً: الأدوات الحجاجية

وتعد الأدوات الحجاجية من أهم ما بحثته لسانيات الحجاج، وتعني وجود مجموعة من الألفاظ التي تقرب من كونها أدوات في النصوص لها أهمية بالغة في حجاجيتها؛ إذ تشتمل اللغات بحسب مفهوم(ديكرو) على ألفاظ خاصة بالحجاج[٢]، وقد اقترح تقسيمها على قسمين، هما: الروابط الحجاجية، والعوامل

---

[١] ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١٩٤.

[٢] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/٦٣.

الحجاجية، وبتناولهِ الأدوات الحجاجية أجاب(ديكرو) عن التساؤل في رجحان حجَّةٍ على أخرى، وذلك بالتفريق بين هذين النوعين اللذين يحققان الوظيفة الحجاجية[1].

ويبدو لي أنَّ رأيه هذا مرتبط بمفهومهِ في أنَّ اللغة تحمل بصفة جوهرية وظيفة حجاجية[2]، وأرى أنَّ حصر رجحان حجَّة على أخرى بما تحمله من أدوات حجاجية فيه نوع من المبالغة في أهميتها؛ فحجاجية النص تقوم على ما يتضمنه من حقائق أو وقائع أو غيرها من مقدمات الحجاج فضلا عن أدوات اللغة من روابط وصيغ وبذلك تتضافر أدوات اللغة ومفرداتها مع المنطلقات في خلق حجاجية الخطاب.

وتؤسِّس تلك الروابط جملة من العلاقات الحجاجية كالتتابع، والسببية، والاستنتاج، والاقتضاء[3]؛ والروابط الحجاجية ألفاظ:" تربط بين قولينِ، أو بين حجتينِ على الأصح أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة"[4]، ومن أمثلة الروابط الحجاجية: بل، لكن، حتى، لاسيما، لأن وغيرها[5]، أمَّا العوامل الحجاجية "فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية، أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما"[6].

---

(1) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة:١٩٥.

(2) ينظر: ينظر في ذلك: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه:٥٥.

(3) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٤٣-٤٤.

(4) الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٦٣/١.

(5) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٧.

(6) البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٣٦.

ومن أمثلة العوامل الحجاجية: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، ما... إلا[1]، نحو:

١. الساعة تشير إلى الثامنة.

٢. لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة.

فعند إدخال أداة القصر(لا، وإلا) وهي عامل حجاجي لم ينتج عن ذلك أي اختلاف في المحتوى الإخباري لكن تأثرت القيمة الحجاجية للقول، أي(الإمكانات الحجاجية) التي يتيحها، فلو قلنا:

- الساعة تشيرُ إلى الثامنة، أسرع.
- الساعة لا تشير إلا إلى الثامنة، أسرع.

سنلاحظ أنّ القول الأول سليم، ومقبول تماما، أمّا القول الثاني فيبدو غريبا، ويتطلب سياقا خاصا، وأكثر تعقيدا حتى نستطيع تأويله[2].

كما أنّ دخول الأداتين(لا... إلا) اللتين تفيدان القصر ضيّق من الإمكانات الحجاجية للجملة؛ إذ أصبح الاستنتاج الاعتيادي والممكن هو(لا داعي للإسراع) بخلاف الجملة الأولى التي لها إمكانات حجاجية كثيرة؛ إذ تخدم نتائج متعددة، مثل: الدعوةِ إلى الإسراع، أو التأخر والاستبطاء، وغيرها[3].

ومسألة التفريق بين مفهومي الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية مما طرحته لسانيات الحجاج[4]، إلا أنّ الباحث عز الدين الناجح خالف تلك الدراسات الدراسات، وأطلق تسمية(العوامل الحجاجية) على كلا القسمين؛ فقد تبنّى الرأي

---

[1] ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني: ٣٦

[2] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه:٦٥.

[3] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه:٦٥.

[4] ينظر في ذلك: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٣٧٦-٣٧٧، والحجاج مفهومه ومجالاته:١/٦٦.

القائل بعدم الفصل بينهما[١]، وأرى أنَّ الفرق بينهما جوهري فلا يصح أن يتم الخلط بينهما؛ لأنَّ العوامل الحجاجية-كما أثبت ذلك الباحث نفسه- تدخل على(القضية الواحدة) بخلاف الروابط الحجاجية التي تدخل على أكثر من(قضية)[٢]، وهذا الأمر يرتبط بما ذكرته من أنّ الروابط الحجاجية تربط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج بخلاف العوامل التي تدخل لتحصر دلالة النّص بالنتيجة التي يريدها الخطيب من غير أن تربط بين أركان الخطاب الحجاجي.

وقد أشار الأستاذ رشيد الراضي إلى أنَّ دراسة الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية تعدُّ مرحلة مهمة من مراحل(البنيوية الحجاجية)، وفي سياق ذلك ذكر(ديكرو) أنَّ هناك مظهرينِ متلازمينِ في الحجاجيات اللسانية، يتمثل أولهما في "أنَّ الدلاليات اللسانية يجب أن تكون بنيوية"[٣]، وثانيهما "أنَّ أساس البنيوية في مجال الدلالة هو أن يُؤخَذ التلفظ بعين الاعتبار"[٤].

وقد راهنت لسانيات الحجاج على السعي الحثيث في تحويل الدرس التداولي الذي يوصف عادةً بكونهِ (عصيا) على الصوغ البنيوي، ووثيق الصلة بالمعطيات المقامية، والسياقية إلى درس يتخذ من بنيةِ اللغةِ موضوعا للدراسة بدلا عن الانكبابِ على المعطيات السياقية والمقامية المختلفة؛ إذ من دون الاهتمام بالبنية اللغوية تفقد الدراسة شرط التحول إلى موضوع علمي يعالج على وفق منهجية محددة[٥].

---

[١] ينظر في ذلك:العوامل الحجاجية في اللغة العربية:٢٤.

[٢] ينظر: المصدر نفسه:٢٢.

[٣] الحجاج، مفهومه ومجالاته:٢/ ٨١- ٨٢.

[٤] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[٥] ينظر: المصدر نفسه: ٢/٨٨ .

وذكر بعض الباحثين أنَّ جهود(ديكرو) مرَّت بخمس مراحل تعـززّ فيهـا الالتزام بالطور(البنيوي)[1]، ومن أهم ما يميزُ الحجاج في منظـور اللسـانيات الحجاجية أنه يختلف عن التصور السائد في أدبيات الخطابة والحجاج التقليديينِ، فهذا التصور الكلاسيكي الحجاجي يفترض وجود انفصال بين البنيـة اللسـانية للملفوظ، واستعماله الحجاجي، ويتم الرجوع إلى(الوقائع) أو المنطلقات الفكريـة عند دراسة الحجاج، وليس إلى بنية الألفاظ وهو ما تعتمدهُ الحجاجيات اللسـانية التي ترى أنَّ العلاقة الحجاجية هي عبارة عن تأليفِ معـين للألفـاظ يسـتجيب لاعتبارات النص، فهو مبني على أساس معنى هذهِ الملفوظات أنفسها[2]، أي أنَّ البناء الحجاجي يكون مستندا في الغالب إلى هذا الأساس التلفظي الذاتي، ولـيس إلى الوقائع الخارجية[3].

وختاما أوجز القول في مفهوم الحجاج وأركانه؛ فقد رأينا مفهوم الحجـاج يتداخل مع مفاهيم(الجدل) ، و(البرهان) في دراسات القدماء، وهو ما يعني ضياع جانب كبير من مفهومه في تلك الدراسات؛ إذ انحصر الجدل وبحسب مفهوميـه اللغوي، والاصطلاحي بالحوار المنطلق من خصومة ونزاع، وبهذه النظرة لعلم الجدل الذي يعد من أقسام علم الكلام انطلق الجاحظ في رفضه وجود الجدل في الخطاب القرآني، ويبدو لي أنَّ سبب ذلك هو أنَّ الخطاب القرآني لم يكن موجَّها لخصوم الدعوة الإسلامية فقط لكي يكون خطابا(جدليا) بـل خاطـب المسـلمين وغيرهم فخاطب جنس الإنسان والناس كافة فضلا عما ذكره بعضهم من خلـو

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٢/٨٧- ٨٨.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ٢/٩٢.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٩٢- ٩٣.

الخطاب القرآني من الأقيسة الجدلية المقررة في علم المنطق؛ لـذلك لا يصـح وصف الخطاب القرآني فضلا عن الخطاب النبوي والعلوي بالجدل.

وقريب من ذلك تداخل مفهوم(الحجاج) مع مفهوم(البرهان)؛ فقد تطابقا عند القدماء لغة واصطلاحا وهو ما رفضته الدراسات الحديثـة؛ إذ ارتـبط بحـث الحجاج بـ(الممكن) أمّا البرهان فقد ارتبط بـ(الضروري)، والبحث في الحجاج (الممكن) يقتضي الإقناع بخلاف البحث في البرهان(الضروري) فإنّه يقوم علـى الإكراه في قبول النتائج لأنّها مبنية على اليقين، ومن أهم مـا يميـز الخطـاب الحجاجي عن البرهاني أنّه يدرس خطابا متكاملا بخلاف البرهان الذي يـدرس جملا يستقل بعضها عن بعض؛ فالحجاج وتأسيسا على ذلك يختلف من الناحيـة الجوهرية عن الجدل والبرهان.

ودرست نهوض مفهوم الحجاج عند اليونان وآليات الحوار الإقناعي ومـا يميزه من السفسطة التي جعلت الخير هو ما يمثّل مصالح الإنسان ، والشر مـا يتعارض مع ملذاته، فردّ عليهم أرسطو عبر مجموعة من مصـنفاته؛ مثبتـا أنّ الحجاج بمفهومه القديم(الخطابة) هو وسيلة تفكير تساعد علـى معرفـة الخيـر والحقيقة وليس وسيلة للحصول على المكاسب والأموال؛ فكانت مصنفات أرسطو عاملا حاسما في طرح مفهوم الحجاج لكنه توزع علـى ثلاثـة محـاور،هي: الفلسفة، والجدل، ونظرية الأدب؛ وكان للعلماء المسلمين إسهامات متميزة فـي شرح تراث أرسطو وتوضيح ما طرحه من مفاهيم كما وضع بعضهم شـروطا في أدب(الجدل) الذي يقرب من مفهوم الحجاج وإن كان الحجاج أوسع منه.

ونهض الحجاج في عصرنا الحاضر على يد(برلمان وتيتيكاه) ليجمعا شمل الحجاج الذي توزع على مباحث الفلسـفة والجـدل ونظريـة الأدب، وليقـدما نظرية(الحجاج) على وفق المنهج الحديث بوصفه آلية الحوار الإقناعي؛ ليتحرر

من هيمنة النظرة البرهانية والمنطق الصوري تـارة، والسفسـطة والتلاعـب بالجمهور تارة أخرى، فتأثرت هذه الحركة بنهوض(علم الآراء) الـذي رفـض الاتجاه(اليقيني) في الدراسات الإنسانية وبخاصة دراسة الخطاب؛ لأنّـه اتجـاه يقصي دور المتكلم والمخاطب في توجيه دلالة الألفاظ.

والحجاج بعد أن كان مبحثا يدرس في وحدتين رئيستين تستقل كلٌ منهمـا عن الأخرى، هما:الجدل، والخطابة صار ميدانا مشتركا لهما، وتميزت الخطابة الجديدة(الحجاج) من مفهومها لدى القدماء بقضيتين؛ إحداهما تتعلق بالجمهور إذ يجوز فيه أن يكون حاضرا أو غائبا، والأخرى تتعلق بنوع الخطاب؛ فالحجاج قد يكون منطوقا وقد يكون مكتوبا.

ومن مفاهيم الحجاج التي تقدم الحديث عنها مفهوم(ديكرو، وانسـكومبر)، ويهتم أساسا بما يتضمنه النص من وسائل لغوية كالروابط والعوامل الحجاجيـة التي تدخل في حجاجية الخطاب، ويرتبط هذا المفهوم بنظرية الفعـل الكلامـي؛ فالحجاج بحسب(ديكرو) إنجاز لحدثين أو فعلين هما فعل التصريح بالحجة، وفعل الاستنتاج، ومن أهم ما طرحته هذه النظرية ونتيجة لتأثرها بنظرية أفعال الكلام هو عدُّها الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج بما هو إنجـاز لحـدث الإقنـاع؛ ويرتبط ذلك بالهدف من الحجاج وهو توجيه المتلقي للقبول بـنمط معـين مـن النتائج.

وقد درست مفهوم الحجاج عند(مايير) وهـو مـا يعـرف بـ(المساءلة الحجاجيـة)، وهـذا المفهـوم يمثـل عـودة لمـا طرحـه أرسـطو مـن حركة(السؤال/الجواب) وأثر ذلك في إقناع المتلقي؛ فالتساؤل هو جوهر استعمال اللغة، والتساؤل هو ما يقود المتلقي إلى الاقتناع بما يطرحه الخطيب من أفكار،

والتساؤل قد يكون مُضمرًا يستدعي المُظهَر أي الجواب، وقـد يكـون مُظهَـرا والإجابة عند ذلك ستكون إقرار المتلقي بالفكرة التي يطرحها الخطيب.

وقد وقفت على أهم خصائص الخطاب الحجاجي كالتفاعل، والالتبـاس، و الاعتقاد، والشروط التي يلزم توافرها في الخطاب الحجاجي كالتداولية، واللغـة المشتركة، وادعاء الحقيقة، كما تناولت السلم الحجاجي بالبحث وما يتصف به من خصائص، وما يخضع له من قوانين .

الفصل الثاني

المستوى النَّحوي في حجاج نهج البلاغة

دراسة المستوى النحوي في النصوصِ من المسائل المهمة في الكشف عن دلالتها، ومن الدراسات المرتبطة بالجانب النحويِّ دراسة التراكيب اللغوية؛ لما تضيفهُ الأدوات النحوية التي تعد جوهر هذهِ التراكيب من دلالات في النص، كأدوات التوكيد، والشرط وغيرها، ومن ثمَّ تشترك هذهِ الأدوات مع عناصر الخطاب الأخرى في إنتاج المعنى.

وفي النصوص الحجاجية تكون لهذه الأدوات أهمية خاصة؛ لما يترتب على استعمال أدوات معينة من إقناع المتلقي بالفكرة أو الأفكار التي يحملها النص؛ إذ قد يقتضي الحوار الإقناعي توكيد نصٍّ ما أو توظيف تركيب الشرط الذي يقرب فيما يظهر لي من المنطلقات الحجاجية ولاسيما عنصر(الافتراضات) على نحو سأبيِّنه عند دراسة تركيبِ الشرط أو إقناعه بوساطة(المساءلة) التي تعني طرح(المُشكِل) على المتلقي لتكون الإجابة إقراره بما يريده الخطيب من نتائج والإقرار سيكون انطلاقا لإقناع المتلقي، وبذلك تتضافر الأدوات مع الألفاظ الأخرى في الخطاب لخلقِ الطاقةِ الحجاجية.

والملاحظ أنَّ تلك الأدوات المؤسسة للتراكيب اللغوية تقترب بل لعلها تتطابق مع مفهوم (العوامل الحجاجية) التي لا تربط بين (المتغيرات الحجاجية) وهي عناصر الخطاب الحجاجي كالحجج والنتائج أو الحجج نفسها بل هي جملة ألفاظ تدخل على النَّص الحجاجي لترسيخ المفهوم الدلالي للحجاج أو النتيجة التي يقصدها الخطيب[1]، وربما تُستثنَى من ذلك دراسة علاقة(الاقتضاء) التي تمثِّلها

---

(١) ينظر في ذلك: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٣٧٦-٣٧٧، والحجاج في البلاغة المعاصرة:١٩٥.

أدوات الشرط على نحو كبير[1]؛ إذ ترتبط دراستها بدراسة الروابط الحجاجية التي تربط بين جملتين لتؤسس منهما نصا حجاجيا.

ودراسة الروابط مما يميِّز لسانيات الحِجاج؛ إذ ترتبط تلك الأدوات بما طرحه(ديكرو) في مفهومه الحجاجي، وقد أشرت إليها عندما بحثتها في المبحث الخاص بأركان الحجاج وقضاياه؛ فالروابط الحجاجية أدوات توفرها اللغة ويستغلها الخطيب ليربط بين أجزاء نصِّه لتتأسَّس عند ذلك العلاقة الحجاجية المقصودة من استعمالها[2]، ودراسة المستوى النحوي في الخطاب الحجاجي ستنطلق من دراسة تلك الأدوات التي تُعرَف بالعوامل الحجاجية ولاسيما عوامل التوكيد والمساءلة التي تؤدي وظيفة توجيه المتلقي للسير في الطريق الذي يرسمه الخطيب وترسيخ المفاهيم التي يطرحها الإمام(ع) كما تقتضي الدراسة الوقوف على الروابط الحجاجية وتحليلها في سياق العوامل التي ترد فيها ولاسيما أدوات الشرط بوصفها روابط تربط بين الحجج والنتائج التي تُطرَح في النَّص؛ ودراسة تلك الروابط الحجاجية تدخل في بيان أركان الحجاج في الخطاب من(حجَّة) و(نتيجة) قد تكون مُضمرة، أو مذكورة، كما ستقف على مقتضى النص الذي عُرِّف بأنَّه:"المضمون الذي تبلِّغُهُ الجملة بكيفيةٍ غير صريحة"[3]؛ فدراسة المقتضى أو الاستلزام الدلالي تفتح آفاق النص على دلالات، وقراءات متعددة تدخل في حجاجيته.

---

(1) ينظر في ذلك: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٤٤.

(2) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٣١٨ .

(3) التداولية اليوم، علم جديد في التواصل: ٤٧.

المبحث الأول

التوكيد في الخطاب الحِجَاجي

التوكيد لغة: التوثيق، يقال:"وكَّد العقد والعهد: أوثقهُ، والهمز فيه لغة"[1].

وفي الاصطلاح:"هو تثبيت الشيء في النفس وتقوية أمرهِ"[2].

والتوكيد بحسب رأيي لا يُؤتى بهِ في الغالب إلا بهدف إقناع المتلقي بفكرة معينة ولاسيما في الخطاب الحجاجي؛ وتنبَّه علماؤنا إلى أهمية دخول عناصر التوكيد في الجملة مراعاةً لحال المتلقي، وحديث أبي العباس المبرد(ت٢٨٥هـ) مع الفيلسوف الكندي (ت٢٦٠هـ) الذي استفهم عن الفرق بين قولهم: عبدُ الله قائم، وإنَّ عبدَ اللهِ قائم، وإنَّ عبدَ الله لقائمٌ[3]، يوضح دلالة كل أداة من أدوات التوكيد لكنَّهم لم يشيروا صراحة إلى قضية إقناع المتلقي باستعمال أدوات التوكيد وهو جوهر عملية الحجاج بل تركَّز حديثهم في قضية إنكار المخاطب أو شكِّه، وفائدة التوكيد في إزالة ذلك الإنكار؛ فقد ذكروا أنَّ المخاطب إن كان خاليَ الذهن ألقي إليهِ الكلام بلا توكيد، فإذا كان مترددا حسن تقويتهُ بمؤكد، وإن كان مُنكِرا وجب توكيده[4].

وهنا أتساءل عن معنى وصفهم المتلقي بـ(خالي الذهن) فهل هناك متلقٍ خال ذهنه حقيقة؟، الجواب(لا)؛ لأنَّ المتلقي لابد أن يملك تصورا عن الشخص

---

[1] لسان العرب(وكد): ٣/٤٦٦ .

[2] في النحو العربي،نقد وتوجيه: ٢٥٢.

[3] ينظر في ذلك: دلائل الإعجاز:٢٩٨.

[4] ينظر في ذلك: البرهان في علوم القرآن:٢/٣٩٠، وعلم المعاني: ٥٥-٥٦ .

أو الفكرة التي يجري الحديث عنها سواء أكانت تصوراته إيجابية أم سلبية، فليس هناك متلق للخطاب لا يملك تصورا ولو على نحو يسير عن الفكرة التي يطرحها الخطيب وبخاصة في الخطاب الحجاجي.

وبعض النصوص خلت من عوامل التوكيد لكنّها استعملت عوضا عن ذلك عوامل أخرى كالمساءلة الحجاجية، أو بنيت على روابط الاقتضاء(الشرط) فضلا عن وجود الروابط الحجاجية الأخرى في جملة النصوص التي درستها والتي كانت محل البحث لأهميتها في بيان عناصر الخطاب الحجاجي؛ فهي جملة أدوات تربط بين مفاصل النَّص الحجاجي وتسهم في تأسيس العلاقات الحجاجية[١] .

وبحث بعض اللسانيين(التوكيد) وسياقاته التي يرد فيها ضمن الصيغ التحويلية في النحو العربي التي تخدم بنية عميقة للنَّص تكون مطلوبة من دخول الزيادة في الجملة[٢].

وعدَّه بعض علماء النَّص من أمثلة قاعدة(الترميز) وهي قاعدة من قواعد الاقتصاد اللغوي التي تعملُ على ضبط النص، وشدِّ أجزائهِ، وربط عناصرهِ بعضها ببعض[٣]، وهذه القاعدة تمثِّل ضربا من الاستغناء اللغوي[٤]؛ ففيها تغني أداة معينة مثل(إنَّ) عن جملة(أؤكد) المكونة من فعل وفاعل، وكذا الحال في

---

[١] ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٣١٨.

[٢] ينظر في ذلك: التحويل في النحو العربي، مفهومه- أنواعه- صوره: ١٤٦-١٥١

[٣] ينظر: نحو النص، نقد النظرية وبناء أخرى: ١٦٧ .

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ١٨٣ .

الأداة(إنّما) التي تكون من أكثر من حرفينِ؛ فإنّها أغنت عن جملة الفعل(أحصر) مع أنَّ الأدوات لا تدل على معنى في ذاتها بمعزل عن السياق[1].

ووردت العوامل الحجاجية المؤكدة في خطاب النهج على صور متعددة، أهمها: التوكيد بالأحرف، والتوكيد بالقسم، والتوكيد بالقصر الذي جرت الإشارة إليه عند بحث مفهوم العوامل الحجاجية .

ودراسة الخطاب الحجاجي تستلزم بحث(مفهوم) النص، و(مقتضاه) فهناك تفاوت بين دلالة كلٍّ من المفهوم، والمقتضى وأثرهما في حجاجية النّص؛ وقد أشار علماؤنا ولاسيما الأصوليون منهم إلى تعريف هذين المبحثينِ؛ فقد قيل في تعريف(المفهوم) إنّ "المفهوم والمعنى متحدان بالذات فإنَّ كلًّا منهما هو الصورة الحاصلة في العقل أو عنده، مختلفان باعتبار القصد والحصول، فمن حيث إنّها تُقصَد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنَّها تحصل في العقل سميت بالمفهوم"[2].

أما(المقتضَى) فقد حدَّه علماؤنا بأنَّهُ:"هو الذي لا يدل عليهِ اللفظ، ولا يكون منطوقا لكن يكون من ضرورة اللفظ، وقال القاضي الإمام: هو زيادة على النص لم يتحقق معنى النص بدونها فاقتضاها النص ليتحقق معناه ولا يلغو، وقيل هو جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق شرعا أو عقلا أو لغة"[3].

---

[1] ينظر: المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

[2] كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١٦١٧ .

[3] كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم:١٦٢٤-١٦٢٥، وينظر:الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي:٣/٨١-٨٢.

وهذهِ التعريفات المتعددة لمقتضى النّص تؤدي معنى واحدا تكون فيها دلالة المقتضى من لوازم النص، وما ذكره علماؤنا بحثه اللسانيون المحدثون مفصّلين في مفهومه دلاليا وتداوليا؛ ففي المستوى الدلالي تم إعطاء أمثلة على بحث ما تقتضيه الجمل أو النصوص من دلالات، وفي المستوى التداولي نصّت تلك الدراسات على أنّ المقتضى يمثل مجموعة من الاعتقادات و(الخلفيات) المشتركة بين المتخاطبين كما يمثل مجموعة من القواعد والشروط المحققة لانسجام الخطاب[1]، وفي سياق ذلك قابل(ديكرو) بين(المفهوم) و(المقتضى) ورأى أنّ الطاقة الحجاجية للمقتضى أعلى من المفهوم؛ فقال:"عندي أنّ المقتضى جزء لا يتجزأ من معنى الملفوظات، أمّا المفهوم فمدارهُ على الطريقة التي يتوخاها المتلقي في فهم ذلك المعنى"[2]، ويبدو لي أنّ أهمية المقتضى في دراسة الخطاب ولاسيما الحجاجي منه تأتي من كونه يقرب من(المسلّمات) التي نستدل بها على مقام الخطاب والظروف المحيطة بشخصياته فهي تقرب من(الدوافع) التي تدفع الخطيب لإنتاج حجاجه وهذا النظرة إلى أهمية المقتضى حجاجيا تتأسس على ما ذكرته من تنبه التداوليين إلى كونه يرتبط على نحو وثيق بالاعتقادات التي تحكم أذهان المشاركين في الحوار، وقد ذكرت بعض الدراسات أنّ المقتضى يساوي الخبر المعلوم لدى المخاطب[3].

وقد أشرت عند بحثي مفهوم الحجاج عند(ديكرو) إلى أنّه اقترح إضافة فعلي (الحجاج)، و(الاقتضاء) على نظرية الأفعال الكلامية؛ لعدم كفاية

---

[1] ينظر في ذلك: الاقتضاء وانسجام الخطاب:٢٨-٣٥.

[2] الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:٢٦٥.

[3] ينظر في ذلك: الحجاج، مفهومه ومجالاته:١/١٧١.

التصنيفات المقترحة للأفعال اللغوية[١]؛ فالخطيب أو فاعل الحجاج ينجز بتوظيفه العلاقات الحجاجية في النص حدثا رئيسا هو إقناع المتلقي بفكرة ما أو تغيير قناعته تجاه ما يطرح من قبل آخرين[٢]، كما ينجز حدثا آخر عند التلفظ بجملة ما يتمثل بإيصال معنى أو مجموعة معانٍ إلى المتلقي؛ إذ لا نستطيع فهم دلالة النّص إلا بملاحظة مقتضاه الدلالي الذي يُفترَض أن يدركه المتلقي، وهذا الأمر يوضح أهمية دلالة (الاقتضاء) حجاجيا؛ وقد أشارت الدراسات الحجاجية إلى أنَّ كشف مقتضى النَّص يتم بوساطة إخضاع النَّص الحجاجي إلى ما يعرف باختبار (النفي والاستفهام)، وفيهِ يتم وضع أداة نفي أو أداة استفهام قبل جملة الحجاج، وإلحاقها بعبارة مثل(يقين قاطع) أو(من المحقق جدا) ذلك، فيكون المقتضى أنَّ من اليقين هو ما يذكرهُ النَّص من فكرة[٣]، ونحصل بذلك على إقرار المتلقي.

وأرى أنَّ دراسة المقتضى يجب أن لا تُغفل جهود علمائنا القدماء وتكتفي بالطريقة السابقة؛ إذ إنَّ(مقتضى النص) كما عرَّفه علماء العربية يعدُ من ضرورة اللفظ؛ فهو يرتبط بظروف إنتاج القول، ونكتشف بهِ مقام الخطاب، وقد مثّل لها الشريف الجرجاني(ت٨١٦هـ) بقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾[٤]، فهو"مقتضٍ شرعا لكونها مملوكة"(٥)، وأرى أنَّ من الأفضل المواءمة بين المنهجين مع التركيز على ما طرحه علماؤنا عند دراسة المقتضى وبخاصة إذا

---

[١] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٦.

[٢] ينظر: الخطاب، دورية أكاديمية تعنى ببحوث الأدب واللغة، العدد٣: ١٠٧.

[٣] ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٠٥-٣٠٦ .

[٤] النساء: ٩٢ .

[٥] التعريفات: ٢٢٤ .

علمنا أنّ الاختبار الذي أشارت إليه تلك الدراسات لا ينسجم بالضرورة مع جميع النصوص ولاسيما المبنية على المساءلة الحجاجية؛ ولأهمية مقتضى النص في دراسة الحجاج سندرسهُ مع بيان أثره في استعمال الأدوات الحجاجية والتراكيب النحوية، كما سندرس إلى جانبه المفهوم الدلالي من الخطاب أو النتيجة المطلوبة منه. ودراسة عوامل التوكيد في حجاج النهج ستكون في محاور متعددة منها:

أولا : التوكيد بالحروف :

وفيهِ جرى توكيد النص الحجاجي بأداة واحدة أو بأكثر من أداة، وأبرز صوره كانت بالأداة(إنّ)، وهي حرف ينصب الاسم ويرفعُ الخبر[1]، وورد التوكيد بها ضمن نصوص متعددة، منها قول الإمام علي(ع): "**وإنّ أعظمَ الخيانةِ خيانةُ الأمةِ، وأفظعَ الغشِّ غشُّ الأئمةِ**"[2].

وقد ورد ضمن عهد الإمام(ع) إلى بعض عمالهِ على الصدقات، فالتوكيد حصل بـ(إنّ) ومقتضى النص أن الولاة تحتاج مثل هذه الوصية، وأيُّ خيانة تعني خيانة الأمة بكاملها، والنص مكون من جملتين تمثلان حجتين تخدمان نتيجة مطلوبة من الخطاب الحجاجي هي حرمة أخذ الأموال بغير وجه حق، ومنه قوله(ع) في العهد نفسه:"**وإنّ لك في هذهِ الصدقة نصيبا مفروضا، وحقًا معلوما، وشركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة، إنّا موفوك حقَّك فوفِّهم حقوقهم**"[3]؛ ففي النص السابق جمل مؤكدة بـ(إنّ)، وهذهِ الجمل المؤكدة بـ(إنّ) تمثِّل تتابعا للحجج في النص السابق، وقد جرى توكيد النصوص لتخدم نتيجة رئيسة تمثل المفهوم الدلالي منها وهو النتيجة المتوخاة من الحجاج،

---

[1] الجنى الداني: ٣٩٣ .

[2] نهج البلاغة: ٦٠٤ .

[3] المصدر نفسه: ٦٠٤.

والمتمثلة في وجوب أداء الأمانةِ إلى الرعية بإعطائهم حقوقهم، وعدم خيانتهـا؛ فالحجة متقدمة تلتها نتيجة مقترنة بفاء الاستنتاج، وقـد اقترنـت كثيـر مـن النصوص في نهج البلاغة بروابط الاستنتاج أو السببية وهو ما يؤشـر أهميـة الربط النحوي في الخطاب الحجاجي؛ وقد أشارَ اللسـانيون إلـى أنّ للـروابط النحوية وظيفة رئيسة في تماسك النص؛ فقد عدَّ (ديبوجراند) (الرَّبط) من أهـم وسائل السبك النصي[١].

وعبَّرت بعض الدراسات النصية عن(الربط) النحوي بـــ(العطف)[٢]، وأرى أنَّ هذهِ الترجمة ربما توقعُ المتلقي في لبس؛ فقد يتبادرُ إلى ذهنهِ موضوع حروف العطف في العربية، والحال أنَّ المقصود بها أدوات ذات دلالات مختلفة، وأدوات العطف ليست إلا واحدة منها[٣].

ومن الأدوات التي أشارَ إليها(ديبوجراند) ضـمن أدوات الـربط أدوات التفريع أو الإتباع التي تربط بين عنصرينِ يعتمد أحدهما على وجـود الآخـر، وتتمثل في ما عبر عنه بالأدوات الدالة على(العلة، والسبب، والتمكين)[٤].

والملاحظ أنَّ الدراسات اللسانية النَّصية وعلى الرغم من تناولها الروابط النحوية إلا أنَّها لم تبحث الروابط(الحجاجية) على نحو مستقل بل تناولت أقسامها مجزأة ولم تجمعها في باب واحد، ومن ذلك ما نجـده فـي دراسـة الـدكتور مصطفى حميدة لنظام الربط في تركيب الجملة؛ فقد قدَّم جردا بالربط بـالأدوات

---

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٠١-٣٠٢ .

(٢) ينظر في ذلك: نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري: ٩٤ .

(٣) ينظر في ذلك: النَّص والخطاب والإجراء: ٣٤٦-٣٤٧ .

(٤) ينظر: النَّص والخطاب والإجراء: ٣٤٩، ونظرية علم النص،رؤية منهجية في بنـاء النص النثري: ٩٥.

تضمَّن الربط بأدوات العطف، وأدوات الشرط، وأدوات نصب المضارع، وغيرها[١]، وهذه الأقسام قد احتوت على بعض الروابط التي تستعمل في الخطاب الحجاجي من دون أن يجمعها الباحث بعنوان مستقل، ولكننا نجد في بعض الدراسات النَّصية بحثا لأنواع الروابط ومنها الروابط الشكلية – الدلالية[٢]، والتي ذُكِر أنَّها:"من أكثر الروابط أهمية في الدراسة النصية؛ فهي الروابط الأساسية التي تستعمل عادة في ربط النَّص، وعن طريقها يتم وصل أجزاء النَّص بعضها ببعض، وهي تمثل النسبة الكبرى في الروابط النَّصية"[٣]، وعُني بـ(الشكلية) أنَّ لها ظهورا في الجملة في مقابل الروابط(البيانية) التي ليس لها ظهور ماديٌّ في الجملة[٤]، ومثَّلت الروابط التركيبية التي درسها الأزهر الزناد أساسا لها وهي التي سماها(الروابط المنطقية)؛ لأنَّ الجمل تتماسك بها، وهي علامات على العلاقات القائمة بين الجمل[٥].

وأرى أنَّ هذهَ الأدوات هي أكثر الروابط ورودا في النصوص الحجاجية؛ فقد تضمنت هذه الروابط ثلاثة أقسام هي: الربط العطفي النسقي، والربط بأداة غير عاطفة(التعليل، والاستدراك، والغاية، والاستثناء، والظرفية، والشرطية، والتشبيه...إلخ)، والربط بلفظ أو شبه جملة أو جملة[٦].

---

(١) ينظر في ذلك: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية:٢٠٠-٢٠٢ .

(٢) ينظر: إشكالات النص، دراسة لسانية نصية:٣٠١ .

(٣) المصدر نفسه:الصفحة نفسها.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: هامش ٣٠١.

(٥) ينظر: نسيج النص:٣٧.

(٦) ينظر: إشكالات النص، دراسة لسانية نصية: ٣٠٣ .

وعلى الرغم من أهمية هذا التصنيف إلا أنَّ الباحث لم يفرد قسما منها بالبحث تحت عنوان "الروابط الحجاجية"؛ وإن كان الربط بأداة غير عاطفة وهو القسم الثاني من تصنيفه قد تضمّن معظم الروابط التي تربط بين أجزاء النص الحجاجي، وأرى أنَّ ذلك يعود لعدم معرفة الباحث بمفهوم الحجاج ومجالاته فضلا عن اختلاف ميدان بحثه عن الدراسات الحجاجية وآليات الخطاب الإقناعي.

وذكرت في الفصل الأول أنّ دراسة الروابط الحجاجية كانت على يد (ديكرو)؛ فقد فرّق بين صنفين من الأدوات الحجاجية، هما (الروابط الحجاجية)، و(العوامل الحجاجية)[١].

والروابط الحجاجية هي: "جملة من الأدوات توفرها اللغة ويستغلها الباث؛ ليربط بين مفاصل الكلام ويصل بين أجزائه فتتأسَّس عندها العلاقة الحجاجية المقصودة التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية لتضطلع الحجة بدورها كاملا لا نقص فيهِ"[٢].

فوظيفة الروابط الحجاجية الربط بين الحجج، أو بين الحجج والنتائج، وتسندُ إلى كل قول منها دورا محددا داخل الستراتيجية العامة للنص[٣].

وقد أشرت إلى أهمية دراسة الروابط الحجاجية ضمن التراكيب التي ترد فيها، ومنها قوله(ع) في كتابٍ إلى عمرو بن العاص: "**فإنّك جعلت دينَكَ تبعا**

---

[١] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٦٤.

[٢] الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٣١٨ .

[٣] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/٦٣ .

لدنيا أمرئ ظاهر غيُّه، مهتوكٍ ستره، يشينُ الكريم بمجلسه، ... فأذهبت دنياكَ وآخرتكَ"[١].

فقد افتتح الإمام حجاجه الموجَّه إلى ابن العاص ومن تبع معاوية بالأداةِ (إنَّ) وكان اسمها ضميرا متصلا، وخبرها جملة فعلية، والنص الحجاجي تضمَّنَ نتيجة مصرّحا بها تمثَّلت بدخول فاء الاستنتاج عليها وهي ضياع دنياه ودينه، ومقتضى الخطاب أنَّ من المؤكد أنَّ إتباع معاوية يوجب خسرانَ الدنيا والآخرة.

ومن التوكيد المقترن برابط الاستنتاج الذي يعني الانتقال من الحجة إلى النتيجة بطريقة منتظمة[٢]، قوله(ع) لأصحابهِ عندما أشاروا عليهِ بحرب الشام بعد إرسالهِ جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية:"إنَّ **استعدادي لحرب أهل الشام وجريرٌ عندهم إغلاق للشام، وصرفٌ لأهلهِ عن خيرٍ إن أرادوه، ولكن قد وقَّتُ لجرير وقتا لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً، والرأي مع الأناة، فأرودوا، ولا أكرهُ لكم الإعداد**"[٣]، فقد وردَ التوكيد بـ(إنَّ)، واسمها وخبرها مفردان، كما وظَّف الإمام حجة أخرى وردت بصيغة الجملة الاسمية، هي : الرأي مع الأناة، وأشارَ العلماء إلى إنَّ الجملة الاسمية تدل على ثبات الصفة وقوة رسوخها بخلاف الجملة الفعلية[٤]، ثم اتبع الحجتينِ النتيجة مقترنة بفاء الاستنتاج التي تدخل على النتيجة أو المفهوم الدلالي.

---

[١] نهج البلاغة: ٦٤٠ .

[٢] ينظر: الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه: ٣٣٩.

[٣] نهج البلاغة: ١٤٩-١٥٠ .

[٤] ينظر: دلالة الجملة الاسمية في القرآن الكريم: ٥٦-٥٩ .

والملاحظ أنَّ النحاة أو اللغويين لم يشيروا إلى معنى "الاستنتاج" ضمن معاني الفاء[1]، وإنما جاءَ هذا المعنى في الدراسات الحجاجية التي تناولت أنماطا متعددة للاستنتاج الحجاجي[2]؛ وورد منها في نهج البلاغة فاء الاستنتاج .

ومنه قوله(ع) عند سيرِ أصحاب الجمل إلى البصرة:"**إنَّ الله تعالى بعث رسولاً هادياً بكتابٍ ناطقٍ وأمرٍ قائم، لا يهلكُ عنه إلا هالك، وإنَّ المبتدعاتِ المشبهاتِ هُنَّ المهلكاتُ إلا ما حفظ الله منها، وإنَّ في سلطانِ اللهِ عصمةً لأمرِكُم، فأعطوهُ طاعتكم غيرَ مُلَوَّمة، ولا مُستكرَه بها**"[3]؛ ففي النص الحجاجي نرى حججا متتابعة وكلها مؤكدة بـ(إنّ)؛ لتخدم نتيجة تمثل المفهوم الدلالي من النص هي وجوب طاعة (سلطان الله)؛ لما فيهِ من العصمة، أمَّا مقتضى الخطاب فيتمثل في أنَّهُ(ع) يمثل سلطة الحق التي عبر عنها الإمام خير تعبير بـ(سلطان الله) وينبغي اتباعها كما أنَّ الخطاب يقتضي أيضا وجود جماعةٍ تعارضُ سلطةَ الإمام وهي في واقعها تعارض (سلطانَ الله) بملاحظة أنَّ الإمامة (منصبٌ إلهي).

ومن أبرز الروابط الحجاجية المقترنة بالتوكيد بـ(إنّ) رابط السببية المتمثل بالفاء، والملاحظ أنَّ النحاة ذكروا هذا المعنى من معاني الفاء[4]، إلا أنَّهم لم يتناولوه بحسب فكرة الحوار الإقناعي التي يحملها النص، والذي تحمل فيه(فاء السببية) مع النص المؤكَّد بـ(إنّ) طاقة حجاجية عالية؛ لأنَّها تقدم النتيجة

---

(1) ينظر على سبيل المثال:الجنى الداني:٦١-٧٨، ورصف المباني:٣٧٦-٣٨٨.

(2) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٣٤٠-٣٤١ .

(3) نهج البلاغة:٤٠٩-٤١٠ .

(4) ينظر على سبيل المثال: مغنى اللبيب: ١٦٣ .

المطلوبة ومن ثم نلحقها بالحجّة أو الحجج فتكون مدعاة لإلزام المتلقي بقبول الأطروحة المعروضة أو أن يزيدَ اقتناعه بها .

ومن التوكيد المقترن بفاء السببية قولهُ(ع) لعبد الله بن عباس لما بعثَهُ للاحتجاج على الخوارج:"**لا تخاصِمْهُم بالقرآن فإنَّ القرآن حمّال ذو وجوهٍ تقولُ ويقولون، ولكن حاجِّهم بالسُّنَة فإنَّهم لن يجدوا عنها محيصاً**"[1]؛ ففي هذا النص الحجاجي وردت حجتان مؤكدتان بـ(إنّ) الأولى تتعلق باحتمال القرآن أوجه متعددة والأخرى تتعلق بفقدان مهرب للخوارج عند حوارهم بالسنة وفي كلا الموضعين اقترن الحجاج بفاء السببية؛ والمفهوم الدلالي من النص واضح في المحاجة بسُنّة الرسول(ص) وترك حجاج الخوارج بالقران، أمّا النص فيقتضي أنّ الحجاج بالقران لا يأتي بنتيجة مع الخوارج؛ لأنهم في ما يظهر لي من قرّاء القرآن، ومن طبيعة القارئ الاطلاع على بعض تأويلات القرآن، والقرآن الكريم يحتمل أكثر من وجه دلاليّ في تفسيره فسيكون من الصعب إقناعهم في وقت كانت الحرب فيه مشرعة مع الخوارج.

ومنه قوله(ع) في خطبة له مبيّنا فتنة بني أمية:"**ألا وإنَّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنةُ بني أمية، فإنّها فتنةٌ عمياءُ مظلمةٌ، عمّت خطّتها، وخصّت بليتُها**"[2]، فقد تكرر في النص الحجاجي في جانبيه(النتيجة، والحجة) استعمال المؤكدات؛ إذ أكد الإمام النتيجة التي تمثّل المفهوم من النص بـ(ألا) التي تفيد التنبيه، وتدل على تحقيق ما بعدها[3]، ودخلت(فاء السببية) على الجملة التي مثّلت حجّة وهي مؤكّدة بـ(إنّ) واسمها ضمير وضميرها مفرد، ومقتضى النص

---

[1] نهج البلاغة:٧٠٩ .

[2] المصدر نفسه:٢٤٧ .

[3] ينظر:الأزهية في علم الحروف:١٧٤، ومغني اللبيب: ٧٣ .

يتمثل في وجود جماعة كانت تعارض ما يطرحهُ الإمام وهذه المعارضة ستقود إلى سقوط الخلافة الشرعية فأتى من أجل ذلك بالتوكيد بـ(إنّ) مع(أَلا) في النتيجة المتقدمة التي ارتبطت بالحجة المؤكدة بفاء السببية، والإمام يوجّه خطابه إلى الجمهور من خاص وعام؛ ففيه من لم يعاصر الإمام لكنه سيعاصر حكم بني أمية، وبذلك سيكون الحجاج إقناعيا، واقتناعيا في الوقت نفسه بحسب تقسيم (برلمان وتيتيكاه)[1].

وقد تكرر ورود (فاء السببية) مقترنة بـ(إنّ) بكثرة في موضعين هما وصيتهُ إلى الإمام الحسن(عليهما السلام) التي كتبها عند انصرافهِ من صفين، وعهدُه لمالك الأشتر عندما ولّاه مصر فمن الأول قوله(ع):"**وأمسك عن طريق إذا خفتَ ضلالته؛ فإنّ الكفَّ عند حيرة الضّلالِ خيرٌ من رُكوب الأهوال**"[2]، وهنا نلحظُ دخول الفاء على الجملة التي مثّلت حجة، والمفهوم الدلالي واضح في لزوم الابتعاد عن طرق الضلال، ومنه قوله(ع):"**ألجئ نفسَكَ في الأمورِ كلِّها إلى إلهكَ؛ فإنَّكَ تُلجئُها إلى كهفٍ حريزٍ**"[3]، فدخلت فاء السببية على الحجة وقبلها النتيجة المطلوبة وكان اسم(إنّ) ضميرا وخبرها جملة فعلية، والمفهوم الدلالي من النص المتمثل في النتيجة هو ضرورة الالتجاء إلى الله تعالى، ومنه قوله(ع) للإمام الحسن:"**وإن استطعتَ ألاّ يكونَ بينَكَ وبينَ الله ذو نعمةٍ فافعلْ؛ فإنَّك مدرِكٌ قِسمَكَ، وآخذٌ سهمَكَ، وإنّ اليسيرَ من الله سبحانَهُ أكرمُ وأعظمُ من الكثيرِ من خلقهِ، وإن كان كلٌّ منه**"[4]، ففي النص مضامين عالية من التوكل

---

[1] ينظر:أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠١ .

[2] نهج البلاغة: ٦١٦ .

[3] المصدر نفسه: ٦١٦-٦١٧ .

[4] المصدر نفسه: ٦٢٧-٦٢٨ .

على الله تعالى في الأمور كلِّها، وعدم الالتجاء إلى من يُتصوَّرُ أنَّهُ يستطيع أن يحول دون أمر الله وبخاصة الظالمينَ، فلا يصح للمؤمنِ أن يضع نفسه في موضع الطالبِ استعطاف الآخرين، وإن كانَ المعطي والواهب حقيقة هو الله تعالى سواء أكانَ العطاء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة.

ومن اقتران (فاء السببية) بـ(إنَّ) في عهدِ الإمام مالك الأشتر، قوله(ع):"**أنصفِ اللهَ وأنصفِ الناس من نفسِكَ، ومن خاصةِ أهلِكَ، ومن لكَ فيهِ هوًى من رعيتِكَ؛ فإنَّكَ إلاَّ تفعلْ تظلِمْ، ومن ظلمَ عبادَ الله كان الله خصمَهُ دونَ عبادهِ، ومن خاصمَهُ الله أدحضَ حجّتَهُ، وكان للهِ حربا حتى ينزعَ ويتوبَ**"[1].

ففي النص الحجاجي نتيجة متقدمة تمثل المفهوم من النص وهو وجوب إنصاف الحاكم رعيته وتلتها فاء السببية الداخلة على الحجة المقترنة بـ(إنَّ)، وبنيت الحجة بتداخل أداة التوكيد(إنَّ) مع(إن) الشرطية المقترنة بـ(لا) النافية، مع تتابع في الحجج يخدمُ النتيجة المطلوبة، ونرى أنَّ الحجج هذهِ تمثل(سلّما حجاجيا)، وهو ما تحدثتُ عنه في الفصل الأول؛ فالسلم الحجاجي"علاقة ترتيبية للحجج"[2]، ونرى الحجج متسلسلة في النص فعدم الإنصاف يعني الظلم، والظالم خصم لله تعالى، ومن خاصم الله دحض الله حجّته.

ومنه قوله(ع) في عهده للأشتر:"**شَرُّ وزرائِكَ من كان للأشرار قَبْلَكَ وزيرا، ومن شَرِكَهم في الآثامِ، فلا يكونَنَّ لكَ بطانة؛ فإنَّهم أعوانُ الأثمةِ، وأخوانُ الظلَمةِ، وأنتَ واجدٌ منهم خيرَ الخلفِ ممن له مثلُ آرائِهم ونفاذهم، وليس عليهِ مثلُ آصارِهم وأوزارِهم وآثامهم**"[3]؛ فالمفهوم الدلالي من النص

---

(1) نهج البلاغة: ٦٦٣ .

(2) الحجاج، مفهومه ومجالاته:٥٩/١.

(3) نهج البلاغة:٦٦٥ .

يكمن في عدم الاستعانة بمن كان عونا للظالمينَ في آثامهم مع توكيد لذلك المفهوم بنون التوكيد الثقيلة، ثم دخلت فاء السببية على سلسلة من الحجج أولهما ما كان مؤكدا بـ(إنّ) وأتبعها بحجة هي وجود خير من أعوان الظلمة ممن على بصيرة من أمره، ولم يكن معينا الظالمين، ومقتضى النص أن من كان قبل الأشتر ظالما للرعية، وهذا الظلم يستلزم رفعه وإعادة الحقوق لأهلها.

ومنه قوله(ع):"**ولا يكونَنّ المُحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سواءٍ؛ فإنّ في ذلك تزهيدا لأهل الإحسانِ في الإحسانِ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءةِ، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه**"[1]؛ ففي النص الحجاجي نتيجةٌ مطلوبة من المخاطب مؤكدة بنون التوكيد هي عدم مساواة المحسن بالمسيء مع توكيد للحجةِ التي تلتها بـ(إنّ)؛ فذلك يؤدي إلى ترك المحسن للإحسان وحث للمسيء على الإساءة.

وهكذا نلحظُ في الأمثلة المتقدمة اقتران رابط الحجاج السببي بالجمل المؤكدة، وأرى أنّ ورودها بكثرة في وصيته للإمام الحسن(ع) وفي عهده لمالك الأشتر هو بسبب مقام الخطاب في كلا النصينِ، ففي الأول الخطاب من(الوالد الفان)- كما عبّر الإمام عن نفسهِ- إلى ولده الحسن(عليهما السلام) ومنه إلى كل شخص تغريه الدنيا، فكان الحجاج موجّها لتبصيرهِ مآل الدنيا، وحثهِ على مكارم الأخلاق، والتقوى، وتذكيرهِ بالموت مع وصايا شتى، وقد تتولد لدى المتلقي تساؤلات عن ما يريدهُ الإمام فكانت الحجج مقترنة بفاء السببية في سياق التوكيد محاولة للإجابة عن هذهِ التساؤلات.

---

[1] نهج البلاغة: ٦٦٥-٦٦٦ .

والأمر نفسه ينطبق على عهد الإمام لمالك الأشتر؛ فهو والٍ أرسله الخليفة إلى ولايتهِ، فزوَّدَهُ بكتابٍ ضمَّنهُ خصائص الحكم العادل، وأرى أنَّ هناك جمهورا كونيا مخاطبا بهذينِ العهدين، فالحجاج فيهِ اقتناعي؛ إذ لا يقتصر الأمر على الجمهور الخاص بل الهدف إقناع الجمهور الكوني بما ورد بهما.

ومن الظواهر الحجاجية المرتبطة بالتوكيد بـ(إنَّ) دخول الأداة(ألا) عليها، وقد ذكر النحاة أنَّها تكون:"للتنبيه فتدل على تحقيق ما بعدها"[1]، وتكررت في نصوص متعددة منها، قوله(ع) في كتاب إلى عثمانَ بن حنيف وهو عامله على البصرة وقد بلغَهُ أنَّهُ دُعيَ إلى وليمةِ قوم من أهلها:"**ألاَ وإنَّ لكلِّ مأموم إمَامًا يقتدي بهِ ويستضيءُ بنورِ علمه، ألاَ وإنَّ إمامَكم قد اكتفى من دُنياه بطمريهِ، ومن طُعمهِ بقرصيهِ، ألا وإنَّكم لا تقدِرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفةٍ وسَدَاد**"[2]، ففي النص كرَّر الإمام استعمال(ألا) مع(إنَّ) في حجج متلاحقة تخدم نتيجة مطلوبة هي لزوم إعانة ولي الأمر بالعمل الصالح، والعفة وبخاصة فيما يتعلق بأموال الرعية.

ومن التوكيد المقترن بـ(ألا) قوله(ع):"**ألا وإنَّ الشيطانَ قد جمع حزبَه، واستجلبَ خيلَهُ ورَجلَهُ، وإنَّ معي لبصيرتي ما لبَّستُ على نفسي، ولا لُبِّسَ عليَّ**"[3]، والنص أعلاه وردَ في خطبة له(ع)، وقد أكَّد حجاجه بـ(ألا)، و(إنَّ)، والنص يقتضي أنَّ من اليقين القاطع تجسُّد الشيطان في أعدائه، وهذا يقتضي حرمة تأييد أعدائه بأيِّ صورة كانت، ومع الإمام في مقابلهم بصيرته التي معه

---

(1) مغني اللبيب: ٧٣ .

(2) نهج البلاغة: ٦٤٨ .

(3) المصدر نفسه: ٩٠ .

منذ زمن الرسول(ص) فلم يضل كما ضلّ غيره من تلقاء نفسهِ أو بإضلال غيرهِ له[1].

والملاحظ أنّه في هذه الأمثلة وغيرها قد زيدت الواو في سياق(ألا) الداخلة على(إنَّ)، ولم يشر النحاة إلى دخولها على الجملة المؤكدة المسبوقة بالواو[2]، ويبدو أنَّ الغرض من استعمال الواو هو المبالغة في توكيد مضمون الجملة لما ألمحه من مشابهة هذه الواو لأسلوب القسم بالواو وبذلك يكون الغرض هو ترسيخ مفهوم النص.

أنتقل بعد ذلك إلى أداة أخرى وردت في النصوص الحجاجية مفيدة معنى التوكيد، وهي(قد)، وذكر النحاة لـ(قد) معاني متعددة منها(التحقيق)[3]، أو هي بمعنى(إنَّ)[4]، ورأى الرَّضي(ت٦٨٦هـ) أنَّ(قد) إذا دخلت على الماضي أو المضارع فلابد فيهِ من معنى التحقيق، وقد تزاد على هذا المعنى معانٍ أُخَر[5].

واقترنت(قد) برابط السببية(الفاء) في نصوص متعددة، منها قوله(ع) لعقيل بن أبي طالب في كتابه له:"**فجزت قريشا عنى الجوازي؛ فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن أمي**"[6]؛ ففي النص حجتين وقعتا بعد فاء السببية واقترنتا بـ(قد) وتخدمان نتيجة أرادها الإمام هي إقناع المتلقي بتعرضه للظلم

---

[1] ينظر: نهج البلاغة،شرح الشيخ محمد عبده:١/٢٣٩ .

[2] ينظر على سبيل المثال: رصف المباني:٧٨، والجنى الداني:٣٨١، وشرح الرضي على الكافية:٤/٤٢١.

[3] ينظر في ذلك: الجنى الداني: ٢٥٩ .

[4] ينظر: الأزهية في علم الحروف: ٢٢١ .

[5] ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤/٤٤٤-٤٤٥ .

[6] نهج البلاغة: ٦٣٧ .

من قبل قريش، وهذا الظلم تركّز في جانبينِ هما حربه، وسلبهم إياه خلافة رسول الله حتى إذا اختارَه جمهورُ المسلمين بدأت قريش تتحرك لإسقاط خلافته(ع)، وعبَّر عن الخلافة بـ(أنها سلطان ابن أمي)؛ لأنَّ رسول الله قال عن فاطمة بنت أسد:"كنتِ أمي بعد أمي"[1]؛ فالخلافة بما هي امتداد لقيادة النبي للمسلمين هي حق لمن يخلفه، وقد استعمل الإمام صيغة الدعاء لبيان ما تعرضَّ إليه من ظلم، والملاحظ أنَّ الإمام قدَّم قطيعة الرحم على سلبه حقَّه في الخلافة وفي هذا إشارة إلى أنَّ قضية الخلافة لم تكن تشغل ذهن الإمام(ع) بقدر ما شغله سلوك قريش معه الذي انتهى بهم إلى حربه.

ومن الحجاج المقترن بـ(قد) ما جاءَ في كتاب له إلى أهل مصر لما ولَّى عليهم مالك الأشتر:"**أمَّا بعد، فقد بعثتُ إليكم عبدا من عبادِ الله عزَّ وجلَّ، لا ينامُ أيام الخوف، ولاَ ينكُلُ عن الأعداء ساعاتِ الروع، أشدَّ على الفُجارِ من حريق النَّارِ، وهو مالك بن الحارثِ أخو مَذحِجٍ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابقَ الحق**"[2]، وافتتح الإمام حجاجه بالتوكيد بـ(قد) التي تصدرت سلسلة من الحجج الواقعة في جواب(أمَّا) التي تحمل معنى الشرط[3]، وقد أراد الإمام بها الوصول إلى نتيجة مطلوبة من الجمهور الخاص المخاطب وهي طاعة الوالي الجديد، وتضمن النص الحجاجي حالة من حالات(السبك النحوي) هي التوازي التركيبي، "أي تكرار نفس البنية التركيبية مع ملئِها بمحتوى مختلف"[4]، وتجسَّد التوازي التركيبي في قوله(ع):لا ينامُ أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء؛

---

(1) المناقب:٤٧، وينظر في ذلك: كنز العمال:١٢/١٤٧ .

(2) نهج البلاغة:٦٣٩.

(3) ينظر: الجنى الداني: ٥٢٢ .

(4) نظرية علم النَّص:١٠٠، وينظر في ذلك:مدخل إلى علم لغة النَّص:٨٧.

فالجملتان منفيتان بـ(لا)، وفعلهما مضارع، ووردتا في سياقٍ واحد، والمفهوم واضح هو وجوب طاعة الأشتر لما يملكه من صفات.

ومن الحجاج المؤكّد بـ(قد) قوله(ع) في خطبة له في استنهاض الناس بعد أن غزا جيش معاوية الأنبار:"**وهذا أخو غامدٍ قد وردت خيلُهُ الأنبار. وقد قتل حسّان بن حسّان البكريّ، وأزالَ خيلكُم عن مسالحِها، ولقد بلغني أنّ الرجلَ منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فيتنزعُ حجلَها، وقُلبَها، وقلائدها ورِعاثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ....، فلو أنّ امرءا مُسلما مات بعد هذا أسفا ما كان بهِ ملوما بل كان بهِ عندي جديرا**"[1]؛ ونلحظ استعمال(قد) بصورة مكررة لتوكيد الحجاج الذي يريده الإمام للوصول إلى النتيجة المطلوبة وهي ضرورة الوقوف بوجه معاوية وأتباعه؛ ومقتضى النص أنّ القوم وصل بهم التخاذل إلى أن يكونوا(غرضا يُرمى) وأنّ الموت لهم خير من الحياة التي تهان فيها الأعراض وتستباح المقدسات.

وذكر النحاة أنّ(قد) الداخلة على الفعل الماضي تقترن بـ(اللام)، ورأوا أنّها لام جواب القسم، وأجاز بعضهم أن تكون لام الابتداء[2]، واقتران اللام بـ(قد) فيه زيادة في التوكيد؛ إذ كل واحد منهما مؤكِّد[3]، وهذا الأمر يعطي دفعا لحجاجية النص، ووردت(قد) مقترنة بـ(اللام) في النص الحجاجي الذي يقول فيهِ الإمام عند إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى الشام:"**ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينه، وقلبتُ ظهرَهُ وبطنه فلم أرَ لي إلاّ القتالَ أو الكفر**"[4]؛ ففي النص

---

[1] نهج البلاغة: ١٢٠-١٢١.

[2] ينظر في ذلك: الجنى الداني:١٢٥ .

[3] ينظر: حاشية الدسوقي على المغني:١/٤٧٦ .

[4] نهج البلاغة:١٥٠ .

الحجاجي استعمل الإمام(لقد)؛ لبيان طول تفكرهِ(ع) في أمرِ أهل الشام معبّرا عن ذلك بقولهِ: ضربتُ .. الخ، وهو مثل يضرب للدلالة على طـول التفكـر فـي الأمر[1]، وقد عزّز فكرته بضرورة التصدي لمعاوية وأتباعه بالتوكيد بالقصر؛ فالإمام وصل إلى نتيجة هي إما أن يقاتلهم وإما أن يتركَ قتالهم وهـو الكفـر؛ نظرا لما يمثله معاوية وأتباعه من خروج عن الدين.

ومن أدوات التوكيد التي نصّ عليها النحاة(نونا التوكيـد)[2]، والتوكيـد بالنون الثقيلة أشدُّ من الخفيفة، ورأى الكوفيون أنّ الخفيفة فـرعٌ عـن الثقيلـة ومخففةٌ عنها بخلاف البصريين[3]، واختصتا بالأفعال الدالة على الاستقبال والتي تحمل معنى الطلب؛ لذا لم تدخل على الحال والماضي[4].

وورد التوكيد بالنون في نصوص حجاجية عديدة جاءت مؤكّدة بـالنون الثقيلة، منها في وصيته(ع) لعمالهِ علـى الصـدقات:"**لا تُروعنّ مُسـلما، ولا تجتازنّ عليه كارها، ولا تأخُذنّ منه أكثر من حقّ الله في ماله**"[5]، ففي الـنص توكيد بالنون الثقيلة لمفهوم دلالي يريده الإمام، والحجّة فيه مضـمرة تسـتطيع استنتاجها مع مقام الخطاب؛ فالخطاب وصية لولاة الأمور، وتنطلق تلك الوصية من مسلّمة عقلية هي لزوم خدمة الرعية بغير تسلُط ؛ فلا يجوز ترويعهم، وأخذ المال منهم بغير وجه حق، ويستمر الإمام في حجاجه المؤكد بـ(نون التوكيـد)

---

[1] ينظر: مجمع الأمثال: ١/٤٢٠ .

[2] ينظر: المفصّل في صنعة الإعراب: ٤٣١ .

[3] ينظر: همع الهوامع: ٤/٣٩٧ .

[4] ينظر: المقتصد في شرح الإيضاح: ٢/١١٢٩، وشرح الرضـي علـى الكافيـة : ٤/٤٨٤.

[5] نهج البلاغة: ٦٠١ .

قائلا:"**ولا تنفرنَّ بهيمةً ولا تفزِعَنَّها، ولا تَسُوءَنَّ صاحبَها فيها**"[1]؛ فالإمام أكَّد نتيجة الخطاب الحجاجي بنون التوكيد الثقيلة المقترنة بلا، ويستمر الإمام في ذكر صفات الأنعام المأخوذة حقوقا شرعية لبيت المال ومؤكدا تلك المفاهيم بنون التوكيد ويعلل ذلك بذكر الحجَّة النهائية في النص بقولهِ:"**حتى تأتيَنا بإذنِ الله بُدناً مُنقيَاتٍ، غيرَ متعباتٍ ولا مجهوداتٍ؛ لنقسمَها على كتابِ الله وسنةِ نبيِّهِ(ص)**"[2]، فالإمام أرادَ منه أن يأتي بها سليمات لتُضمَّ إلى بيتِ المال، ومقتضى النص أنَّ العمال يحتاجون هذه الوصايا مهما كانوا حذرين؛ لوجود من يخون الأمانة فيهم أو من يجهل كيفية أخذ الحقوق الشرعية ولاسيما من الأنعام، والإكثار من توظيف التوكيد يعكس حرص الإمام على أداء الأمانة المنوطة بالعمال على أتمِّ وجه .

ومن النصوص المهمة المتضمنة التوكيد بالنون الثقيلة، وصيتهُ للإمام الحسن؛ إذ جرى توكيد مفاهيم دلالية متعددة فيها بنون التوكيد، كقولهِ(ع):"**ولا تضيعنَّ حقَّ أخيكَ اتكالاً على ما بينك وبينه؛ فإنَّه ليس لك بأخٍ من أضعتَ حقَّهُ**"[3]؛ إذ أكَّد الإمام النتيجة المطلوبة وهي عدم إضاعة ما للأخوة من حقٍّ بنون التوكيد مع توكيد الحجَّة في النص بـ(إنَّ)، ومنه قولهُ(ع):"**ولا ترغَبَنَّ فيمن زهد فيكَ، ولا يكونَنَّ أخوكَ أقوى على قطيعتِكَ منك على صلته، ولا تكونَنَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسانِ، ولا يكبُرَنَّ عليكَ ظلمُ من ظلمكَ؛ فأنَّهُ يَسعى في مضرَّتهِ ونفعِكَ**"[4]، ففي النص السابق من الوصية مفاهيم جرى

---

(1) نهج البلاغة: ٦٠١

(2) المصدر نفسه: ٦٠٣ .

(3) المصدر نفسه: ٦٣٠ .

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

توكيدها بالنون الثقيلة، والملاحظ أنَّ الخطاب الحجاجي بنيَ على نتائج مطلوبة من المتلقي والحجّة فيها مضمرة إلا فيما يتعلق بالتغاضي عن ظلمِ من يظلمك؛ فقد تقدمت النتيجة المطلوبة ثم جرى توكيد الحجة بـ(إنَّ) المقترنة بفاء السببية، وأرى أنَّ ذكر الحجة في هذا الموضع كان بسبب النتيجة المطلوبة؛ إذ تثير تساؤلا عند المتلقي؛ لأنَّ الإمام يطلب عدم إعطاءِ الظلم أهمية، وهنا سيكون غرض الحجاج الإجابة عن تساؤل حقيقته الرفض لهذا الطلب إن لم تذكر معه الحجّة التي تعضّده.

والملاحظ أنَّ النصوص الحجاجية المؤكدة بالنون خلت في معظمها من ذكر الحجج فكانت بصيغة النهي من غير تعليل بخلاف التوكيد بـ(إنَّ) الذي برزت فيه الحجة ضمن الحوار الإقناعي، وأرى أنّ سبب ذلك يعود إلى ارتباط نون التوكيد بصيغ الطلب أو النهي المرتبط بالمستقبل بخلاف التوكيد بـ(إنَّ) فإنّ وروده كان في الجمل الخبرية، وقد سُبقت نون التوكيد في الأمثلة التي درستها بـ(لا) الناهية، وهذا التوكيد كثيرٌ في المضارع الذي يرد في سياق الطلب[1]؛ لذلك سبقت بـ(لا) الناهية في معرض الإرشاد والنصيحة لعماله ولابنه الحسن(ع)؛ لما له من منزلة الموجّه للجمهور المتلقي، وما يريده الإمام هو تأكيد ما ينهاهم عنه وبخاصة إذا علمنا أن توكيد المضارع المنهي عنه هو من مواضع جواز التوكيد بالنون[2]؛ لأنّه مخصص بما ينهى عنه في المستقبل بحسب انصراف التوكيد بالنون إلى ما يدل على الاستقبال.

---

(1) ينظر: شرح الرضي على الكافية:٤/٤٨٤-٤٨٥.

(2) ينظر في ذلك: الجنى الداني :١٤٣.

ثانيا: التوكيد بالقسم

التوكيد بالقسم من أهم أنماط التوكيد، قال سيبويه في ذلك:"اعلم أنّ القسمَ تأكيدٌ لكلامِك"[1]، وللقسم حروف خاصة، يقول سيبويه:"وللقسم والمقسم بهِ أدواتٌ في حروف الجرِّ وأكثرها الواو ثم الباء يدخلان على كل محلوفٍ بهِ ثم التاء ولا تدخل إلا في واحد وذلك قولك: والله لأفعلَنّ وبالله لأفعلَنّ، و ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[2]"[3].

ويتكون تركيب القسم من جملتين، هما جملة القسم وجملة الجواب وتتنزلان منزلة جملة واحدة، يقول الزمخشري(ت٥٣٨هـ):"ومن شأن الجملتين أن تتنزلا منزلة جملة واحدة كجملتي الشرط والجزاء"[4]؛ والملاحظ أنّ جملة القسم تتكون من ثلاثة أقسام، فإن كانت مصدرة بحرف القسم تتكون من: حرف القسم، والمقسم بهِ، والمقسم عليهِ[5]، وإن كان القسم بالجملة الفعلية أو الاسمية، فيكون مكونا من الجملة المؤكِّدة، نحو :أقسم، والجملة المؤكَّدة وهي المقسم عليها، والمقسم بهِ[6].

والمُقسَم بهِ هو عنصر التوكيد في جملة القسم، والمقسم عليهِ يمثل جملة جواب القسم، وهو ما يراد توكيده، ويكون فيها في الإيجاب(إنّ واللام)، نحـو:

---

[1] الكتاب:١/٤٥٤ .

[2] الأنبياء: ٥٧ .

[3] الكتاب: ٢/١٤٣ .

[4] شرح المفصل: ٩/٩٠ .

[5] ينظر: الدلالة والتقعيد النحوي: ٣١٣ .

[6] ينظر: شرح المفصل: ٩/٩٣ .

والله إنَّ زيدا قائم، وفي النفي(ما، ولا)، نحو: والله ما يقوم زيد[1]، وقد عبَّر المبرد(ت٢٨٥هـ) عن هذهِ الأدوات بـ(وصلة للقسم)؛ "لأنَّ للقسم أدوات تصله بالمقسم بهِ، ولا يتصل إلا ببعضها"[2].

والقسمُ عند البلاغيين العرب من أقسام الإنشاء غير الطلبي[3]، التي قيل عنها:"إن أكثرها في الأصل أخبارٌ نُقِلت إلى معنى الإنشاء"[4].

وذكر النحاة أنَّ القَسَم على ضَربينِ، الأول: قسم الطلب، وهو ما يجاب بأمرٍ أو نهي، أو استفهام، ويجاب بإلاَ، ولمَّا، ويقال فيهِ أيضا : لتفعلَنَّ، والآخر: قسم الإخبار: وهو ما قُصِدَ بهِ تأكيد جواب القسم بأدوات التوكيد[5].

وهنا نرى أنَّ القسم لا يعد أسلوبا خبريا في مجملهِ أو أسلوبا طلبيا؛ وقد طرحَ بعض الباحثين تساؤلاً عن اعتبارِ القسم خبرا أو أنشاء، فبعد أن درس أنماط القسم الواردة في كتاب سيبويه توصَّل إلى نتائج مهمة تمثل بحسب ما يبدو لي منطلقاً في الدراسات الحجاجية؛ لأن القسم عامل مهم في انجاز فعل الحجاج وليس إخبارا؛ فالتوكيد يشترك مع عناصر الخطاب في إنجاز إقناع المتلقي، ونلخص ملاحظاته بما يأتي[6]:

---

(١) ينظر: المقتصد في شرح الإيضاح: ٨٦٥/٢، والدلالة والتقعيد والنحوي: ٣١٤ .

(٢) المقتضب: ٣٣٤/٢ .

(٣) ينظر: الشرح المختصر: ١٩٢ .

(٤) المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

(٥) ينظر :شرح الرضي على الكافية: ٣٠٨/٤، والأساليب الإنشائية في النحو العربي: ١٦٥-١٦٦.

(٦) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ١٠٩ .

١. إنَّ سيبويه قد يُفهَم عنه بالاقتضاء أنَّ القسم في حد ذاتهِ ليس خبرا، وذلك من مقابلتهِ بعض ألفاظ القسم بألفاظ الخبر، مثل: يعلمُ الله لأفعلَنَّ، فالقسم هنا شبيه بالدعاء الذي يُنجز بوساطة بعض ألفاظ الخبر التي يدخلها معنى الدعاء، مثل : "يرحمُكَ الله"[1]؛ فاللفظ لفظ خبر إلا أنّه استعمل في انجاز حدث معين.

٢. من القسم ما يكون طلبيا، وأشارَ إليه صراحة، كقولنا: "أقسمتُ عليك إلاَّ فعلتَ"[2].

٣. عدَّ سيبويه جواب القسم(الإيقاعي) الأولي من نوع (والله) والصريح مثل:(أقسم)، وجواب القسم(الطلبي) كليهما من(غير الواجب)، وذلك في حال اتصاله بالنون الثقيلة أو الخفيفة، وكأنَّ أصل المقسم عليهِ أن يكون(غير واجب)؛ إذ التركيب الأصلي للقسم لا يخلو من اتصال جوابهِ بالنون الثقيلة أو الخفيفة، فتركيب القسم يأتي على "نية اليمين وإن لم يُتكلَّم بالمحلوف بهِ"[3]، و(غير الواجب) في فكر سيبويه مصطلح يراد به مفهوم(الانشاء) في الدراسات المتأخرة عنه[4].

٤. قابل سيبويه بين التوكيد بـ(إنَّ)، والتوكيد بالنون الثقيلة أو الخفيفة، وهما توكيد بمنزلة(إنَّ)، ويمتاز التوكيد بالنون بأنّه يكون في(غير الواجب) أي ما يُعرَف بالإنشاء، وفي ذلك يقول سيبويه:"ومن مواضعها الأفعال غير الواجبة

---

(١) الكتاب:٢/١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١/٤٥٥ .

(٣) الكتاب:١/٤٥٥ .

(٤) ينظر في ذلك: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ٦٦-٧٠-١١٢.

التي تكون بعد حروف الاستفهام..، وهي أفعال غير واجبة فعادت بمنزلة أفعال الأمر والنهي"[1].

وتأسيسا على ذلك أرى أنَّ القسم الوارد في النصوص الحجاجية يؤدي فعلا رئيسا يتمثل في تغيير قناعة المتلقي؛ فالنظرية الحجاجية عدَّت المكونات اللغوية جوهرية في عملية الإقناع، وهذا يستلزم أنَّها تنظر إلى القيمة الإخبارية للقول بوصفها مكونا ثانويا، وتابعا للمكون الحجاجي الدلالي[2]، وهذا التوجه الحجاجي امتداد لما يراه(ديكرو) الذي يعمم الحجاج على كل قول ويجعل ذلك معادلة ضرورية: كل قول = حجاج، "فكل قول لا يحتوي على فعل إقناعي لا يكون حجاجا بل (أدبا) في المعنى العام"[3].

وقد وردَ القسم في نصوص حجاجية متعددة كان فيها القسم بوساطة حرف القسم(الواو) هو الأبرز فيها، ومنها قوله(ع): "**فو الذي فلقَ الحبَّة وبرأ النسمةَ ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرُّوا الكفر، فلما وجدوا أعوانا عليهِ أظهروهُ**"[4]؛ فهذا يؤكد الإمام حجاجه بالقسم، والنص قاله لأصحابه عند الحرب، وقدَّم الإمام ما يريدهُ من الاستعداد للطعنِ، والضرب، ولقاء الأعداء، وهذهِ النتيجة المطلوبة من الجمهور اقتضت الخطاب الحجاجي السابق وهي أنَّهم منافقون أظهروا الإسلام ردًّا بذلك على من رأى حرمة قتالهم.

---

(1) الكتاب: ٢/١٥١ .

(2) ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/٦٩ .

(3) المصدر نفسه: ٢/٣١٢ .

(4) نهج البلاغة: ٥٩٢ .

ومن الحجاج بتركيب القسم بالحرف قوله(ع):"**والله ما كنزتُ من دُنياكم تِبرا، ولا ادخرتُ من غنائمِها وَفرا، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طِمْرا**"[١]؛ ففي النص قسم كان جزءا من خطاب حجاجيٍّ للإمام موجَّه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة، والنتيجة المطلوبة منه هي التزام الولاة بحفظ الأمانة وعدم الخضوع لإغراءات الخاصة بالأموال والمنافع الدنيوية، ومقتضى النص أنَّ عثمان بن حنيف وقع في ما يلزم تذكيره بزهد الإمام، وهو قبوله دعوة إلى وليمةِ قومٍ من أهلها، وأجيبَ القسم بـ(ما) النافية التي أبدلها بـ(لا)، وقد عدَّ اللسانيونَ الاستبدال من عناصر تماسك النص[٢].

ومن الحجاج المؤكد بالقسم قوله(ع):"**والله ما أنكروا عليَّ مُنكرا، ولا جعلوا بيني وبينَهُم نِصفا، وإنهم ليطلبونَ حقا هم تركوهُ، ودما هم سفكوه**"[٣]، وهذا الخطاب كان ردًّا على طلحة والزبير وموجّها لإقناع الجمهور بأن ما يطرحه خصومه مجافٍ الحقيقة، والنص تضمن توكيدا بالقسم، وتكرارا لما أكَّد نفيه الإمام بذلك القسم، مع إثبات فكرة ترك الناكثين الحقَّ، وسفكهم دم الخليفة عثمان في تضافر لعناصر التوكيد المختلفة لإقناع الجمهور المتلقي، والنتيجة المطلوبة من النص هي لزوم تصدي الجمهور لأكاذيبهم، ومقتضى النص أنَّ هؤلاء القوم المدعين طلب الحق هم أول من تركه، وأنَّ قتل عثمان كان ظلما جرّ الأمة إلى ويلات، وأنَّ الناكثين الطالبين دم عثمان بعد مقتله هم من تركه يلاقي مصيره بل وحرَّضوا الناس عليهِ طمعا بالخلافة وركوبا لموجة السخط على أفعال الخليفة.

---

[١] نهج البلاغة: ٦٤٨ .

[٢] ينظر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: ٩١ .

[٣] نهج البلاغة: ٣٣٥ .

وورد القسم بالجملة الفعلية في نصوص متعددة منها قوله(ع):"**وأقسم بالله ربِّ العالمين ما يَسُرُّني أنّ ما أخذتَ من أموالهم حلالٌ لي أتركُهُ ميراثا لمن بعدي**"[١]؛ فاقترن فعل القسم بالمقسم بهِ(لفظ الجلالة) ولم يكتفِ(ع) بذلك بل زاد في ترسيخ رؤيته بنعت(الله) بالصفة التي تدل على ربوبيته المطلقة(رب العالمين) زيادة في توكيد النص الحجاجي الذي ورد في كتاب له(ع) إلى ابن عباس، وقد ذكر المؤرخون أنّه أخذ أموالا من بيت المال ثم أرجعها بعد ذلك[٢]، وأجيب القسم بـ(ما النافية)، والنص يقتضي أنّ من اليقين القاطع حرمة أخذ أموال الرعية، ولزوم تذكير ابن عباس بذلك على الرغم من فضله وقرابته وعلمه .

ومن القسم بالجملة الفعلية ما وردَ في كتاب له(ع) إلى زياد بن أبيهِ، وهو خليفة عامله ابن عباس على البصرة:"**وإنّي أقسمُ باللهِ قسما صادقا لئن بلغني أنّكَ خُنْتَ من فيء المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا لأشدنّ عليك شَدَّة تدعُكَ قليلَ الوفر، ثقيلَ الظهر، ضئيلَ الأمر**"[٣]؛ فالتوكيد كان بجملة فعلية مسبوقة بـ(إنّ) مع مصدر الفعل الموصوف بالصدق وأجيب القسم باللام مع نون التوكيد، وأنماط التوكيد الواردة في الخطاب السابق تعكس لنا حرص الإمام على مال الأمة، وفي الوقت نفسه يريد الإمام إقناع أولياء الأمور والولاة بضرورة الحفاظ على أموال الرعية.

---

(١) نهج البلاغة:٦٤٤ .

(٢) ينظر في ذلك: تاريخ اليعقوبي: ٢/١٤٢-١٤٣ .

(٣) نهج البلاغة: ٥٩٦ .

ومن القسم الحجاجي القسم بالأسماء، ومن هذهِ الأسماء(أيمُ الله) التي نصَّ عليها النحاة[1]، ومن القسم بها قوله(ع):"**وأيمُ اللهِ لتجدُنَّ بني أمية لكم أرباب سوءٍ بعدي كالنَّابِ الضَّروس**"[2]، والكلام وردَ في خطبة له، والقسم أجيب باللام واقترن الفعل بالنون الثقيلة مبالغة في التوكيد، ومقتضى النص أنَّ من اليقين فساد بني أمية، وهم سيكونون(أرباب سوء)، كما يقتضي النص أنَّ هناك من يؤيدهم لذلك أرادَ الإمام تحذير القوم منهم.

ومن الأسماء الخاصة بالقسم(لعمر الله)[3]، وقد وظَّفَ الإمام هذا الأسلوب في خطابه الحجاجي لمعاوية، فقال:"**وقلتَ إني كنت أقادُ كما يُقادُ الجملُ المخشوشُ حتى أبايعَ، ولعمرُ اللهِ لقد أردت أنْ تَذُمَّ فمدَحْتَ، وأن تفضحَ فافتضحتَ**"[4]؛ ففي النص يحاججُ الإمام (ع) معاويةَ، ويستعمل التوكيد بالقسم مع(لقد)، ومقتضى النص أنَّ معاوية ذكر شبهةً تتعلق ببيعة الإمام(ع) الخلفاء قبلَهُ، فردَّ الإمام بأنَّ ما طرحه معاوية مدح من حيث أراد الذمَّ؛ لأنَّهُ قد ظُلِمَ انطلاقا من حقِّه في خلافة النبي (ص)، وذكر الإمام أنه لا يصحُّ أن يُذمَّ شخصا مظلوما[5]، وبالرغم من ذلك لم يترك الإمام النصح لمن سبقه بل كان مرشدا لهم في حدود ما يُسمَح له، ولم يفعل ما فعل معاوية وغيره من خروج على الخلافة الشرعيةِ.

---

[1] ينظر في ذلك: المقتضب: ٣٣٠/٢، وهمع الهوامع : ٢٣٨/٤ .

[2] نهج البلاغة: ٢٤٧ .

[3] ينظر :الكتاب: ١٤٦/٢ .

[4] نهج البلاغة: ٦١٠ .

[5] ينظر في ذلك: المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

وذكر النحاة أن القسم يدخل على جملة الشرط فيكون الجواب للقسم باعتبارهِ متقدما[1]، وورد ذلك في نصوص حجاجية منها قوله(ع):"**والله لو أنَّ الحسنَ والحسينَ فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هَوادةٌ، ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذَ الحق منهما وأزيحَ الباطلَ من مظلمتهما**"[2]؛ والنص وردَ في كتابٍ لهُ إلى ابن عباس يعنِّفهُ فيهِ لأخذهِ بعض الأموال بغير حق، وأشرتُ إلى ذلك فيما تقدم، وأجيب القسم بـ(ما) النافية، والمفهوم من النص واضح في لزوم إعادة الأموال، كما يقتضي النص أنَّ الناس سواسية في ما عليهم من واجب في فكر الإمام.

ومن اقتران القسم بالشرط، قوله(ع):"**وأيمُ اللهِ لئن فررتُم من سيفِ العاجلة، لا تسلَموا من سيف الآخرةِ**"[3]؛ والملاحظ في هذا الشاهد الحجاجي أنَّ الجواب كان للشرط مع تقدم القسم، وهو يخالف ما رآهُ النحاة من اعتبار الجواب للمتقدم منهما، فجاء الفعل مجزوما بحذف النون وتقدمت(لا) النافية على الفعل، ورأى الفرّاء (ت٢٠٧هـ) وابن مالك(ت٦٧١هـ) جواز ذلك[4]، وذكر الرضي(ت٦٨٦هـ) أنَّهُ: "جازَ قليلا بالنظر إلى ضعف القسم في نفسهِ، أن يُرجَّح الشرط فيعتبر؛ لأجل كونهِ أقرب إلى الجواب، ويلغى القسم"[5]؛ ويبدو لي أنَّ اعتبار الشرط كان لأهميتهِ الدلالية في الخطاب؛ وتنبَّه الرَّضي إلى أنَّ القَسم مؤكدُ للمعنى الثابت فيهِ بخلاف الشرط الذي يوردُ في جوابهِ معنى لم يكن

---

(١) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤٥٧/٤، والبهجة المرضية: ١٦١/٢ .

(٢) نهج البلاغة: ٦٤٤ .

(٣) نهج البلاغة: ٣١٦ .

(٤) ينظر: شرح التصريح: ٤١٤/٢ .

(٥) شرح الرضي على الكافية: ٤٥٩/٤ .

فيهِ[1]؛ وقد استعمل الإمام(لا) النافية ولم يستعمل أداة أخرى نحـو(لن)؛ لأنّهـا تخصص الفعل بالاستقبال[2]، ويبدو أنَّ الإمام أراد أن يجعـل زمـن العقـاب لفرارهم من مواجهة الأعداء مطلقا فلا يخصص بوقت دون آخـر، ومقتضـى النص الحجاجي السابق أنَّ الفرار من سيفِ العاجلة لا يعني السلامة من سـيف الآخرة، وقد كنّى الإمام عن دخول النار بـ(سيفِ الآخـرة)؛ فتـرك محاربـة الظالمين يعني استحقاق عقاب الآخرة.

ثالثا: التوكيد بالقصر

التوكيد بالقصر من الموارد التي يظهر فيها الحجاج بقوة مظاهر توكيد الخطاب الحجاجي في نهج البلاغة، وأبرز طرقهِ هـو القصـر بـالنفي وإلا، والقصر بـ(إنَّما)[3]، وقد فرّق عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) بين التوكيـد بـ(إنَّما)، والتوكيد بالنفي و(إلا)، فقال عن التوكيد بـ(إنَّما):"تجـيء لخبـرِ لا يجهلهُ المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزّل هذهِ المنزلة"[4]، وبيَّن أنّها لا تقال لمن يجهل الخبر، وإنما لمن يراد تنبيهه[5]، أما التوكيد بالنفي و(إلا) فقال عنـه إنَّه:"يكون للأمر ينكرهُ المخاطب ويشكُ فيه"[6].

وبتطبيق هذا الضابط في بيان الفرق بين(إنَّما)، والنفي و(إلا) نجد تباينا في مقامات اسـتعمال كـل مـن الأسـلوبين بحسـب الجمهـور المخاطـب؛

---

(1) ينظر في ذلك: المصدر نفسه: ٤/٤٥٨ .

(2) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني:٢٨٥.

(3) ينظر:التراكيب اللغوية: ١٢٨-١٢٩ .

(4) دلائل الإعجاز: ٣١٣ .

(5) ينظر في ذلك: المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

(6) المصدر نفسه: ٣١٥ .

فاستعمل(إنّما) في الحجاج المنطلق من مشتركات مُتفق عليها ومُسلّم بها سواء كان المخاطب من أتباعه(ع) أم من أعدائه، بخلاف استعمال النفي و(إلا)؛ فإنّه كان في الحجاج الموجّه إلى جمهور معترض على ما يطرحه(ع) من أفكار، وهذا ما نلحظه عند متابعة الأمثلة التي سأذكرها، وهذا التفريق بين الاستعمالين يدل على الجهد الكبير عند علمائنا القدماء في تحليل الخطاب ورصد استعمال كلٍ من النمطين الخاصين بالقصر؛ وقد أشرت إلى أنّ(ديكرو) عدّ(أدوات الحصر) من العوامل الحجاجية.

ومن التوكيد بـ(إنّما) قوله(ع):"**وإنّما يُستدَلُّ على الصالحينَ بما يجري الله لهم على ألسنِ عبادهِ**"[1]؛ فالنص ورد في عهدهِ لمالك الأشتر، والهدف منه تنبيههُ على العمل الصالح، ومقتضى النص أنّ ولاة الأمر يحتاجون النصح والإرشاد وإن كانوا متصفين بالزهد والعفة، وقد استعمل الإمام(إنما) لأنّ المخاطب من خاص وعام يتفق معه في أنّ دليل صلاح الفرد ولاسيما الحاكم هي سيرته في الرعية من عدل ورحمة لا ما يُدَّعى من دين وتقوى، وهو ما تدل عليه صيغة القصر من حصر الدلالة الحجاجية للنص في أنّ الرعية يهمها بالدرجة الأولى عدل الحاكم وصلاحه.

ومنه قوله في وصيتهِ للحسن(عليهما السلام):"**واعلم أنّك إنّما خُلقِتَ للآخرةِ لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة**"[2]؛ فالأداة(إنّما) في النص أفادت لزوم الاستعداد للآخرة، والمخاطب سواء كان الإمام الحسن أو الجمهور الكوني يقرُّ بأنّ مستقر الإنسان هي دار الآخرة وإقرار الملقي يقتضي الاستعداد للآخرة وهو ما أراده الإمام(ع) بخطابه الحجاجي.

---

[1] نهج البلاغة: ٦٦١ .

[2] المصدر نفسه: ٦٢٥ .

ومنه قوله(ع):"**وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسَمّوه إماما كان ذلك لله رضًى**"[1]، وقد وردَ النّص في كتابٍ لــه إلــى معاوية، ويظهر وباستعمال(إنما) وليس النفي و(إلا) أنّ معاويــة ومــن ورائــه الجمهور المخاطب كان يعرف هذهِ الحقيقة وأنّ معاوية ليس أهلا للخلافة، ولكنّهُ كان يمني نفسه بالحصول عليها فأرادَ الإمام تنبيهه لما يقرّه عامــة المســلمين؛ لكونه أصبح(عرفا سياسيا) في اختيار الخليفة وهو اجتماع المهاجرين والأنصار على من يرونه أهلا لخلافة النبي(ص) وهذا الأمر يقتضي إقراره بصحة خلافة الإمام أولا وعدم صحة خلافة من يخرج على ما تعارف عليه المســلمون منــذ زمن الخليفة الأول. ففي الأمثلة السابقة كان الخطاب الحجاجي موجّها إلى متلقٍ غير منكر أو جاهل بالأطروحة التي يلقيها الإمام؛ فالحسن(ع)، والأشتر النخعي أقرب الناس إلى فكر الإمام، وكذا الأمر في حجاج معاوية؛ إذ ألزمه بما يعتقده هو وجمهوره ولو ظاهرا بنظرية الشورى في قبول الخليفة .

ومن التوكيد بالنفي و(إلا)، قوله(ع) في خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام:"ما أنتم إلاّ كإبلٍ ضلَّ رعاتُها"(٢)؛ فالإمــام حصــر دلالــة الــنّص الحجاجي في شدةِ تيهِ قومه وانحرافهم بــ(النفي، وإلا)؛ لأنّ معظمهم بدأ يشُــك في صحة موقف الإمام حتى ظهر منهم الخوارج الذين كفّــرُوه(ع)، وجماعــة المسلمين، والنتيجة المطلوبة هي لزوم تصحيح هذا الانحراف من قِبَل الجمهور؛ واستعمل الإمام عامل(النفي، وإلا) الحجاجي؛ لأنّ مــا طرحــه(ع) قــد يلقــى معارضة وإنكارا من قبل الجمهور وهو ما اقتضى توظيف الأدوات السابقة في الحجاج، والمفهوم الدلالي من الخطاب هو لزوم ترك الضلال المتمثل بعدم قتال

---

(١) نهج البلاغة: ٥٨٣ .

(٢) المصدر نفسه: ١٣٨ .

معاوية وأتباعه؛ فالنّص ورد في سياق استنفار الناس إلى أهل الشام بعد حربه الخوارج، وفيه يشير إلى كثرة حثّه لهم على جهاد القوم وفي المقابل تخاذلهم، ووظيفة العامل الحجاجي واضحة في حصر دلالة الخطاب بانحرافهم عن القصد فلو استعمل التركيب بصيغته (العميقة التوليدية) بحسب تعبير دراسات(النحو التوليدي التحويلي)(١)، لكان من المحتمل أن يجابه برفض الفكرة التي يطرحها(ع) وهي لزوم مواجهة معاوية وأتباعه، فلجأ إلى تركيب القصر؛ فلو قال: أنتم كأبل ضلَّ رعاتها، لردَّ عليه الجمهور بمعارضة هذه الفكرة؛ فلما استعمل القصر حصر المفهوم الدلالي بوجوب إنهاء حالة الضلال والتصدي لعصيان أهل الشام.ومنه قوله(ع) في خطبة له:"أيها الناسُ إنّي والله ما أحثُّكُم على طاعةٍ إلاّ وأسبقكُم إليها، ولا أنهاكم عن معصيةٍ إلا وأتناهَى قبلكم عنها"(٢)؛ فورد التوكيد في النص بـ(النفي،وإلا)؛ لأنّ المخاطب قد يكون منكرا لما يطرحه الإمام وهذا الأمر اقتضى توظيف تركيب القصر للرد عليه، وعامل القصر الحجاجي حصر المفهوم الدلالي من الحجاج وهو أنّ الآمر بالمعروف يجب أن يسبق الآخرين للعمل به، وكذا في النهي عن المنكر، ولو أورد الفكرة من غير توكيدها بـ(العامل الحجاجي) لربما اعتقد المخاطب أنّه من الجائز أن يُؤمَر بالمعروف ويُنهَى عن المنكر من دون أن يتصدى الخطيب إلى تطبيق ذلك علي نفسه أولا؛ فلما دخلت أداة النفي مع(إلا) حصرت حجاجية الخطاب بالمفهوم الدلالي منه، ومقتضى النَّص أنّ هناك أشخاصا يُعدّونَ قادة يأمرون بالمعروف، وينسون أنفسهم، وينهون عن المنكر وهم عاملون له.

---

(١) ينظر في ذلك: التحويل في النحو العربي:٤٥-١٤٥، واللسانيات،المجال،والوظيفة،والمنهج: ١٧٨-١٨١.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٠ .

المبحث الثاني

المساءلة في الخطاب الحِجاجي

أشرت في الفصل الأول عند دراستي مفاهيم الحجاج في العصر الحديث إلى أنَّ نظرية (المساءلة الحجاجية) تعدُّ من أهم مفاهيم الحجـاج؛ فقـد انطلـق (مايير) من حركة (السؤال والجواب) في بحثه إقناع المتلقي من جمهور خاص أو عام، وحركة المساءلة تلك تتبنى على أنَّ (المُظهَـر) يتمثـل بمـا يطرحـه الخطيب، ويقتضي بحسب مفهوم(مايير) أن يكون جوابا عـن إشكال(مُضـمَر) حتى فيما يتعلق بالتعبير عنه[1]، هذا يشتمل حتى على الجمل غير مبدوءة بأداة (استفهام) أي ما يعرف في تراثنا النحوي بالجمل الخبرية؛ فالجمـل المبـدوءة بأدوات(استفهام) تعد في الفكـر اللغـوي مـن أقسـام الإنشـاء الطلبـي[2]، ونظرية(مايير) عمَّمت حركة السؤال والجواب، وهنا أودُّ بيان مسألة مهمة تتعلق بدراسة(المساءلة الحجاجية) في النهج وهي أنَّها سترتكز على دراسة الخطـاب الحجاجي المبدوء بـ(أداة السؤال) وهذا يعني أنَّ (المُظهر) على وفـق مـنهج الدراسة سيكون(التساؤل)، و(المُضمَر) سيكون إجابة الجمهور عـن التسـاؤل واقتناعهم بما يطرحه الإمام(ع) من أفكار، ومصطلح(المساءلة) أقرب إلى مفهوم "الحِجاج" من مصطلح (الاستفهام)، والملاحظ أنَّ أبا هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) قد تنبَّه إلى الفرق بين(الاستفهام)، و(السؤال) فذكر أنَّ "الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشكُّ فيه"[3]، وفيما يتعلق بالسؤال فذكر أنَّه "يجوز أن يسـأل

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته:٣٢/٥ .

[2] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٠٨ .

[3] الفروق اللغوية: ٢٧.

فيه السائل عما يعلم وعما لا يعلم"[1]، وما ذكره العسكري يعد منطلقا لـي فـي ترجيح مصطلح (المساءلة) على(الاستفهام) في دراسة الحِجاج؛ لأنَّ الاسـتفهام لغة: هو طلب الفهم، يقول ابن منظور:"الفهم معرفتك الشيء بالقلب..،وفهمـت الشيء:عقلتُه وعرَفته، وأفهمه الأمر وفهّمة إياه:جعله يفهمه، واستفهمهُ سأله أن يفهمّهُ"[2]، أمّا في الاصطلاح فقد حدّهُ الجرجاني (ت٨١٦هـ) بأنه :"استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الـذهن، فـإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشـيئين أو لا وقوعهـا، فحصـولها هـو التصديق، وإلا فهو التصور"[3]؛ فهذان المعنيان يدلان علـى أنّ الأصـل فـي الاستفهام هو طلب الفهم، أمّا(المساءلة) فهي مشتقة من(سأل) الـذي إن تعـدى بالحرف كان بمعنى الاستخبار وإن تعدى بنفسه كان بمعنى الطلب[4]؛ ففي كـلا الحالين تختصُّ هذه الصيغة بالطلب بخلاف(الاستفهام) الذي يعد أخصَّ من تلك الصيغة فهو يعني طلب الفهم؛ لذلك وردت صيغة(سأل) في مواضع كثيرة مـن القرآن الكريم بخلاف صيغة(فهم) التي وردت مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[5]، وصيغة(سأل) أفادت في معظم مواضعها معنى(الطلب)، كقوله تعالى:﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن

---

[1] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[2] لسان العرب(فهم): ٤٥٩/١٢ .

[3] التعريفات:٢٢، وينظر:أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٣٠٧ .

[4] لسان العرب(سأل):٣١٩/١١ .

[5] الأنبياء:٧٩ .

[6] المعارج:١.

﴿ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[1]؛ ففي هذين الموضعين أفادت معنى الطلب، وفي مواضع أخرى أفادت معنى الأمر بالإجابة والإقرار بالذنب كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾[2]؛ فالمساءلة هنا وبحسب ما ذكره المفسرون تعني إقرارهم بالذنب؛ فلا حجّة لهم يومئذ بعد أن أقيمت الحجّة عليهم[3]، ومن هنا أرجّح مصطلح(المساءلة) على(الاستفهام)؛ لأنّ الغرض هو طرح الإشكال لا طلب الفهم وهذا الأمر هو ما نلحظه في معظم الأمثلة من قرآنية وغيرها؛ فلا داعي لاستعمال مصطلح (الاستفهام) ومن ثم نبحث عن حل لإشكالية عدم إرادة معناه فنلجأ إلى وصفه بـ(المجازي)؛ لأنّ المساءلة تعني طلب الإقرار لا طلب الفهم.

ودراسة عوامل الحجاج من باب المساءلة ترتبط على نحو وثيق بنظرية الفعل الكلامي؛ لأنّها تتأسس على الحِجاج الذي عدّه(ديكرو) من أفعال الكلام؛ فالمتكلم يسعى إلى إنجاز حدث الإقناع، كما تقوم المساءلة باستعمال أسلوب طرح الإشكال للحصول على إقرار المتلقي، وبذلك تكون(المساءلة) حدثا لغويا لا يقل في أهميته عن فعل الحجاج بل لا يُنجز حدث الإقناع من دون طرح التساؤل الذي يستعمله الخطيب وفقا للسياقات التي تقتضيه؛ فالإشكال الحجاجي إنّما ينطلق مما يعتقده الجمهور ليصوغ الخطيب ما يريد الإقناع به عن طريق

---

[1] النساء:١٥٣.

[2] الصافات:٢٤ .

[3] ينظر:التبيان في تفسير القرآن:٦/٦٥-٦٦، والجامع لأحكام القرآن:١٨/٢٤.

التساؤل؛ ولأهمية المساءلة في الإقناع نجد الفلاسفة يصفون حركة السؤال والجواب في الخطاب[1].

ومما يعزّز الطرح بشأن مفهوم(المساءلة) في دراسة خطاب نهج البلاغة أنها ترى أنَّ الحجاج بقسميه(الجدلي)، و(الخطابي) يرتبط بالخلاف الذي هو مصدر السؤال[2]، وقد أشرت إلى ذلك عندما بحثت مفهوم الحجاج عند(ماير)، وقد ذكر(ماير) أنَّ الاستعمال الرئيس للغة يتعلق بحركة السؤال والجواب؛ فكل استعمال للغةِ يمثل جوابا عن(مشكل) حتى عندما يتعلقُ الأمر بالتعبير عنه[3].

ونظرا إلى صعوبة الإحاطة بدراسة خطاب النهج حجاجيا على وفق مفهوم (المساءلة) التي عمّمت حركة التساؤل وجعلت كل استعمال للغة يمثل جوابا عن مشكل حتى في جانبها الإخباري سأخصُّ بالدراسة الخطاب المبدوء بعوامل المساءلة الحجاجية.

والعلاقة بين(الظاهر، والمضمر) أي بين(الجواب، والسؤال)هي التي تنتج الحِجاج، ويظهر لي بمتابعة ما كُتِبَ من دراسات تتعلق بنظرية(المساءلة)أنّ(الظاهر) هو(الجواب)، وأنّ(المضمر) هو(السؤال) هذا في حالة النصوص الإخبارية التي تولِّد تساؤلات عند المتلقي لكن في حال دراسةُ النصوص المبدوءة بأدوات المساءلة فإنّ(الظاهر) هو(الإشكال)، أمّا(المُضمَر) فهو(الجواب) ويتمثّل بالنتيجة التي يريدها الخطيب وهي اقتناع الجمهور بما يطرحه من أفكار وإقرارهم إياها.

---

[1] ينظر: تلخيص كتاب الجدل:١٩٩-٢٤١.

[2] ينظر في ذلك: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٢٢.

[3] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته:٣٢/٥ .

ونرى أنَّ نظرية(المساءلة) لها أساس في الفكر النحوي العربي؛ فكل استعمال للغة يرتبط بحركة السؤال والجواب، حتى في الإخبار وإن كانَ ما ذُكِر يدخل في الإشارات العرضية لذلك من دون بحثها في باب مستقل أو في نظرية محددة، فقد قدّر سيبويه سؤالاً لتفسير صيغة الإخبار فيما نقله عن الخليل: "وقال استقبح أن أقول هذهِ مئةٌ ضربُ الأميرِ فأجعل الضربَ صفةً فيكون نكرة وصفت بمعرفة، ولكن أرفعه على الابتداء كأنَّهُ قيل له: ما هي؟، فقال: ضربُ الأميرِ"[1].

ومن الحالات التي فُسِّر فيها الخبر بالسؤال ما جاء في (باب ما تستوي فيهِ الحروف الخمسة)، وذلك عند تفسير سيبويه للرفع في قولنا: إنَّ زيداً منطلقٌ العاقلُ اللبيبُ؛ فعلّل سيبويه الرفع بوجهين يقومان على فكرة الإجابة عن سؤال؛ فقال:"يرتفع على وجهينِ: على الاسم المضمر في(منطلق) كأنَّه بدل منه فيصير كقولك: مررت بهِ زيدٍ، إذا أردت جواب: بمن مررتَ؟، فكأنه قيل له: من ينطلق؟ فقال: زيدٌ العاقل اللبيبُ، وإن شاء رفعه على: مررتُ بهِ زيدٌ، إذا كان جواب من هو؟ فتقول: العاقلُ اللبيب"[2].

وأشار سيبويه إلى أصالة الاستفهام صراحةً في باب النفي بـ(لا)، فقال: "(لا) لا تعمل إلا في نكرة من قبل أنها جوابٌ فيما زعم الخليل لقولهِ: هل من عبدٍ أو جارية فصار الجواب نكرة"[3]؛ وتجاوز المبرد إشارات سيبويه، فقال: "إنما وضعت الأخبار جوابات للاستفهام"[4].

---

(1) الكتاب:١/٢٧٥ .

(2) المصدر نفسه:١/٢٨٦ .

(3) المصدر نفسه:١/٣٤٥ .

(4) المقتضب:٤/٣٥٧، وينظر: أصول تحليل الخطاب: ٢/٨٠٦ .

وفي الوقت الذي أشارت فيه الدراسات إلى أنَّ الاستفهام هو أصل للإخبار نلحظ أنَّه ليس الصورة الوحيدة في نظرية(المساءلة)؛ إذ قد يكون الخبرُ أصلاً للسؤال[1]، وهو ما ذكره سيبويه قائلا: "ألا ترى أنّه يقول: مررتُ بزيد فتقول: أزيدٍ؟، وإن شئتَ قلت: أزيدِ نبيهِ؟، وكذلك تقول في الرفع والنصب، وإن شئتَ أدخلتها على كلام المخبرِ ولمْ تحذف منه شيئاً، وذلك إذا قال: مررتُ بزيدٍ، قلتَ: أمررتَ بزيدٍ؟"[2].

كما ذكر المبرد أنَّ الاستفهام يكون في حالات معينة مبنيا على خبر سابق، فقال: "اعلم أنَّ رجلاً لو قال لك: رأيتُ زيدا فلم تدر أيَّ الزيودِ هو، لكان الجواب أن تبتدئ فتقول: القرشيَّ أمِ الثقفي أم الطويلَ أم القصير"[3].

وهكذا سيكون الاستفهام جوابا للخبر، وفي مقابل ذلك في حالات أخرى يبنى الخبر على استفهام سابق، وهذا التنوع في حركة التساؤل يعد القوة المحركة للخطاب[4].

وبتطبيق هذهِ النظرية على الحِجاج نجد أنَّ المساءلة الحجاجية لا تكون استعلاما عن مجهول، وإنما هي صورة من صور إقناع المتلقي بفكرة معينة عن طريق طرح(الإشكال) عليه، ورأى(بلونيتن) – وهو من منظري الحجاج – أنَّ الاستفهام الحجاجي ليس استخبارا أو طلب جواب بل هو وسيلة حجاجية[5]، يحصل بموجبه إقرار المتلقي بصحة ما يطرحه الخطيب .

---

[1] ينظر: أصول تحليل الخطاب:٢/٨١٠ .

[2] الكتاب:١/٤٤٤ .

[3] المقتضب:٢/٣١١ .

[4] ينظر: أصول تحليل الخطاب:٢/٨١٦ .

[5] ينظر في ذلك: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٤٢٥ .

والملاحظ أنَّ البلاغيين قد ذكروا معاني متعددة يخرج إليها الاستفهام[1]، لكنّهم لم يذكروا غرض الحجاج فيها؛ ولعلَّ ذلك يرجع إلى عدم وضوح فكرة المساءلة عندهم على النحو الذي وجدناه عند أرسطو ومن ترجم له وشرح مصنفاته من فلاسفة المسلمين، وأرى أنَّ غرض(التقرير) وهو من تلك الأغراض التي أشاروا إليها[2]، يقرب بصورة كبيرة من غرض(المساءلة الحجاجية) وهو الحصول على إقرار الجمهور بما يريده الخطيب أي؛ فذلك الإقرار هو أساس الاقتناع بالفكرة المطروحة، وحتى لو لم يحصل اقتناع حقيقي بها لن يكون أمام الجمهور وبخاصة الخصم منهم عذرٌ في رفض النتيجة المطلوبة.

ويبدو لي أنَّ الأغراض المجازية جميعها تَقرُب من غرض الإقناع وإن لم تكن بالصورة التي أجدها في غرض(التقرير)؛ لأنَّنا لو نظرنا إلى أيِّ خطاب سنجدُ أنَّ إستراتيجية الإقناع فيهِ رئيسة، وتأسيسا على ذلك فالاستفهام إن لم يكن حقيقياً فلا بد من قيام الحوار على هدف إقناع المتلقي بالفكرة أو مجموعة الأفكار التي يطرحها الخطيب؛ فمثلا خروج الاستفهام إلى التنبيه على الضَلال يعني محاولة إقناعهم بضرورة التخلي عنه، وكذا الأمر في التعجيزِ يعني إقناعهم بعجزهم، والتهكم بما يعتقدون من أفكار يعني إقناعهم بتركها، والتساؤل للتوبيخ غرضه حمل المتلقي على الانتهاء من فعلٍ معين استحق بموجبه ذلك؛ فالنتيجة المطلوبة التي يستهدفها الحجاج هي إقناع الآخرين عن طريق التساؤل الذي ينطلق من المبادئ المتفق عليها غالبا؛ وبحسب نظرية الأفعال الكلامية يقوم(الاستفهام) من الناحية التخاطبية على فكرة مفادها اعتقاد المتكلم أو من

---

[1] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة:١١٢.

[2] ينظر: مفتاح العلوم:١٣٦، والشرح المختصر:٢٠٥.

يطرح التساؤل أنَّ المخاطب يملك الإجابة التي يطلبها[1]، والإجابة التي سيقدمها المخاطب هي إقراره في الواقع بما يريده الخطيب ومن ثم سيكون المخاطب مُلزَما بقبول النتيجة أو المفهوم الدلالي؛ فقوة الخطاب الحجاجي تأتي من كونه يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج مقرًّا إياها بوصفها الاتجاه الوحيد الذي يسير فيه المخاطب[2]. والعوامل الحجاجية الخاصة بالمساءلة في خطاب النهج متعددة، أهمها :

١ . الهمزة:

وهي حرف يدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق والتصور[3]، وقد وصفت بأنها أم الباب[4]، قال عنها سيبويه:"حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره وليس للاستفهام في الأصل غيره"[5]، والأصل هو تقدير دخول الهمزة على سائر أدوات الاستفهام، يقول ابن يعيش(ت٦٤٣هـ):"لما كثُر استعمالها في الاستفهام حذفت الألف للعلم بمكانها"[6]، وأفادت المساءلة بالهمزة معنى التوبيخ وهو مما اختصت به على رأي سيبويه[7]. ومما اختصت به الهمزة زيادة الهاء في سياقها دلالةً على الإنكار، ومن ذلك:"قول الرجل: ضربتُ زيدا، فتقول منكرا لقولهِ : أزيدنيهِ، وصارت هذهِ الزيادة علما لهذا المعنى، كعلم

---

(1) ينظر : دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات:١٩٧.

(2) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٣.

(3) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة:١٣٠.

(4) ينظر: أمالي ابن الشجري:١/٤٠٠، والبرهان في علوم القرآن: ٢/٣٤٧ .

(5) الكتاب:١/٥١ .

(6) شرح المفصل: ٨/١٥٢ .

(7) ينظر: الكتاب:١/٤٨٦، والدلالة والتقعيد النحوي: ٣٣٤ .

الندبة"[1]، وهذه الظاهرة في الإنكار لم يحافظ الاستعمال عليها[2]، وذكر سيبويه أنَّ هذهِ الزيادة لا تلحق الجملة الاستفهامية إذا كانت على سبيل(الاسترشاد) لا الإنكار[3]؛ كما اختصت الهمزة بتقدمها على سائر حروف العطف؛ "لكونها أصلا في الاستفهام الطالب للتصدر"[4]، ومن خصائص الهمزة مما يرتبط بالحجاج بصورة مباشرة دخولها على أدوات النفي مفيدة معنى التقرير، قال الرضي: "إذا دخلت الهمزة على النافي؛ فلمحض التقرير، أي حمل المخاطب على أن يُقرَّ بأمرٍ يعرفه"[5]؛ وما الحجاج إلا محاولة من منتج النص لحمل المتلقي على الإقرار بفكرة معينة، والملاحظ أنَّ سيبويه أشارَ إلى هاتين الخصيصتين في موضع واحد هو باب(الواو التي تدخل عليها ألف الاستفهام) ذاكرا فيه دخول الهمزة على أدوات العطف، كما مثّل لدخول الهمزة على أدوات النفي مفيدةً التقرير[6]، وهذه باختصار كانت أهم أحكام الهمزة.

وقد وردت المساءلة الحجاجية بالهمزة في مواضع متعددة من حجاج النهج كقوله(ع):**"أ أقنَعُ من نفسي بأن يُقالَ أميرُ المؤمنين، ولا أشاركَهُم في مكارهِ الدَّهرِ، أو أكونَ أسوةً لهم في جشوبةِ العيشِ"**[7]؛ فالنص وردَ في كتابٍ لعثمان بن حنيف عندما مضى إلى وليمة دُعي إليها، ومقتضى النص أنَّ من

---

[1] الكتاب:١/٤٠٦ .

[2] ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ١١٣ .

[3] ينظر: الكتاب:١/٤٠٧.

[4] شرح الرضي على الكافية:٤/٤٤٨ .

[5] المصدر نفسه:٤/٤٤٧ .

[6] ينظر في ذلك: الكتاب:١/٤٩١ .

[7] نهج البلاغة: ٦٤٩ .

يتولى شيئاً من أمور الرعية لابد أن يشاركهم صعوبة العيش، وهذا يرتبط بهدف أكبر هو الحفاظ على صورة الحاكم العادل في ذهن الجمهور، والنتيجة المطلوبة من الحجاج هي اقتناع الجمهور لاسيما الولاة بالزهد ومشاركة الرعية جشوبة العيش، وهي غلظته وخشونته[1].

ومنه قوله(ع) في ذَمِّ اختلاف العلماء في الفُتيا:"أ **فأمرهُمُ الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوهُ، أم نهاهم عنه فعَصوهُ، أم أنزلَ الله سبحانَهُ ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليهِ أن يرضى، أم أنزلَ الله سبحانَهُ ديناً تاماً فقصَّرَ الرسول عن تبليغهِ وأدائهِ**"[2]؛ فالمساءلة بنيت على الهمزة مع(أم) العاطفة التي أغنت عن تكرار الهمزة، ومن الواضح أنَّ الإمام لم يقصد الاختلاف الفقهي الناشئ من التباين في فهم الدليل فهذا الأمر من طبيعة العلوم الإنسانية عامةً لكنَّه عنى بكلامهِ الاجتهادات في مقابل النص ومقتضى كلامه(ع) أنَّ التلاعب بالأحكام والاجتهاد في مقابل النص قد بدأ منذ ذلك الوقت، وقد اعتمد المساءلة الحجاجية؛ للحصول على إقرار الجمهور بحرمة مخالفة النَّص.

واقترنت المساءلة الحجاجية بالنفي في نصوص متعددة منها قوله(ع) في كتاب له إلى بعض عماله وقد بلغه أخذه بعض الأموال بغير حق:"**أو ما تؤمِنُ بالمعاد؟، أو ما تخاف نقاشَ الحساب؟**"[3]؛ فقد دخلت الهمزة على حرف العطف مع أداة النفي لحمل المتلقي على الإقرار بالنتيجة المطلوبة، وهي ضرورة إعادة

---

[1] ينظر :لسان العرب(جشب): ٢٦٥/١.

[2] نهج البلاغة:١٠٣-١٠٤ .

[3] نهج البلاغة: ٦٤٤ .

ما أخذه من مال، ومقتضى النَّص أنَّ من مصاديق الإيمان بالمعاد أداء حقوق الرعية، وعدم خيانة الأمة.

ومن ذلك قوله(ع) في خطبة له تسمى الغرّاء:"**أ ولستم أبناءَ القومِ والآباء، وإخوانهم والأقرباء، تحتذونَ أمثلتهم، وتركبون قِدَّتَهم، وتطأونَ جادّتهم**"[1]؛ فالإشكال أو المساءلة موجَّهة إلى الجمهور الكوني من وراء الجمهور الخاص المعاصر للإمام، فذكرهم(ع) بالمصير المحتوم وهو الموت؛ لأنها وردت في مقطع من الخطبة يتحدث عن الفناء، فلا عمل بعد الموت، وليست هناك من توبة؛ ودخول الهمزة على أداة النفي غرضهُ الحصول على اقتناع الجمهور بالنص ومن ثمّ العمل للآخرة على ضوء ذلك الاقتناع والإقرار بما طرحه الإمام(ع).

٢. هل:

وهي أداة مساءلة تدخل على الأسماء والأفعال؛ لطلبِ التصديق الموجب لا غير[2]، وذكر النحاة أنها تأتي بمعنى(قد)[3]، وفسّروا بذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[4]، وقد رفض ابن هشام ذلك الرأي ذاكرا أنّ جماعة من العلماء ترى أنّ:"(هل) لا تأتي بمعنى (قد) أصلا"[5]، وأيّده بقوله:"وهذا هو الصواب عندي"[6].

---

(١) نهج البلاغة: ١٩٩ .

(٢) ينظر : الجنى الداني: ٣٤١ .

(٣) ينظر في ذلك: حروف المعاني: ٢، والكشاف: ١٩٤/٤ .

(٤) الإنسان: ١.

(٥) مغني اللبيب: ٣٣٥ .

(٦) المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

ويظهر لي أنَّ القول بمجيئها بمعنى(قد) عند النحاة المتأخرين عن سيبويه كان نتيجة لما ذكرهُ سيبويه من أنَّها بمنزلة(قد)[1]، وأشار السيرافي(ت٣٦٨هـ) صراحة إلى إنَّها بمعنى(قد) في تفسير الآية السابقة[2].

وذكر سيبويه(هل) مع(أم) للإشارة إلى دخول حرف الاستفهام عليها[3]، وذلك بتقدير دخول الهمزة عليها، وقد أجاز ابن هشام الجمع بين حرفينٍ لمعنى واحد على سبيل التوكيد[4]، ورفض نحاة آخرون جعلها استفهامية عند دخول الهمزة عليها؛ لأن ذلك جمعٌ لحرفين بمعنى واحد[5].

ومما منعه سيبويه وتبعه فيه النحاة دلالةُ الاستفهام بـ(هل) على التوبيخ أو التقرير[6]، ولكنَّ ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) ذكر دلالتها على التوبيخ والتقرير في آيات متعددة[7]، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[8].

وأرى أنَّ(هل) وأدوات الاستفهام الأخرى تحمل طاقة حجاجية تتمثل في إقرار المخاطب أو إقناعه بفكرة معينة؛ فغرض الإقناع يمثل جوهر حركة السؤال والجواب؛ وقد وردَ التساؤل بـ(هل) في حجاج النهج في مواضع متعددة، منها قوله(ع) في خطبة له يحثُّ فيها قومه على جهادِ الأعداء:"**وهل أحدُ**

---

[1] ينظر: الكتاب:١/٥١، ١/٤٩٢ .

[2] ينظر في ذلك: شرح كتاب سيبويه:١/٤٠٧ .

[3] ينظر في ذلك: الكتاب:١/٤٩١.

[4] ينظر في ذلك: مغني اللبيب: ٣٣٦ .

[5] ينظر:شرح المفصل: ٨/١٥٢، وتوجيه اللمع : ٥٨٤ .

[6] ينظر: الكتاب:١/٤٨٦، ورصف المباني:٤٠٧، والجنى الداني:٣٤٢.

[7] ينظر: تأويل مشكل القرآن:٤٨٤ .

[8] يونس:٣٤ .

منهم أشدُّ لها مِراسا وأقدمُ فيها مقاما منّي؟"[1]؛ فالخطاب للجمهور للرد على ما تطرحه قريش التي زعمت أنّهُ شجاع لكن لا علم له بالحرب، وإقناعهم بأن ما حدث كان بسبب إفساد رأي الإمام بعصيانهم وتخاذلهم[2]، ومقتضى النص أنّ هناك اعتقادا لدى الجمهور يتعلق بأنّ الشجاعة تعنى الخديعة والغدر وهو ما استلزم تصحيح هذه النظرة.

وميزة السؤال الحجاجي هي أنّه يحصر الإجابة المتمثلة بالإقرار بالفكرة المطروحة وهي غاية الخطاب الحجاجي؛ لأنّ(ديكرو) رأى أنّ غاية الحجاج تتمثل في: "أن يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيها"[3].

ومن المساءلة الحجاجية بـ(هل) قوله(ع) في خطبة له تسمى الغرّاء:"**فهل ينتظرُ أهل بضاضةِ الشَباب إلا حوانيَ الهرم، وأهل غضارة الصحةِ إلا نوازلَ السَّقمِ، وأهل مُدّةِ البقاء إلا آونة الفناء**"[4]؛ فالإمام يطرح إشكالات حجاجية مصدرة بـ(هل) ومعطوفا عليها تتعلق بصفة الدنيا التي يريدُ الإمام من المتلقي عدم التشبث بها، وقد بُنيَ النص الحجاجي على جملة من التقابلات المعجمية(الشباب، والهرم)، و(الصحة، والسقم)، و(البقاء، الفناء)، وهذا جزء من المصاحبات اللغوية التي تعد من عناصر تماسك النص[5]، و(الحواني)

---

(1) نهج البلاغة: ١٢٢ .

(2) ينظر: نهج البلاغة: ١٢٢ .

(3) الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه:٢٣ .

(4) نهج البلاغة:١٩٨ .

(5) ينظر في ذلك: نحو النص، إطار نظري ودراسات تطبيقية : ١٤٠ .

جمع(حانية)، وهي:"التي تحني ظهر الشيخ وتكبُّه"[1]؛ فالإمام أراد حمل الجمهور على الإقرار بمصير الإنسان والاستعداد للفناء.

ومنه في خطبة له(ع) يذكر ملك الموت:"**هل تُحِسُّ بهِ إذا دخلَ منزلا؟، أم هل تراهُ إذا توفّى أحدا**"[2]؛ فالنص موجّه إلى جمهور كوني والنتيجة المطلوبة منه هي الاستعداد للموت والفناء وذلك بطرح التساؤل السابق؛ ليكون أبلغ في إقناع المتلقي، وقد تكررت(هل) ودخلت عليها(أم) المنقطعة في سؤالٍ ثانٍ يمثل انتقالاً في السلم الحجاجي من الإشكال الأول إلى الإشكال الثاني عند قبض الروح.

٣. ما :

من أدوات الاستفهام التي يُستفهم بها عما لا يعقل وعن صفات من يعقل(٣)، و(ما) وسائر الأدوات للتصور فقط بخلاف(هل) فإنها للتصديق فقط، أما الهمزة فتفيد كلا المعنيين(٤)، وتسقط ألفها إذا دخل عليها حرف جر، كما تتصل بها(ذا) ولها دلالات مختلفة بحسب السياق الذي ترد فيه متصلة بها(٥).

وقد تساءل الإمام(ع) بها في نصوص حجاجية متعددة منها ما ردَّ بهِ قول الأشعث ابن قيس:"هذه عليك لا لك"(٦)، عندما اعترض الأشعث على

---

[1] لسان العرب(حنا): ٢٠٣/١٤ .

[2] نهج البلاغة: ٢٩٢ .

[3] ينظر: شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: ٢٨٩ .

[4] ينظر: الشرح المختصر: ١٩٦، ٢٠١.

[5] ينظر: الكتاب: ٤٠٥/١، وشرح المفصل: ٦/٤ .

[6] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٧/١.

قوله(ع): "هذا جزاء من ترك العقدة"(١)، فقال له الإمام ردًا على ما طرحه:"ما يدريك ما عليَّ ممَّا لي؟عليك لعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين"(٢)؛ ففي النص يُشكل الإمام على الأشعث بالأداة(ما) لأنَّها تتعلق بصفة(الدراية) التي تتعلق بمن يعقل، والإجابة المطلوبة عن التساؤل مضمرة في نفسِ ذلك الشخص والجمهور الذي يتفق مع مقالته وهي في الوقت نفسه النتيجة المتوخاة من الحجاج، فهو وأمثاله ليسوا مؤهلين لتقويم حركة الإمام؛ لأنَّه رأس النفاق في جيش الإمام(٣).

ومنه قوله(ع) في كتابٍ إلى معاوية:"وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ، والسائسَ والمسوسَ؟، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييزَ بينَ المهاجرينَ الأولينَ وترتيبَ درجاتهم وتعريفَ طبقاتهم؟"(٤)؛ فالإمام يتساءل بـ(ما) عن صفات معاوية التي تؤهله للخوض في أمر الحاكم والرعية، ومن يَفضُل على الآخرين في علمه وشجاعته؛ فهو من الطلقاء الذين لا تصح فيهم الخلافة لتاريخهم السيء في بدء الدعوة الاسلامية، والإجابة عن الإشكالين اللذينِ طرحهما الإمام على معاوية وجمهوره أولا وعلى الجمهور الكوني المتلقي للخطاب الحجاجي تمثل المفهوم الدلالي من الحجاج وهو أنَّ من كان تاريخه لا يؤهله للخوض في مسائل الخلافة لا يصح أن يحدد معايير من يتصدى للحكم.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:١/٢٩٦.

(٢) نهج البلاغة: ١٠٥.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١/٢٩٧.

(٤) نهج البلاغة:٦٠٨ .

٤. أين :

اسم يُسأل به عن المكان، قال المبرِّد:"ألا ترى أنَّ(أين) إنَّما هي سؤال عن المكان لا يقع إلا عليه"(١)؛ ومن المساءلة الحجاجية بـ(أين) قول الإمام(ع) في كتابه إلى عثمان ابن حنيف عندما دُعي إلى وليمةٍ بلغة أنَّهُ دُعي إليها:"أينَ القرونُ الذين غررتهم بمداعبكِ؟، أين الأممُ الذينَ فَتَنتِهم بزخارفِكِ؟"(٢)، والتساؤل الذي طرحة الإمام بعد أن وجّه خطابه إلى الدنيا في مقطع متقدم كان هدفه بيان مصير من تمسَّكَ بالدنيا ونَسِيَ الآخرة؛ لإقناع الجمهور بما يطرحه من أفكار، فهم في مساكن الموتى ينتظرون القيامة، ولم تنفعهم زخارف الدنيا؛ فذلك التساؤل يثير في ذهن الجمهور أفكارا تتعلق بمصير الإنسان.

ومقتضى الخطاب أنَّ المجتمع المتلقي يحتاج من الخليفة أو الحاكم النصح والإرشاد لما فيه خير الأمة وصلاحها، فإن كان الخليفة نفسه منحرفا عن جادة الصواب فمن سيقوم بهذا الدور؟.

ومن المساءلة الحجاجية بـ(أين)، قوله(ع) مخاطبا أهل الكيل، والميزان:"أينَ خِيارُكُم وصلحاؤكُم؟، وأينَ أحرارُكُم وسُمَحَاؤكُم؟، وأينَ المتَوَرِّعونَ في مكاسبهم، والمتَنَزِّهونَ في مذاهبهم"(٣)؛ فالإمام يطرح مجموعة أسئلة تمثل الجانب المُظهَر من الحجاج، أما الجواب المضمر فسيكون عند الصالحين ممن يستنهض فيهم الإمام تلك القيم، والنتيجة المطلوبة هي إعطاء الناس حقوقهم وعدم الغش، ومقتضى النص أنَّ المجتمع آنذاك ومع كونه يمثل

---

(١) المقتضب: ٢٨٩/٣ .

(٢) نهج البلاغة: ٦٥١ .

(٣) المصدر نفسه:٣٢٧ .

صدر الإسلام إلا أنَّه ابتعد عن تعاليم الدين، وهو ما أستلزم طرح التساؤل على الجمهور المستهدف بالإقناع؛ للوصول إلى الإقرار بما يعرضه الإمام من أفكار.

٥. كيف :

اسم يُسأل بهِ عن الحال(١)، ووقع الخلاف بين النحاة في ظرفيتها؛ فقد عدَّها سيبويه من الظروف المبهمة غير المتمكنة(٢)، وهي بمعنى "على أيةِ حالة"(٣)، وردَّ ابن يعيش الرأي القائل بظرفيتها، بقولهِ:"والصحيح أنَّها اسمٌ صريح غير ظرف"[٤]، ورأى ابن مالك(ت٦٧٢هـ) أنّ تسميتها بالظرف مجازية؛ "إذ ليست زمانا ولا مكانا، ولكنَّها لما كانت تفسّر بقولك: على أيِّ حال لكونها سؤالاً عن الأحوال العامة سميت ظرفا"[٥].

ووقعت المساءلة الحجاجية بـ(كيف) في نصوص متعددة، منها قوله(ع):"**كيف تُسيغُ شرابا وطعاماً وأنت تَعلمُ أنَّك تأكلُ حراما وتشربُ حراما وتبتاعُ الإماءَ وتنكحُ النساء من مالِ اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاءَ الله عليهم هذهِ الأموالَ وأحرزَ بهم هذه البلاد**"[٦]؛ فالنص ورد في كتابه إلى ابن عباس ومنه إلى جمهور الولاة لاسيما من يخون الأمانة منهم، وقد أشرتُ إليهِ فيما تقدم من البحث، والمساءلة بـ(كيف) تستلزم الإجابة المتمثلة

---

(١) ينظر:المقتضب: ٢٨٩/٣ .

(٢) ينظر في ذلك: الكتاب: ٤٤/٢، والدلالة والتقعيد النحوي:٢٤٣ .

(٣) الكتاب:٢٧٨/١ .

(٤) شرح المفصل: ١٠٩/٤ .

(٥) همع الهوامع:٢١٥/٣-٢١٦ .

(٦) نهج البلاغة:٦٤٤ .

بالمفهوم الدلالي المضمر في نفس المتلقي وهو الإقرار بضرورة إعادة الأموال المأخوذة من بيت المال.

ومن الحجاج بـــ(كيف) قوله(ع) في كتاب إلى معاوية:"**وكيف أنت صانعٌ إذا تكشَّفت عنكَ جلابيبُ ما أنت فيهِ من دنيا قد تَبَهَّجَــت بزينتِهـــا، وخــدعت بلذِّتِها؟**"[1].

ففي النص تساؤل يستهدف منه الإمام الحصول على اقتنـــاع معاويـــة وأتباعه بأنَّ الدنيا فانية، وهذا الاقتناع ينبغي أن يقودهم إلى الاعتراف بالخلافة الشرعية؛ فالنتيجة المطلوبة من طرح السؤال والجواب المضمر هي حقن دماء المسلمين والدخول في طاعة الإمام(ع).

٦. مَن :

ترد للسؤال عن(العاقل)[2]، ووردت المساءلة بها في مواضـــع متعـــددة منها قول الإمام:" **فمن أقربُ إلى الجنةِ من عاملها؟، ومن أقربُ إلى النارِ مـــن عاملها؟**"[3]؛ فالمساءلة كانت بمن لترسيخ مفهوم العمل للآخرة، والملاحـــظ أنَّ الإمام(ع) عبَّر عن الملتزم بما أمر الله والعاصي له بالعامل؛ فكلاهمـــا يعمـــل للآخرة لكن أحدهما يعمل للجنة والآخر يعمل للنـــار، وهـــذه التفاتـــة منـــه(ع) تستوجب توقف المتلقي عندها؛ فالعاصي يعمل في هلاكه ودخوله النار بســـبب عمله هو لا بظلم من الله تعالى أو إكراه منه للعبد على المعصية بحسب ما تزعم بعض المدارس الإسلامية؛ والنتيجة أو المفهوم الدلالي من الحجاج أنَّهُ لا يوجد مستحقٌ للجنة إلا من عمل لها، كما أنَّ عمل الباطل يقتضي العمل للنار، وقـــد

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٥٨٧ .

(2) ينظر: المقتضب: ٨١/١ .

(3) نهج البلاغة: ٦٠٥-٦٠٦ .

اقترنت الحجة بفاء السببية بعد النتيجة المتقدمة التي ساقها الإمام وهي وحذر الموت؛ فلا عمل بعده وعمل الخير يعني العمل للجنة والعكس بالعكس، ومقتضى النص أنَّ هناك من يعتقد أن دخول النار لا يكون بعمل العبد لأنَّه يعتقد أنَّه مجبر على ارتكاب المعاصي فهو بحسب هذه النظرة غير مرتكب للمعصية، وقد تصدى الإمام لتصحيح هذه الفكرة.

ومن المساءلة الحجاجية بـ(مَن) قوله(ع) في خطبة له مبيِّنا قربه من الرسول (ص):"**فمن ذا أحقُّ بهِ منّي حيّاً وميّتاً؟**"[1]؛ فالإمام يُشكِل على الجمهور المتلقي؛ لإقناع من يرى الإمام كغيرهِ من الصحابة في منزلتهِ من النبي(ص) ذاكرا بعض ما أختصَّ به الإمام من صفات ومؤهلات للخلافة، وقد اقترنت المساءلة الحجاجية برابط الاستنتاج الذي أشار إليه(ديكرو)[2]، فبعد أن يذكر سلسلة من الحجج يصل إلى النتيجة المطلوبة التي صاغها بتساؤل وهي أنّه أحق القوم بخلافة النبي(ص) ، وقد ذكرت في مبحث التوكيد أنَّ الروابط الحجاجية تلعبُ دورا في ترابط النص وبخاصة عند ذكر النتيجة المطلوبة؛ فالإشكال نفسه هو ما يقود المتلقي إلى الإقرار بصحة ما يطرحه الإمام، والمقتضى الدلالي للخطاب الحجاجي أنَّ الإمام انفرد بما أسلفه من حجج تؤهله للخلافة وهو ما اقتضى إقرار المتلقي بصحة ما يطرحه الإمام(ع).

٧. متى :

من الظروف المبنية عند النحاة[3]، ويتساءل بها عن الزمان[4]؛ وقد وردت المساءلة الحجاجية بها في قول الإمام لمعاوية:"**متى ألفيتَ بني عبد**

---

[1] نهج البلاغة: ٥٠٧ .

[2] الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه: ٣٤٠ .

[3] ينظر: الكتاب:١/١١٠، ٢/٣١١ .

المطلب عن الأعداءِ ناكلينَ، وبالسيوف مخوَّفين"[2]؛ فالإمام وظّف دلالــة(متى) على الزمان في حجاجه لمعاوية وجمهوره؛ فقد زعم معاوية أن لــيس للإمــام وأصحابه إلا السيف، فتساءل الإمام عن الزمن الذي خاف فيه أبناء عبد المطلب لكي يأتي اليوم معاوية مهددا سيد الهاشميين وهو الإمام(ع) بالسيف، والجــواب يمثل النتيجة المضمرة التي يريدها الإمام وهي الحصول على إقــرار معاويــة وأتباعه بأنَّ الإمام ليس ممن يخوّف بالسيوف لاسيما سيوف أعداء الله؛ ومقتضى النص أنَّ هناك من ينكل عن مواجهة أعداء الدين أو يتهاون في إقامــة أحكــام الشريعة لخوفه من قوة الآخرين وبخاصة من يملك نفوذا قبليا.

ومن ذلك حجاج الإمام(ع) معاوية وأتباعه في قوله:"**ومتــى كنــتم يــا معاويةُ ساسة الرعيةِ، وولاةَ أمر الأمةِ، بغير قدمٍ سابق، ولا شرفٍ باسق؟**"[3]، فالإمام أشكل على معاوية بـــ(متى)؛ متسائلا عن الزمن الذي كان فيه آل أميــة قادة الرعية ومقتضى السؤال الحجاجي أنَّ معاوية ادعى أنَّ بني أمية ولاة أمــر الأمة، وذلك جزء من العقلية القبلية التي يفكر بها، فقد عدَّ خلافة عثمان(رض) ملكا لبني أمية تجسيدا لمقولةِ أبيهِ:"يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فــو الــذي يحلفُ بهِ أبو سفيان، ما من عذاب، ولا حساب"[4]، فكــان ردُّ الإمــام تســاؤلا حجاجيا موجّها إلى معاوية والإجابة مضمرة وهي ضرورة إقراره وجمهوره بما يطرحه الإمام(ع) من كون معاوية غير مؤهل للخلافة؛ فالإمام يستهدف إقنــاع من ضلّله معاوية؛ ليدرك أنَّ معاوية وأمثاله لا تصح فيهم الخلافة؛ فهــم مــن

---

(1) ينظر: شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: ٣٩٠.

(2) نهج البلاغة: ٦١١.

(3) المصدر نفسه: ٥٨٧ .

(4) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٩/٥٣ .

حاربَ الإسلام في مهده ومن حارب امتداد النبي وهو الخليفة والإمام بعد وفاة النبي(ص) .

٨. أيٌّ :

من أسماء الاستفهام وهي من دون سائرها مُعرَبة[١]، وعلَّل ابن مالك إعرابها بقولهِ:"ما في أيّ من تضمن معنى حرف الاستفهام، معارضٌ بشبه كل وبعضٍ، وبشبه(أيّ) الموصوف بها في نحو، مررتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ، ومعارضٌ بالإضافة القياسية وهي الإضافة إلى المفردات دون لزوم في اللفظ"[٢].

ويُتساءل بـ(أي) عن وصف المستفهم عنه، قال السكاكي(ت٦٢٦هـ): "(أي) للسؤال عما يميز أحدُ المتشاركين ِفي أمرٍ يهمهما، يقول القائل:عندي ثيابٌ، فتقول: أيُّ الثياب هي؟"[٣].

وردت المساءلة الحجاجية بـ(أي) في نصوص متعددة منها قوله(ع) لمعاوية فيما حدث لعثمان: "**أيُّنا كان أعدى له، وأهدى إلى مقاتلهِ؟، أمَن بذل له نصرتَه فاستقعدهُ واستكفَّهُ، أم مَن استنصرَهُ فتراخى عنه وبثَّ المنون إليهِ؟**"[٤]؛ فاتصلت(أيُّ) بالضمير(نا) العائد على علي ومعاوية؛ فالإمام يطرح تساؤلا يتعلق بالعداء الحقيقي للخليفة عثمان؛ فأيهما أشد عداوة وبغضا بالخليفة عثمان؟ من بذل له النصح ودفع عنه أم من تراخى عن نصرته ورجع عندما أيقن أن الخليفة محاصر وتركه يلاقي الموت؟، وقد اتصفت المساءلة في هذا الموضع بأنّ الإمام أجابَ عن التساؤل الأول بتساؤل ثانٍ بالهمزة جزءا من

---

(١) ينظر: شرح جمل الزجاجي: ٢/٤٧٥-٤٧٦، وشرح المفصل: ٤/٢١ .

(٢) شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: ٣٩١ .

(٣) مفتاح العلوم:١٥٠.

(٤) نهج البلاغة: ٦١١ .

ترسيخ المفهوم الحجاجي في النص؛ إذ لم يختر الإمام(ع) الإجابة الصريحة عن الإشكال الأول بل اختار التساؤلة المبنية على الهمزة وأم المعادلة التي قدَّرها النحاة بمعنى(أيّهما أو أيّهم)(١)، فأعاد صياغة التساؤل بأداة أخرى ليكون أبلغ في الحجاج بذكرِ ما قام بهِ الإمام من نصرةٍ للخليفة عثمان فطلبَ الخليفةُ قعودَهُ واستنصر معاويةَ بدلا عنه فخذله ابن عمه وتركه، والإجابة تمثل الجانب المُضمر في النص الحجاجي، وهي إقرار معاوية بأنَّه خذل عثمان في حياته ومن ثم لجأ للمطالبة بدمه ليحصل على ما يريده من مكاسب.

ومن المساءلة بـ(أيٍّ) مضافة إلى اسم ظاهر قول الإمام للحسن(عليهما السلام) في وصيته له:"وأيُّ سببٍ أوثقُ من سببٍ بينكَ وبينَ اللهِ إن أنتَ أخذتَ بهِ؟"[2]؛ فالإمام يطرح تساؤلاً على ابنهِ الحسن يتعلق بـ(المستفهم عنه) وهو السبب بين العبد وربه أو الطريق المثالي التي يسلكها العبد للوصول إلى الله تعالى؛ فهذه الصلة يجب أن تكون قوية، وقوتها تكمن بتمسك العبد بما أمره الله تعالى، والمفهوم الدلالي أو النتيجة هي لزوم الارتباط بالله تعالى.

٩. أنّى :

من الأسماء التي يتساءل بها عن الحال وعن المكان[3]، قال سيبويه:"(أنّى) تكون في معنى(كيف) و(أين)"[4]، وقد زاد عليها بعض النحاة معنى الاستفهام عن الزمان[5].

---

[1] ينظر في ذلك: الأزهية في علم الحروف: ١٣١، والجنى الداني: ٢٠٥ .

[2] نهج البلاغة: ٦١٦ .

[3] ينظر في ذلك: شرح المفصل:٤/١١٠، والإيضاح في علوم البلاغة: ١٣٢ .

[4] الكتاب:٢/٣١٢ .

[5] ينظر في ذلك: شرح الرضي على الكافية: ٢/٢٠٣ .

وقد تساءل بها الإمام في مواضع متعددة من حجاجه منها قوله(ع) لمعاويةَ في كتابٍ له:"**وأنّى يكونُ ذلك كذلك؟، ومنّا النبيُّ ومنكم المكذّبُ، ومنا أسدُ اللهِ ومنكم أسدُ الأحلاف، ومنّا سيّدا شباب أهل الجنة ومنكم صبيةُ النار، ومنا خير نساءُ العالمين ومنكم حمالةُ الحطب**"[١].

فالمساءلة الحجاجية كانت بـ(أنّى) وهي بمعنى(كيف)، وقد تساءل الإمام بها بعد أن ساوى معاوية الأمويين بالهاشميين في الفضل؛ فتساءل(ع) عن الكيفية التي جعلت من يحارب الإسلام والمسلمين الأوائل بمنزلة من حمل الرسالة ودافع عنها، فذكر(ع) في سياق ذلك شخصيات رئيسة في كلا البيتين مقابلا بينها، والجواب المضمر عند متلقي الكتاب سواء أكان معاوية وأتباعه أم الجمهور الكوني الذي سيصله الخطاب يمثلُ النتيجة المطلوبة من الحجاج، وهي إقرارهم بعدم مساواة من لا فضل له بل المعادي للإسلام بمن حاز السبق في الإسلام فضلا عن الجاهلية.

ومن المساءلة بـ(أنّى) قوله(ع) في خطبتهِ الغرّاء:"**يا أولي الأبصار والأسماعِ، والعافيةِ، والمتاعِ، هل من مناصٍ أو خلاصٍ، أو معاذٍ أو ملاذٍ، أو فَرارٍ أو مَحارٍ، أم لا، فأنّى تُؤفكون؟**"[٢]؛ فالنص يتضمن طاقة حجاجية عالية؛ فقد بدأهُ الإمام بأداة نداء للجمهور المتلقي الذي وصفه بما يلزم من مثلهِ الاستعداد للقاء الله تعالى، ثم طرح المساءلة بـ(هل) ممهِّدا بذلك للإشكال الرئيس في النَّص، وهو قوله: "**أنّى تُؤفَكون**"، وقد بُنِيَ النص الحجاجي على ظاهرتينِ تُعدان من عوامل تماسك النص، الأولى هي:السجع في جملة الاستفهام

(١) نهج البلاغة:٦٠٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٥ .

بـ(هل)، فالسجع من عناصر السبك الصوتي[1]، وهو في النص من نوع الترصيع الذي تتماثل فيهِ الكلمتان في الوزن والقافية[2]، والثانية هي إعادة الصياغة التي تعني تكرار المحتوى الدلالي بوساطة تعبيرات مختلفة[3]؛ فقد أعاد الإمام صياغة فكرة الخلاص من الموت بألفاظ مختلفة، ووردت(أم) للتخيير لحمل الجمهور المتلقي من خاص وعام على الاقتناع بعدمِ وجود مفر من الموت، فالإشكال الأول يقود المتلقي إلى الإقرار بعدم وجود ملاذ من أمر الله فتأتي المساءلة بـ(أنَّى) وهي بمعنى(أينَ)؛ لتوكيد ما أقرّه المتلقي بعدم وجود مفرٍّ من الله تعالى؛ و(تؤفكون) بمعنى(تقلبون)[4]؛ فأينَ اللجوء من أمرِ اللهِ تعالى حين لا لجوء أصلا من ذلك العقاب الذي تقشعر له أبدان الخلائق؟، ومقتضى النص أنَّ من اليقين القاطع أن لا مفرّ من عقاب الله تعالى.

وقد استعمل الإمام ثنائية الفكر واللغة(اللوغوس) في حجاجه المؤسَّس على نظرية المساءلة بالأدوات، وقد تركّزت جهود علماء الحجاج في عصرنا على هذه الثنائية[5]، وهو ما أشرت إليه عند حديثي عن مفاهيم الحجاج في العصر الحديث، ولشخصية الخطيب(حجة الإيتوس) أثرها المهم في إقناع الجمهور فلا يصح إغفال دور الخطيب في التأثير في ذهن الجمهور ولاسيما ونحن نتصدى لبحث حجاجية خطاب عليٍّ بن أبي طالب(ع) الذي فاق جميع المسلمين في صفاته الكريمة وخير الناس بعد الرسول(ص) فتظافرت

---

[1] ينظر في ذلك: نظرية علم النص،رؤية منهجية في بناء النص النثري: ١١٦-١١٧

[2] ينظر في ذلك: الشرح المختصر:٤٧٢ .

[3] ينظر في ذلك: لغة القانون في ضوء علم لغة النص: ١٨٥ .

[4] ينظر: لسان العرب(أفك):١٠/٣٩١ .

[5] ينظر في ذلك: الحجاج، مفهومه ومجالاته:١/٣٠-٣١ .

حجتا(اللوغوس)، و(الإيتوس) في حجاج الإمام، والملاحظ أنّ الدراسات المتعلقة بالإنجازيات أو(الأعمال اللغوية) عدّت(الاستفهام) أو المساءلة بـالأدوات حـدثا لغويا؛ فهو: "عمل طلبي موجَّه إلى المخاطب ويسعى إلى حمله على الإجابة"[١]، وبموجب هذه النظرة يكون الخطاب الحجاجي منجزا لحـدثين أحـدهما حـدث رئيس يتمثل بإقناع الجمهور بالأطروحة المعروضة، والآخر يمثل فعل التساؤل الذي يتم يتم به إنجاز الفعل المطلوب مـن الخطـاب ولا نسـتطيع أن ننعتـه بـ(الحدث الثانوي)؛ لتوقف فعل الإقناع عليه بل هما حـدثان يكمـل أحـدهما الآخر؛ فالغرض من المساءلة بالأدوات إقناع المتلقي، وهذه الأدوات هي الوسيلة في الخطاب المؤسس عليها للإقناع.

---

[١] دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات:١٩٥.

المبحث الثالث

الشَّرط في الخطاب الحِجاجي

حدَّ اللغويون الشَّرط بأنَّه: "إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه..، والشَرَطُ بالتحريك: العلامة، والجمع أشراط، وأشراط الساعةِ أعلامها"[١].

وفي اصطلاح النحويين:"هو وقوع الشيء لوقوعِ غيرهِ"[٢]، فالمعنى اللغوي يقترب كثيرا من المعنى النحوي؛ لذا عبَّر عنه بعضهم بأنَّه: "كل حكم معلوم متعلق بأمر يقع بوقوعه، ذلك الأمر كالعلامة له"[٣].

وأدوات الشرط في النحو العربي بحسبِ عملها على قسمين: الأول يتمثل بأدوات الشرط الجازمة، وهي نوعان حروف وأسماء، يقول سيبويه: "فما يُجازى به من الأسماء غير الظروف من، وما، وأيُّهم، وما يُجازَى بهِ من الظروف أيُّ حين، ومتى، وأين، وأنَّى، وحيثما، ومن غيرهما، إن، وإذما"[٤]والملاحظ أنَّها عشر أدوات عنده، وهي عند ابن هشام(ت٧٦١هـ) إحدى عشرة أداة بإضافة(مهما)؛ فهي: إن، وإذما، ومن، وما، ومهما، ومتى، وأيَّان، وأين، وأنَّى، وحيثما، وأيّ بحسب ما تضاف إليه[٥].

---

(١) لسان العرب:(شرط): ٣٢٩/٧ .

(٢) المقتضب: ٤٦/٢ .

(٣) المفردات في غريب ألفاظ القرآن:٤٥٠ .

(٤) الكتاب:٤٣١/١-٤٣٢ .

(٥) ينظر: شرح شذور الذهب:٣٥١-٣٥٤ .

وعدَّ قطرب(ت٢٠٧هـ)، والكوفيون(كيف) من أسماء الشرط[1]؛ وجوزوا الجزم بها قياسا، ورفض ذلك البصريون[2].

أمَّا القسم الثاني من أدوات الشرط فهي الأدوات غير الجازمة، وهي: "إذا، وكلما، ولو، ولولا، ولوما، وأمَّا، ولمَّا"[3]، والملاحظ أنَّ النحاة القدماء لم يفردوا أدوات الشرط غير الجازمة بالبحث في مصنفاتهم؛ لانشغالهم برعاية آثار العمل النحوي في بحثهم الأدوات الجازمة في باب جزم الفعل المضارع؛ فجاءت دراسة الأدوات غير الجازمة متناثرة في مصنفات النحاة التي تناولت حروف المعاني ودلالتها.

والجملة الشرطية هي الجملة المؤلَّفة من فعل الشرط وجوابه؛ ولم تُبحَث جملة الشرط بصورة مستقلة ضمن أقسام الجملة العربية في معظم ما بحثه النحاة العرب، ولكن وردت بعض الإشارات لدى النحاة تلمِّحُ إلى استقلالها، وإلى أنَّ جملة الشرط هي جملة واحدة مكونة من ركنينِ هما فعل الشرط وجوابهِ؛ فقد أشارَ سيبويه إلى التلازم بين ركني الشرط مشبِّهًا إياه بالتلازم بين ركني الجملة الاسمية؛ لأنَّهُ:"لا يستقيم واحدٌ منهما إلا بالآخر، فشبَّهوا الجواب بخبرِ الابتداء، وإن لم يكن مثله في كل حالة"[4].

وممن تنبَّه إلى التلازم بينهما ابن السراج(ت٣١٦هـ) الذي أدرك الطابع الكلي لجملة الشرط، فقال:"لابد للشرط من جواب وإلا لم يتم الكلام، وهو نظير

---

(1) ينظر: شرح جمل الزجاجي:٢/١٩٩، وشرح التسهيل:٤/٧١ .

(2) ينظر: شرح التسهيل:٤/٧١ .

(3) التراكيب اللغوية: ١٩٨ .

(4) الكتاب:١/١٣٠ .

المبتدأ الذي لابد له من خبر"[1]، وهكذا نرى أنَّ الجهود النحوية المتقدمة وما اختصت بهِ جملة الشرط من ترابط بين جزأيها دفعت الزمخشري إلى القول باستقلالها عن الفعلية.

وأشار ابن يعيش(ت٦٤٣هـ) إلى أنَّ تقسيم الجملة على: اسمية، وفعلية، وظرفية، وشرطية هو تقسيم أبي علي الفارسي(ت٣٧٧هـ)، وعقَّبَ ذلك بما يراه من أنَّ الجملتينِ الشرطية والظرفية ترجعان إلى الجملة الفعلية؛ "لأن الشرطية في التحقيق مركبة من جملتينِ فعليتينِ الشرط فعل وفاعل، والجزاء فعل وفاعل، والظرف في الحقيقة للخبر الذي هو أستقَر وهو فعل وفاعل"[2]، وبهذهِ الآراء كانَ القول باستقلال الجملة الشرطية عن القسمينِ الآخرين قد تراجع أمامَ الرأي السائد عند جمهور النحاة ولم يكتب له الانتشار.

أما المحدثون فكانت آراؤهم متباينة في عدِّ جملة الشرط قسما مستقلاً عن الجملة الفعلية، فمنهم من تابعَ الأقدمين في عدِّها من قبيل الجمل الفعلية معللا ذلك بأنَّ ضَمَّ التراكيب اللغوية المختلفة إلى النمطين الرئيسينِ أولى من جعلها أقساما[3].

ورأى الدكتور المخزومي أنَّ جملة الشرط تتألف من عبارتينِ "لا استقلال لإحداهما عن الأخرى"[4]، وذكر أنّه ليس في الاعتبارات اللغوية جملة للشرط، وجملة للجواب، وإنما جملة واحدة[5] .

---

(1) الأصول في النحو:٢/١٥٨، والتراكيب الإسنادية:١٤٢-١٤٣ .

(2) شرح المفصل:١/٨٨ .

(3) ينظر في ذلك:الدلالة الزمنية للجملة العربية في القرآن الكريم: ٤٩-٥٠ .

(4) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٣٠٧ .

(5) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٩ .

ويبدو لي أنَّ الخلاف في تحديد تركيب الشرط قسما مستقلا عن الجملة الفعليةِ هو فرعٌ على الخلاف في تحديد دلالــةِ مصــطلحي(الكلام، والجملــة)؛ فالقول بترادفهما أو تقاربهما يجعل الإفادة شرطا رئيسا في توضيح دلالة الجملة وهو ما يقتضي عدَّ فعل الشرط وجوابه جملة واحدة، أمَّا القول بوجــود فــرق بينهما فلا يؤدي إلى اشتراط الإفادة، وهو ما يجعل القول بوجود جملتين للشرط، والجواب أمرا مقبولا؛ فكل منهما يمثل جملة وإن لم تكن مكتملة المعنى أو غير مفيدة بمفردها.

وقد أشارَ جمع من علمائنا القدماء إلى اســتعمال مصــطلحي(الكلام) و (الجملة) بمعنى واحد فقد تحدّث المبرد عن الابتداء بقولهِ: "فالابتداء نحو قولك: زيدٌ، فإذا ذكرته فإنَّما تذكرهُ للسامع؛ ليتوقع ما تخبر به عنه فإذا قلت: منطلــق، أو ما أشبهه صحَّ معنى الكلام، وكانت الفائدة للسامع في الخبر"[1].

فالمبرد كما يظهر من النّص يعد وجود الخبر في(الجملــة الاســمية) متمما للفائدة وبه يصح معنى الكــلام، وذكــر ابــن جنــي(ت٣٩٢هــــ) أنَّ مصطلح(الكلام) هو بمعنى(الجملة)، فقال عن(الكلام):"كل لفظ مســتقل بنفســهِ، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميهِ النحويون الجمل"[2]، كما أنَّهُ:"في لغةِ العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذهِ الصناعة الجمل على اختلاف تراكيبها"[3].

---

(١) المقتضب: ١٢٦/٤ .

(٢) الخصائص: ١٧/١ .

(٣) المصدر نفسه: ٣٢/١ .

وساوى عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)، بين الكلام والجملة؛ فقال:"اعلم أنَّ الواحد من الاسم والفعل والحرف يُسمَّى كلمة، فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا، نحو: خرج زيدٌ، سُميَ كلاما، وسُميَ جملة"[١].

وممن ساوى بين الجملة والكلام الزمخشري؛ فقد عرَّف الكلام بأنَّهُ:"هو المركب من كلمتينِ أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذاك لا يتأتى إلا في اسمينِ كقولك: زيدٌ أخوك، وبشرٌ صاحبُك أو في فعل واسم نحو قولك: ضُرِب زيدٌ، وانطلق بكرٌ، وتُسمَّى الجملة"[٢]، وتابعه ابنُ يعيش في مساواته بين الكلام والجملة دلاليا، فقال:"اعلم أنَّ الكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويُسمَّى الجملة"[٣].

وهذهِ الآراء التي ذكرتها لأعلام في تاريخ النحو إنّما تمثل توجُّها صحيحا لعدم التفريق بين مصطلحي (الكلام، والجملة)، وهو ما جعل الأستاذ محمد حماسة عبد اللطيف يقول إنَّ:"التعريف الذي نرتضيهِ للجملة هو تعريف ابن جني؛ لأنَّهُ يناسب الفهم اللغوي الحديث"[٤].

وتأسيسا على ذلك أرى أنَّ جملة الشرط لا يصح أن تُقسَم على قسمينِ؛ فهي كلامٌ تام المعنى بقسميها، وهذا الأمر يتعلقُ على نحو كبير بدراسة(الحِجَاج)؛ إذ إنَّ دراسة جملة الشرط بوصفها كلاما تاما يدخل في الوسائل اللغوية المستعملة في الحوار الإقناعي؛ لذا عدَّت أدوات الشرط من أهم

---

(١) الجمل: ٤٠.

(٢) شرح المفصل: ٢٠/١ .

(٣) المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

(٤) العلامة الإعرابية في الجملة: ٨٣ .

الروابط الحجاجية[1]، وقد وردت النصوص المبنية على رابط الشرط لتمثل جانب(الحجّة) ضمن حركة الحجاج في نهج البلاغة، وبذلك يوظّفُ تركيب الشرط مع الروابط الحجاجية الأخرى في النص كالسببية لإقناع المتلقي.

وتجب الإشارةُ قبل أن أدرس الشرط الحجاجي في النهج إلى أنّني لن أدرسه تحت مصطلح أدوات(الاقتضاء) وهو ما وجدته في بعض الدراسات الحجاجية[2]؛ لأنّ ذلك يتداخل مع مفهوم(اقتضاء النص) الذي يعد من أفكار الدرس التداولي فضلا عن أنّ مصطلح(الشّرط) مستقر في تراثنا النحوي عبر العصور.

وأبرز الروابط الشرطية في حجاج النهج، هي:

١. إنْ :

وصفها النُّحاة بأنّها أمُّ الباب، يقول سيبويه:"زعم الخليل أنّ(إن) هي أم حروف الجزاء فسألتهُ لم قلتَ ذلك، فقال: من قِبل أنّي أرى حروف الجزاء قد يتصرفْنَ فيكنّ استفهاما، ومنها ما يفارقه(ما) فلا يكون فيه الجزاء، وهذه على حال واحدة أبدا لا تفارق المجازاة"[3]؛ ومما أشارَ إليه النحاة أنّها لا تُستعمَل إلا في ما كان مشكوكا في وقوعه، قال ابن يعيش:"(إن) في الجزاء مبهمة لا تُستعمل إلا في ما كان مشكوكا في وجوده؛ لذلك كان بالأفعال المستقبلة؛ لأنّ الأفعال المستقبلة قد توجد وقد لا توجد"[4].

---

(١) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٤٤.

(٢) ينظر في ذلك: الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه:٣٣٥، والبعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني:٤٤ .

(٣) الكتاب:١/٤٣٥ .

(٤) شرح المفصل:٩/٤ .

وقد ورد تركيب الشرط في الحجاج في أمثلة متعددة منها قوله:"**وإن عقدتَ بينَك وبين عدوِّكَ عقدةً أو ألبستَهُ منك ذمَّةً، فحط عهدَكَ بالوفاء، وارعَ ذمَّتكَ بالأمانة**"[1]؛ فالإمام في هذا النص يحاور عامله وصولا إلى نتيجة مطلوبة من الحجاج هي لزوم حفظ العهود ورعاية الذِّمة حتى مع الأعداء، وما يطرحهُ الإمام لا يتوقف على الأشتر بوصفه مخاطبا مباشرا بل يتجاوزه إلى غيره من ولاة الأمور؛ والإمام يطرح فكرة الالتزام بحفظ العهود؛ لتكون حجَّة على القادة في كل عصر ومكان، وهو ما ينسجم مع مقتضى النص؛ فينبغي عندئذ تنبيه هؤلاء المتعاهدين على الوفاء؛ فلم يستعمل الإمام(ع) مركزه الديني أو السياسي ليسوغ الغدرَ بأعدائهِ لأيِّ سببٍ كان، والنَّص يمثل امتدادا لمجموعة من النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحثُّ على الوفاء بالعهد وجمعتها بعض المصادر[2].

ومن الشرط الحجاجي بـ(إنْ) قوله(ع) واصفا حاله مع معاوية:"**فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى أحملْهم من الحق على محضه**"[3]؛ فالإمام يحاجج من سألهُ عن موقفهِ(ع) ومقتضى النَّص أن هناك من تساءل عن موقفه من معاوية والنتيجة المطلوبة أنَّ الإمام لن يترك معاوية من دون أن يحملَه على الخضوع للخلافة، و(المحض):"كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض"[4].

---

[1] نهج البلاغة: ٦٧٩ .

[2] ينظر في ذلك: ميزان الحكمة: ١/٢١٨-٢١٩ .

[3] نهج البلاغة: ٣٩٠ .

[4] تهذيب اللغة(محض): ٤/٢٢٥ .

ومن ذلك قوله(ع) لطلحة والزبير بعد خروجهما لحربهِ: "**فإن كنتما بايعتماني طائعينِ فارجعا وتوبا إلى اللهِ من قريبٍ، وإن كنتُما بايعتماني كارهينِ فقد جعلتما لي عليكما السَّبيل بإظهاركما الطاعة وإسرارِكما المعصية**"[1]؛ ففعل الشرط في(إن) الأولى ماضٍ والجواب جملة طلبية مقترنة بالفاء، أما(إن) الثانية ففعلها ماضٍ، والجواب مقترن بالفاء لأنَّ فعله ماضٍ مسبوق بـ(قد)، ومقتضى النص أنَّ أصحاب الجمل وجمهورهم احتاجوا إلى تذكيرهم ببعض الحقائق، والنص تضمَّن حجتين ارتبطتا برابط التتابع(الواو) وهاتان الحجتان تخدمان النتيجة المطلوبة من الحجاج وهي لزوم دخولهم في طاعتهِ لأنَّهم أظهروا الطاعة وبايعوه سواء عن قناعة أم كره، والملاحظ أنَّ الإمام استعمل صيغة اسم الفاعل في بيان كون بيعتهما عن كره؛ فقال: كارهينِ، ولم يقل: مُكرَهينِ، ومقتضى الصيغة الصرفية أنَّه(ع) لم يكره أحدا على بيعته، فهما كارهين لبيعة عليٍّ لا(مُكرَهين) عليها، وليس لهما أن يدعيا ذلك أمام جمهورهما، وحتى لو ذكرا ذلك فإنه مجرد ادعاء لا يتطابق مع الواقع، وأنَّ بيعتهما لم تكن عن تقيةٍ وكتمان؛ لأنَّهُ بحسب تعبير ابن ابي الحديد المعتزلي لو كان عندهُ "ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهية ذلك سواء"[2].

٢. من :

من أدوات الشرط الجازمة التي تفيد تعليق الجواب على الشرط في المستقبل[3]، وتستعمل للدلالة على العقلاء.

---

[1] نهج البلاغة: ٦٨٤ .

[2] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣٤/١٧ .

[3] التراكيب الإسنادية: ١٤٩ .

يقول المبرد: "تقول في(من): من يأتني آته، فلا يكون ذلك إلا لما يعقل"[1].

وقد وردت نصوص حجاجية مصدَّرة بـ(مَن) الشرطية منها قول الإمام لابنهِ الحسن(ع) في وصيتهِ: "**مَن أكثرَ أهجرَ، ومن تفكَّر أبصر**"[2]؛ ففي المقطع السابق نرى حِجاجا بـ(مَن) في تركيبين شرطيين، والنتيجة مضمرة وهي في الجملة الأولى لزوم ترك الإكثار في الكلام؛ لأنَّه يؤدي إلى(الهجر) وهو بمعنى الهذيان[3]، وفي الثانية طلب التفكُّر؛ لأنَّه يؤدي إلى إبصار طريق الحق، وقد مثَّل الحجاج بـ(مَن) ظاهرة بارزة في وصيته للحسن في معرض حواره له لإقناعهِ بما يتوجب على الإنسانِ فعلهُ، فمنه قولُه(ع):"**من أمِنَ الزمانَ خانَهُ، ومَن أعظمَهُ أهانَهُ**"[4]؛ فالنص يمثل حجّة لنتيجة مضمرة هي المفهوم الدلالي منه وهو أن لا يأمنَ ذو لُبٍّ الزمانَ وتقلُّبهُ، والمقصودُ طبعا أهل الزمان؛ لأنَّ الزمن بتقسيماتهِ ثابتٌ على مدى الدهور لكن التقلُّب في أهلهِ، والحجاج كان بـ(مَن) نظرا لأنَّ المخاطب فيه هو الإنسان(العاقل).

ومن الحجاج بـ(مَن) الشرطية، قوله(ع) في كتابهِ إلى عاملهِ عندما دُعي إلى وليمة:"**مَن ركِبَ لُججكِ غَرِق، ومن ازوَرَّ عن حبائلك وفِّق**"[5]؛ فالخطاب موجَّهُ إلى الدنيا، وعنى بالحجاج من جعل الدنيا أكبر همِّه، وفعل الشرط وجوابه ماضيان في كل تركيب منهما، ومقتضى النَّص أنَّ هناك من

---

(1) المقتضب:٢/٥٠ .

(2) نهج البلاغة: ٦٢٨ .

(3) ينظر: تهذيب اللغة(هجر): ٦/٤١ .

(4) نهج البلاغة:٦٣١ .

(5) المصدر نفسه:٦٥١ .

احتاج إلى تذكيرهِ بضرورةِ الحذر من الدنيا؛ فمن يطلبها يغرق في بحرها، ومن يبتعد عنها يوفَّق، والنتيجة مضمرة تتمثل في لزومِ الابتعاد عن مكائدِ الشيطان، والمنافع الدنيوية المحرَّمة.

٣. إذا :

ظرف لما يستقبل من الزمان[١]، وعبَّر عنها سيبويه بقولـهِ:"(إذا) فيما تستقبل بمنزلةِ (إذ) فيما مضى"[٢]، ولم يُجزَم بها في النثر، وإنما جُزِم بها في الشعر حملاً لها على(إنْ)[٣]، وعلَّل ابن مالك عدم الجزم بها بأنَّ(إذا) قد تتجرد من معنى الشرط فليس لازما فيها، وهي مضافة إلى ما يليها، والمضاف يقتضي الجرَ لا الجزمَ، وأنَّ ما يليها متيقَّن الوقوع أو ما في حكمهِ بخلاف ما يلي (إنْ) فإنَّ كونه وعدم كونهِ لا رجحان لأحدهما على الآخر[٤]، أي أنَّ استعمال(إنْ) أوسع دلالة من استعمال(إذا) ؛ فهي "للمشكوك فيهِ، وقد تدخل على المتيقَّن وجودُه إذا أُبهِم زمانه، وقد تدخل على المستحيل"[٥].

ووردَ الربط الحجاجي بـ(إذا) في مواضع متعددة منها قول الإمام(ع) في ذمِّ أصحابهِ المتخاذلين:"**أيُّها الفرقةُ التي إذا أمرتُ لم تُطِع، وإذا دعوتُ لم تُجِب**"[٦]؛ فالنَّص حجة تخدم نتيجة مضمرة غير مصرَّح بها وهي وجوب طاعة

---

[١] ينظر: الجنى الداني:٣٦٧، وشرح التسهيل: ٢/٢١١ .

[٢] الكتاب:١/٤٣٣.

[٣] ينظر في ذلك: شرح التسهيل:٢/٢١١، والبهجة المرضية: ٢/١٥٤ .

[٤] ينظر: شرح التسهيل: ٢/٢١١ .

[٥] الجنى الداني: ٣٦٧-٣٦٨ .

[٦] نهج البلاغة:٤٣٠-٤٣١.

الإمام(ع)، وقد أفادت(إذا) تعليق الجواب على الشرط في المستقبل[1]، كما نرى دلالة(إذا) على المتيقَّن وجودهُ واضحة؛ إذ من المتيقن عدم طاعتهم، وعدم إجابتهم لدعوةِ الإمام، ومن مقتضيات النص أنَّ هناك تخاذلا واسعا من قِبلِ جيش الإمام وهو ما دفعه إلى حجاجهم، ولا يتوهم القارئ للخطاب السابق أنَّ المقصود بهِ أصحابه المخلصين فهم قدَ بذلوا أنفسهم دفاعا عن قضيتهِ لكن المقصود بالخطاب عامة الجيش ممن لا قضية له فهو جندي يقاتل تحت راية قائدهِ أيٍّ كان.

ومن الشرط الحجاجي بـ(إذا) قول الإمام في خطبةٍ له في استنفار الناس لحرب الشام:"**إذا دَعوتُكُم إلى جهادِ عدوِّكم دارت أعيُنُكم كأنَّكم من الموتِ في غمرةٍ، ومن الذهول في سكرةٍ**"[2]؛ فالشرط في الخطاب الحجاجي أفاد تعليق الجواب على الشرط في المستقبل وإن كان فعل الشرط وجوابه ماضيين، والنتيجة مضمرة هي حث الجمهور المخاطَب على معاودة جهاد(عدوِّهم).

ومن المواضع الحجاجية المبنية على(إذا) وقد اقترن جوابها بالفاء، قول الإمام لابنهِ الحسن(عليهما السلام) في وصيتهِ له:"**وإذا أنتَ هُديت لقصدِكَ فكن أخشعَ ما تكونَ لربِّك**"[3]؛ فقد اقترن جواب الشرط بالفاء؛ لأنه جملة طلبية من باب الأمر، والملاحظ أنَّ الأداة دخلت على ضمير الرفع المنفصل، والنص فيهِ إشكالية وقوع (الضمير المنفصل) بعد أداة الشرط وهو مخالفٌ لما أفترضه النحاة من وجود جملتينِ بعد الأداة، كلتاهما فعلية، وذلك ما أشرت له في بداية المبحث؛ فإنَّهم وإن رأوا جوازَ أن يكون جواب الشرط جملة اسمية أو طلبية

---

(1) ينظر: التراكيب الإسنادية: ١٥٨ .

(2) نهج البلاغة: ١٣٧ .

(3) المصدر نفسه:٦٢٣ .

بشرط أن تسبَقَ بالفاء[1]، إلا أنَّ الشرط لا يكون إلا فعلا[2]، قال ابن يعيش:"إنَّ الشرط لا يكون إلا بالأفعال لأنَّكَ تُعلِّقُ وجود غيرها على وجودها والأسماء ثابتة موجودة ولا يصح تعليقُ وجود شيء على وجودها"[3]، وقد استثنى النحاة(إنْ) من شرط اختصاصها بالأفعال؛ فأجازوا دخولها على الأسماء، على افتراضِ أنَّ الاسم بعدها فاعل بفعل محذوف[4]؛ ليحافظوا على القول بفعلية جملة الشرط، ولما رأوهُ في(إن) من جواز دخولها على الأسماء، وقد ذكر الرَّضي جواز وقوع الاسم بعد(لو)[5]، مستدلا بقوله تعالى:﴿لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ﴾[6]، والملاحظ أنَّهم لم يشيروا إلى إمكان دخول(إذا) على الأسماء علما أنَّها وردت بهذه الصورة في القرآن الكريم وفي مواضع متعددة ربما تزيد على مواضع ورود (لو)، و القول عند النحاة بجواز ذلك في(إنْ) وغيرها لا يغيِّر في الواقع شيئا؛ إذ إنَّهم أوَّلوا الأسماء أو ضمائر الرفع المنفصلة الواقعة بعد أدوات الشرط بأنَّها مرفوعة بأفعال يجري تقديرها بما يذكر بعدها[7].

ويبدو لي أنَّ هذا الافتراض مفسِدٌ لما يتصفُ بِهِ النص من خروج عن الاستعمال اللغوي المتعارف؛ فالتقديم حصل لبيانَ أهمية اتصاف الضمير

---

[1] ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤/١١٠ .

[2] ينظر: شرح التصريح:٢/٤٠٤ .

[3] شرح المفصل: ٩/٩ .

[4] ينظر: المقتضب:٢/٧٤-٧٥، وشرح المفصل:٩/٩ .

[5] ينظر: شرح الرضي على الكافية:٤/٩٢ .

[6] الإسراء:١٠٠.

[7] ينظر في ذلك:الكتاب، تعليق الشنتمري:١/٤٥٨، والمقتصد في شرح الإيضاح:٢/١١٢٢ .

المنفصل بالجملة بعده، وهو ما نجدهُ في الشواهد التي ذكرها النحـــاة؛ إذ وردت في معرض الفخر بالانتماء القبلي أو بالكرم، والنص الحجاجي السابق تضـــمَّن عنصري الحجة والنتيجة التي يريدها الإمام من ابنهِ كمتلقٍ أوليٍّ ومن كل متلقٍ آخر للنص، إذ حاججه(ع) بالهداية لغرض إقناعه بالخشوع عند ذكر الله تعالى، وكانت الأداة(إذا) في النصوص السابقة تفيد المعنى الذي ذكرهُ النحاة من أنّهــا لتعليق الجواب على الشرط في المستقبل[1].

٤. لو :

أداة شرط غير جازمة تفيد تعليق الجواب على الشـــرط فـــي الـــزمن الماضي وهو الأغلب فيها[2]، وقد تأتي لتعليق الجواب في المستقبل[3]، وأنكـــر ابن الناظم دلالتها على الشرط في المستقبل[4]، ورأيه مردودٌ بأكثر مـــن شـــاهد قرآني وغيره[5]، واختُلِفَ في دلالتها على الامتناع، فذهبَ نحاةٌ إلى أنّها حـــرف امتناع لامتناع[6]، وهذا الرأي عبَّر عنه ابن هشام بأنّه" باطل بمواضع كثيـــرة"[7]، واحتج لذلك بآيات قرآنية تثبت دلالتها أنَّ جواب(لو) فيها ليس ممتنعا، فهي حرف لامتناع الشرط خاصة ولا دلالة فيها على امتناع الجواب[8]، ورأى ابـــن

---

(١) ينظر: الجنى الداني:٣٦٧، والتراكيب الإسنادية: ١٥٧ .

(٢) ينظر: شرح التصريح:٢/٤١٩ .

(٣) ينظر: الجنى الداني:٢٨٤ .

(٤) ينظر: ألفية ابن مالك لابن الناظم: ٢٧٧ .

(٥) ينظر في ذلك: مغني اللبيب:٢٥٤، وحاشية الصبان:٤/٥٣-٥٤ .

(٦) ينظر: رصف المباني:٢٨٩، والجنى الداني:٢٧٦ .

(٧) مغني اللبيب:٢٥١.

(٨) ينظر: المصدر نفسه:٢٥٢، والجنى الداني:٢٧٤-٢٧٥ .

هشام وغيره أنّ العبارة الحسنة فيها هي قول سيبويه:"حرف لما كان سيقع لوقوع غيره"[1].

ووردت(لو) رابطا حجاجيا في خطاب النهج في مواضع متعددة منها قوله (ع) في كتاب له إلى ابن حنيف عامله على البصرة:"**ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى مُصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلِبني هوايَ ويقودَني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة**"[2]، وأرى أنَّ تعليق الشرط يحتمل أن يكون في الزمن الماضي كما يصح حمله على التعليق في المستقبل؛ لأنَّ الإمام متى أراد الاهتداء للعسل والحرير لاهتدى في أي وقت شاء لكنّه لم يشأ ذلك ولن يشاءه؛ فذلك يعد جشعا وغلبة هوى في مدرسة علي(ع) وبخاصة من قبل الحاكم، وقد ارتبط تركيب الشرط مع الجملة التي بعده برابط التناقض وعدم الاتفاق(لكن) وهو من الروابط الحجاجية[3]، فغلبة الهوى والجشع تتعارض مع الزهد وترك التمتع بملذات الحياة وبخاصة من قبل ولي أمر الأمة، والنص مثّل حجة من سلسلة حجج ساقها الإمام لنتيجة مطلوبة هي حث ولاة الأمور على الزّهد لأنّهم المثل الأعلى للرعية.

ومن تكرار(لو) في الكتاب نفسهِ قولُه(ع):"**والله لو تظاهرتِ العربُ على قتالي لما ولّيتُ عنها، ولو أمكنتِ الفرصُ من رقابها لسارعتُ إليها**"[4]؛ فقد تكررت(لو) في النّص وهي تفيد تعليق الجواب في المستقبل، وقد ذكر الإمام ذلك ردّا على تساؤل ربما يطرحهُ من يرى عليا(ع) في طعامهِ القليل المتمثل

---

(1) الكتاب:٢/٣٠٧ .

(2) نهج البلاغة:٦٤٩ .

(3) ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته: ٦٦ .

(4) نهج البلاغة: ٦٥٠

بقطع من الخبز اليابس مع اللبن أو الماء، فهل يستطيع هذا الشخص بمأكلهِ هذا وابتعاده عن الملذات أن ينازِل شجعانَ العرب وصناديدهم؟، والملاحظ أنّ تعليق الجواب على الشرط كان في المستقبل؛ لأنّ الإمام يتحدثُ عن ثباته في مواجهة أعدائه مكنيّا عن كثرتهم بالعرب، ومقتضى النص أنَّ هناك من يضعف عند ملاقاةِ الأعداء وبخاصة عندما يكونوا كثرا كما يقتضي النَّص أنّ هناك من يعتقد أنَّ عليا ربما سيهادن يوما على حساب مبادئه، أمّا المفهوم الدلالي فيتمثّل في ضرورة مواجهة أعداء الإمام حتى مع قلة العدد، وقد أكّد(ع) حجاجه بالقسم.

ومن الحجاج بـ(لو) الشرطية قول الإمام(ع) لمّا عوتِبَ على التسوية في العطاء:"**لو كان المالُ لي لسوّيتُ بينهمَ فكيفَ وإنما المالُ مالُ الله**"[1]؛ فالنص وردَ ضمن خطاب عام فيهِ استفهام سبق تركيب الشرط في قولهِ(ع):"**أتأمروني أن أطلبَ النصرَ بالجورِ فيمن وُلِّيتُ عليهِ**"[2]؛ فقد ردَّ الإمامُ على القوم بإشكال ومساءلة لإقناعهم بفكرة العدل في العطاء، والنص المبني على علاقة الشرط حجة تخدم النتيجة المضمرة وهي وجوب المساواة في العطاء، ومقتضى النَّص أنَّ هناك من اعترضَ على قسمةِ الإمام للعطاء وهو ما دلّت عليهِ نصوص التاريخ[3].

---

[1] نهج البلاغة: ٣٢٠-٣٢١ .

[2] المصدر نفسه: ٣٢٠ .

[3] ينظر في ذلك: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٨/١١٠-١١١، وميزان الحكمة: ٤/٢٩٩٦ .

٥. أمّا:

من الأدوات المفيدة للشرط، والتفصيل، والتوكيـد[١]، وأوّلهـا النحـاةُ بـ(مهما يكن من شيء)[٢]؛ لكي تستقيم مع مقولتهم باختصاص أدوات الشـرط بالأفعال، فذكروا أنّها تقوم مقام أداة الشرط وفعله[٣]. وأرى أنّ تأويلها وربطهـا بتركيب آخر لا داعيَ له، فتأويل أداةٍ بجملة مكونة من أداة وفعل وشبه جملة فيهِ تكلفٌ وصنعة، وهذا التأويل المتكلف قد دفع ابن هشام إلى القول:"أنّه لا يلزم أن يقدّر مهما يكن من شيء"[٤]، ورأى ثعلب(ت٢٩١هـ) أنّهـا مكونـة مـن(إن) الشرطية المدغمة بـ(ما)، وحُذِفَ الفعل ففتحت همزتها[٥].

وقد نصّ الفرّاء(ت٢٠٧هـ) على اختصاص(أمّا) بالأسماء؛ فذكر رفـع الأسماء بعدها؛ "لأنّ أمّا تحسنُ في الاسم ولا تكون مع الفعل"[٦]، فبهذا المفهـوم ليس هناك فعل محذوف يتم تقديرهُ لينسجمَ مع فرضيةِ اختصاص أدوات الشرط بالأفعال، وقد أجازَ الفراء نصب الاسم بعدها[٧].

ووردت(أمّا) في نصوص حجاجية متعددة منها قوله(ع) فـي اسـتنفار الناس إلى أهل الشام:"**فأمّا حقُّكم عليَّ فالنصيحة لكم، وتـوفيرُ فيـئِكم علـيكم،**

---

[١] ينظر: مغني اللبيب: ٦١ .

[٢] ينظر في ذلك: رصف المباني: ٩٧ .

[٣] ينظر: الجنى الداني: ٥٢٢، وهمع الهوامع:٤/٣٥٥ .

[٤] مغني اللبيب: ٦٤ .

[٥] ينظر: الجنى الداني: ٥٢٣ .

[٦] معاني القرآن، الفرّاء:١/٢٤١، وينظر:النحو الكوفي، مباحث في معـاني القـرآن للفرّاء: ٧١ .

[٧] ينظر في ذلك: معاني القرآن، الفرّاء: ٣/١٤-١٥ .

وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم كي ما تعلموا، وأمّا حقّي عليكم فالوفاءُ بالبيعةِ والنصيحةُ في المشهد والمغيب، والإجابةُ حين أدعوكم، والطاعةُ حين آمركم"[1]؛ فالنص الحجاجي بني على(أمّا) لإقناعهم بما له بوصفه خليفة عليهم من حقٍ وفي مقابل ذلك ما لهم عليه من حقوق، وقد سبق كلامه هذا بالإشارة إلى أنّهُ(ع) قد سئِمَ من عتابهم، وحثّهم على جهادِ أعدائهم، وتكررت(أمّا) مرتين وفي سياقها الفاء، والنص مثّل حجّة لمفهوم دلالي هو النتيجة من الحجاج؛ فلكلّ من الراعي والرعية حقٌ على الآخر، ومقتضى النص أنّ الجمهور كان به حاجة إلى تذكيرهِ بهذا المفهوم فضلا عن ولاة الأمر، وقد وظّف الإمام رابط السببية(كي) في بيان ما لهم من حقٍ في التعليم والتأديب، والعطف يقتضي المغايرة، فمن حقّهم أن يعلّموا، وأن يُؤدّبوا أي أن يُدعَوا إلى الاتصاف بالخلق الحميد، فقد ذكر اللغويون من معاني(الأدب) الدعاء إلى المحامد، والنهي عن المقابح[2]؛ وتكررت(كي) ناصبة للفعل المضارع مرتين وقعت في سياق الأولى(لا) النافية، وفي الثانية زيدت(ما) وهو من مواضع زيادتها[3]؛ وهذا النص من أهم النصوص التي تبين حقوق الرعية على الحاكم في العدل، وتأمين الحياة الاقتصادية، والتعليم، والتوجيه الاجتماعي[4].

ومن أهم النصوص الحجاجية في نهج البلاغة المؤسّسة على الأداة(أمّا) ما ورد في كتاب له(ع) إلى معاوية فند فيهِ الإمام ما يطرحه معاوية وأتباعه من أفكار؛ لإقناع الجمهور بأنه بمنزلةِ عليّ(ع) في صفات تتصل بالنسب والانتماء

---

[1] نهج البلاغة: ١٣٩ .

[2] ينظر: لسان العرب(أدب): ١/٢٠٦ .

[3] ينظر: رصف المباني: ٣١٦ .

[4] ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٨ .

القبلي، فكان حجاج الإمام للجمهور هدفه إقناعهم بأنَّ قيادة الأمة الإسلامية إنَّما تكون بمقياس الإخلاص والعمل الصالح وليس بالمساومة على المبادئ؛ قال الإمام:"**فأمَّا طلبكَ إليَّ الشام، فإنِّي لم أكن لأعطيَكَ اليومَ ما منعتكَ أمس**"[١]؛ فالنص حجَّة والمفهوم الدلالي منها هو أنَّهُ لن يكون واليا على الشام أبدا؛ لأنَّ الإمام ثابتٌ في مبادئهِ، ومعاوية اليومَ هو معاويةُ أمس، وبعد ذلك يقول الإمام:"**وأمَّا قولُكَ إنَّ الحربَ قد أكلتِ العربَ إلا حُشَاشات أنفسٍ بقيت، فمن أكله الحقُّ فإلى النَّار**"[٢]؛ فقد انتقل الإمام عبر تركيب الشرط للردِّ على ما تقتضيهِ مقولة معاوية دلاليا، وهي بقاؤه على ولاية الشام فهو حلٌّ قدَّمه معاوية زاعما أنه يحقن الدماء!، فكان ردُّ الإمام بأنَّ من يأكله الحقُ من أهل الباطل فمصيرهُ النار؛ وهناك رواية أخرى أثبتها ابن أبي الحديد هي: من أكله الحق فإلى الجنة، ورأى أنَّ ذلك من باب، حذف المضاف والتقدير: أعداء الحق[٣].

ينتقل بعدها الإمام إلى قضية الحرب، فيقول:"**وأمَّا استواؤنا في الحربِ والرجال، فلستَ بأمضى على الشّك منّي على اليقين، وليسَ أهل الشام بأحرصَ على الدنيا من أهل العراق على الآخرة**"[٤]، وهنا يحاجج الإمامُ الجمهور رافضاً مقولة معاوية بالتساوي؛ (فأمَّا) التفصيلية الشرطية دخلت للرد على مقولتهم، وبُنيَ الحجاج في النّص أعلاه على(أفعل التفضيل) وهو من الآليات اللغوية في الحجاج[٥]؛ إذ يقول الإمام إنَّه حتى على فرض تساوي عسكريهما في العدةِ

---

(١) نهج البلاغة:٥٩٣ .

(٢) المصدر نفسه:٥٩٣ .

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١١٨/١٥ .

(٤) نهج البلاغة : ٥٩٣ .

(٥) ينظر في ذلك: استراتيجيات الخطاب : ٥٢٦ .

والعدد، فيبقى الفرق قائماً مستعملا في ذلك صيغة أفعل التفضيل؛ فالإمام أمضى وأثبتُ في الحق من معاوية وأتباعه الذين هم في شكٍّ وضلال من الأصل، كما أنَّ أهلَ الشام ليسوا بأحرص من أهل العراق؛ فمعاوية وأتباعه يقاتلون من أجل دنيا زائلة أما أهل العراق فيقاتلون من أجل الآخرة ونعيمها وطاعة للخليفة، وهنا أشير إلى نقطة مهمة هي أنَّ المقصود بأهل العراق في خطاب الإمام هم الخُلَّصُ من أتباعهِ وشيعتهِ فهؤلاء قاتلوا دفاعا عن خلافة يرونها شرعية بمقاييس الدين، أمَّا الأعم الأغلب فهم جنود يقاتلون تحت راية الخليفة من دون إيمان بمبادئ ذلك الخليفة بل لإسقاط فرض القتال، وبهذا نستطيع حمل بعض كلمات الإمام التي ذمَّ فيها المتخاذلينَ من أتباعه ممن لا يملك إيمانا راسخا بالمبادئ التي طرحها(ع).

ثم انتقل(ع) بعدها إلى حجاج الجمهور فيما يتعلق بالانتماء القبلي الذي قد طرحه معاوية كوسيلة ضغط على الإمام؛ لبيان فضلهِ في جانب إلى أرومة واحدة، فحاجج الإمام معاوية وجمهوره، بقوله : "**وأمَّا قولُكَ إنَّا بنو عبدِ مناف فكذلك نحنُ، ولكن ليس أميَّةُ كهاشمٍ، ولا حربٍ كعبدِ المطّلبِ، ولا أبو سفيان كأبي طالبِ، ولا المهاجرُ كالطليق، ولا الصريحُ كاللصيق ولا المُحقُ كالمبطلِ، ولا المؤمنُ كالمُدغلِ**"[1]؛ إذ طرق معاوية بابا آخر يتمثل في محاولة إثارة الحمية الجاهلية[2]، فردَّ الإمام عليهِ بتركيب الشرط الحجاجي مفصِّلاً ما أجمله معاوية من انتماء لعبد مناف، فأمية وإن ذكرت معظم التواريخ أنَّه ابنُ عبدِ شمس أخي هاشم إلا أنَّ بعضهم ذكر أنَّ أميَّة لم يكن من صلب عبد شمس، بل

---

(1) نهج البلاغة: ٥٩٤ .

(2) ينظر: الرسائل السياسية بين الإمام علي ومعاوية: ٢٦٩ .

هو عبدٌ من الروم استلحقهُ عبد شمس ونسبه إلى نفسه[1]، ويبقى هذا الرأي قابلاً للنقاش؛ لأنَّ صلاح الإنسان بفعلهِ بالدرجة الأساس، فأبو لهب هاشميٌّ ومع ذلك وقف ضد ابن أخيهِ، ولم يُسلم ونزل قرآن بُذمهِ؛ و والملاحظ أنّ الخطاب قــائمُ على مجموعة من التقابلات المعجمية التي تعد من عناصر الاتساق المعجمــي، والمقتضى الدلالي للخطاب أنَّ معاوية وأتباعه كانوا يحــاولون ترسـيخ فكــرة مفادها أن لا فضل لعليٍّ على معاوية من جهة انتماءهما إلى أرومة واحدة، فكان لابد من تصحيح هذهِ الفكرة فأنّه حتى على فرضِ رجوعهما إلى جد واحد إلا أنَّ الآداء كانوا على طرفي نقيض في أخلاقهم، وما يُروى عنهم.

٦. لمّا :

من أدوات الشرط غير الجازمة، تفيد تعليق الجواب على الشــرط فــي الزمن الماضي[2]، وهي حرف وجود لوجود، أو حرف وجوب لوجوب، أي أنَّ جوابها متحقق لتحقق شرطها[3]، وذهبَ أغلبُ النحاةِ إلى حرفيتها[4]، وهي عند سيبويه "للأمر الذي قد وقع لوقوع غيرهِ"[5]، وخالفهم الفارسي فهي عندهُ ظرف بمعنى(حين) ذاكرا أنَّ "الفرق بين الأسماء غير المتمكِّنةِ والحروف مــن جهــة المعنى دون اللفظ فكل لفظٍ وقعَ موقِعا يقتضي الاسمَ حُكِمَ عليــهِ بالاسـمية"[6]،

---

[1] ينظر: بحار الأنوار:٣٣/١٠٧ .

[2] ينظر: التراكيب الإسنادية : ١٥٧ .

[3] ينظر: الجنى الداني: ٥٩٤، ورصف المباني: ٢٨٣ .

[4] ينظر: رصف المباني: ٢٨٤ .

[5] الكتاب: ٢/٢١٢ .

[6] المقتصد في شرح الإيضاح: ٢/١٠٩٢ .

ورجَّح جمعٌ من النحاةِ رأي سيبويه مستدلين على ذلك بأدلة متعـددة[1]، منهـا دلالتها في قوله تعالى:﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[2]؛ فإهلاكهم كان بسـبب ظلمهم، لا أنّهم أُهلِكوا حين ظلمهم؛ "لأنَّ الهلاكَ متأخرٌ عنه، وربما ينوى"[3].

ووردت(لمّا) في الخطاب الحجاجي في نصوص متعددة منها قول الإمام في كتاب له إلى ابن عباس عندما بلغه أخذهُ بعض الأموال:"**فلما رأيت الزمـان على ابن عمك قد كلِبَ، والعدوّ قد حَرِبَ، وأمانةَ الناسِ قد خزيت، وهذهِ الأمة قد فنكت وشَغَرت، قلبتَ لابن عمِّك ظهرَ المجَـنّ**"[4]، ففي النص تركيب شـرط حجاجي ضمن حوار من الإمام لابن عباس، والنص الحجاجي له مفهوم دلالـي صرَّح بهِ الإمام يتمثل بضرورة ردِّ الأموال التي أخذت من بيت المال، وجرى في النص توظيفٌ للسجع لما له من أثر في نفـس المتلقـي، وقولـه: فنكـت، بمعنى:لجَّت من (الفَنْك) أي:الكذب، والتعدي، واللّجَاج[5]، يقال:"فانَكَ في الكذبِ والشَّر، وفَنَكَ وفَنَّكَ، ولا يقال في الخير، ومعناه لجَّ فيهِ ومحكَ وهو مثل التتابع لا يكون إلا في الشر"[6].

وقوله(ع): شغرت الأمة، أي تفرقت، ولم تمتنع من غارة أعدائها، وهذا المعنى من أهم معاني اللفظ التي ذكرها اللغويون[7]، والمقتضى الدلاليّ للخطاب

---

(1) ينظر في ذلك: الجنى الداني: ٥٩٤-٥٩٥، ورصف المباني: ٢٨٤ .

(2) الكهف: ٥٩ .

(3) شرح التسهيل: ١٠٢/٤ .

(4) نهج البلاغة: ٦٤٣ .

(5) لسان العرب(فنك): ٤٧٩/١٠ .

(6) تهذيب اللغة(فنك): ٢٨١/١٠ .

(7) ينظر: العين(شغر): ٣٥٨/٤ .

أنَّ أخذ الأموالِ جرى بعد أن اضطربت أحوال الأمصار، وتخاذل عمال الإمام عن نصرته، واتجه بعضهم صوب معاوية طمعا فيما خصَّ به عِلية القوم من أموال، وعدم مساواتهم بعامة الناس، فالأمة متفرقة ومتخاذلة وبدأت تعارض الإمام في مواجهة القوم وأنَّ النص يقتضي أنَّ خيانة فيء المسلمين تعدل خذلان الخاذلين، وخيانة معاوية وأتباعه.

ومن الحجاج بـ(لمَّا) قوله(ع) في كتاب إلى معاوية أشرتُ له عند بحث الحجاج بـ(أمّا) الشرطية، كان جوابا من الإمام عن رسالة لمعاوية حملت أفكارا، وتصدى الإمام فيها لتصحيح ما يطرحه معاوية، فمن الخطاب الحجاجي الموجّه للجمهور قوله:"**ولمّا أدخلَ اللهُ العربَ في دينه أفواجا وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها كنتم ممّن دخل في الدين إمّا رغبةً وإمَّا رهبة على حين فازَ أهلُ السبق بسبقهم وذهب المهاجرون بفضلهم، فلا تجعلنَّ للشيطان فيك نصيبا، ولا على نفسك سبيلا**"[1]؛ ففي النص حجاج مبني على(لمَّا) الشرطية، وما أجيبت بهِ تضمّن إشارة الإمام إلى أنّ معاوية أسلم بعد فتح مكة وهو ما ذكرته مصادر التاريخ[2]، كما أنَّ أباه لم يؤمن إلا حين تيقَّن أن رسول الله سيفتح مكة، فقد أقبل النبي ومعه آلاف المسلمين فلما قَرب من مكة انطلق أبو سفيان يطلب الأمان منه فأجارَهُ العباس بن عبد المطلب وكلّم النبيَّ بشأنهِ، ثم أسلم بعد ذلك مُكرَها[3]؛ لأنَّه قال بشأن الشهادة برسالة النبي(ص):"في النفسِ منها شيء"[4]، وهكذا دخل أبو سفيان ومَن معه من الطلقاء الإسلام رهبةً، وخوفا من

---

[1] نهج البلاغة: ٥٩٤ .

[2] ينظر : فتوح البلدان: ٥٨٢/٣ .

[3] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري:٥٤/٣، والبداية والنهاية:٣٣١/٤-٣٣٢ .

[4] تاريخ الطبري:٥٤/٣ .

بطشِ المسلمين بهم لما فعلوه بالمهاجرينَ في بداية البعثة، ولشنهم الحروب على المسلمين بعد الهجرة، ومقتضى النَّص أنَّ من كان هذا تاريخهُ لا يصح أن يضع نفسه بإزاء أول من أسلمَ وصدّق رسول الله(ص)، فليس معاوية من أهل السبق في الإسلام، ولم يكن من المهاجرين الأوّلين كمن تقدّم من الخلفاء ليستطيع الحديث في صفات الخليفة، ونلحظ أنَّ النص كان حجّة لنتيجة وقعت بعده، وربطت بينهما(فاء الاستنتاج)، وقد أكَّد النتيجة المطلوبة بنون التوكيد الثقيلة، ولم يشِر الإمام إلى المفهوم الدلالي المتمثل بترك المطالبة بولاية الشام أو الخلافة صراحة وإنما عبَّر عنه مجازا، ومُنزِلا ذلك منزلة الجعلِ للشيطان عليهِ سبيلا[1]، وهذا أبلغ في التأثير من التعبير الصريح؛ فمن وظائف المجاز وبخاصة(الاستعارة) في النصوص الحجاجية تجسيد المعاني وجعلها مرئية، وبذلك يكون وقعها أشد على المتلقي[2]، وهكذا كان للحجاج السابق أثر كبيرٌ في اقتناع معاوية وأتباعه بفكرة مفادها إنَّ عليا(ع) لن يحيدَ عن مبادئه، وأنَّ الحرب قائمة لا محال مادام معاوية يمثل الفئة الباغية ولا يخضع لسلطان الخلافة الشرعية، فضلا عن اقتناع الجمهور الكوني بأنّ عليا لا يقرن بهذه الشخصيات، وذلك بفعل التركيب الشرطي المقترن بالتوكيد، مع ما أشارَ إليه الباحثون من أثر للاستعارة في الخطابات الإيديولوجية[3]، والباحث يرى أنَّ(نهج البلاغة) في مجملهِ خطاب إيديولوجي.

---

[1] ينظر: نهج البلاغة : ٥٩٤ .

[2] ينظر في ذلك: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٤٩٢، واللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٣١١.

[3] ينظر في ذلك: اللغة، دفاتر فلسفية : ١١١ .

٧. لولا :

من أدوات الشرط غير الجازمة، عبّر عنها سيبويه، بقولهِ:"لوما ولـولا فهما لابتداء وجواب، فالأول سببُ ما وقعَ وما لم يقع"[١]، وما ذكـرهُ سـيبويه أوسعُ مما ذكره المتأخرون في دلالتها؛ فقد عبّر عنها المـرادي(ت٧٤٩هـ) وغيـرهُ بأنّهـا حـرف امتنـاع لوجـوب[٢]، ومـا أجملَـه سـيبويه فصّـلهُ المالقي(ت٧٠٢هـ) ذاكرا أنّها تدلُ على امتناعٍ لوجـوب إن كانـت الجملتـان موجبتينِ، وتدلُ على وجوب لامتناع إن كانتا منفيتينِ، ووجوب لوجوب إن كانت موجبةً ومنفيّةً، وامتناعٍ لامتناعٍ إن كانت منفيّة وموجبة[٣].

واختصت(لولا) بالدخول على الأسـماء[٤]، ورأى المبـرد وجمهـورُ البصريين أنّ الاسم بعدها مرفوع بالابتداء[٥]، أما الكوفيون فقد ذهبوا إلى أنّـهُ مرتفع بـ(لولا)[٦]، ورأى الكسائي(ت١٨٩هـ) أنّه فاعل لفعل محذوف[٧].

واستُعمِلَت (لولا) في نصوص حجاجية متعددة، منها قوله(ع) في خطبتهِ المعروفة بالشقشقية:"**أما والذي فلقَ الحبَّةَ، وبرأ النسمةَ، لولا حضور الحاضر، وقيامُ الحجَّةِ بوجود الناصر، وما أخذَ اللهُ على العلماءِ أن لا يُقَارُّوا على كِظَّـةِ ظالمٍ ولا سغبِ مظلومٍ لألقيتُ حبلَها على غاربِها، ولسـقيتُ آخرهـا بكـأس**

---

[١] الكتاب: ٣١٢/٢ .

[٢] ينظر في ذلك: الجنى الداني:٥٩٧، ومغني اللبيب:٢٦٥ .

[٣] ينظر في ذلك: رصف المباني: ٢٩٣ .

[٤] ينظر: الجنى الداني: ٥٩٩ .

[٥] ينظر: المقتضب:٧٦/٣، والإنصاف في مسائل الخلاف:٧٦/١ .

[٦] ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٧٦/١ .

[٧] ينظر: حاشية الدسوقي على مغني اللبيب: ١٥٢/٢ .

أوّلها"[1]؛ فالنص السابق يمثل واحدا من أهم النصوص في دلالتهِ الحجاجية التي صرّح فيها الإمام بسبب تصديه للخلافة، وفيهِ تركيب الشرط بـــ(لولا)، والدلالة واضحة في امتناع جوابها المقترن باللام زيادة في التوكيد لوجود مجموعة من الشروط التي ألزمت الإمام بعدم ترك حقّه وخلافة المسلمين، فحضور من حضر لبيعتهِ، ووجود أنصارهُ، وما يجب على العلماء من عدم السكوت على ما عبّــر عنه(ع) بـــ(كِظَّةِ ظالم)، والكِظَّةُ:"غمٌّ وغِلظة يجدها فـــي بطنـــهِ وامـــتلاء"[2]، والسغب:الجوع[3]، فتخمة الظالم وجوع المظلوم أمور تلـــزم الإمـــام(ع) ومـــن اهتدى بهديه التصدي للخلافة؛ لأنّ الإمام (ع) وبما يحملهُ من مسؤولية علميـــة واجتماعية لا يصح له أن يسكت عن الظلم ما دام هناك مظلومون، وفي مقابلهم ظالمون، وقد جرى توكيد ذلك بالقسم، ومقتضى النّص أنّ هناك من يرى لزوم ترك الإمام الأمر، كما يقتضي النص المؤكد بالقسم أنَّ من اليقين وجوب نهوض الإمام(ع) بأعباء الخلافة لوجود الأنصار، وحضور المبايعين، وما فرضـــه الله تعالى على العلماء، والنتيجة مضمرة هي وجوب طاعتهِ لما يملكه الإمـــام مـــن مؤهلات للخلافة أولا ومن ثمّ مبايعة المهاجرينَ والأنصار له.

ومن الحجاج بـــ(لولا) قول الإمام(ع) في كلام لـــه:"**واللهِ مـــا معاويـــة بأدهى منّي ولكنَّهُ يغدُر ويفجرُ، ولولا كراهيةُ الغدر لكنت من أدهـــى النـــاس، ولكِنْ كلُّ غدرةٍ فجرةٌ، وكلُّ فجرةٍ كفرة، ولكل غادرٍ لــواءٌ يُعـــرَف بـــه يـــومَ القيامـــة**"[4]؛ فتركيب الشرط الحجاجي وردَ ضمن نصٍّ حواريٍّ ومقتضى النص

---

[1] نهج البلاغة: ٨١ .

[2] تهذيب اللغة(كظ): ٤٤٠/٩ .

[3] ينظر: العين(سغب): ٣٨٠/٤ .

[4] نهج البلاغة: ٥١٦-٥١٧ .

أنَّ هناك من طرح فكرة أنَّ معاوية أدهى من عليٍّ، وربما أرادَ بذلك الطرح أفضلية معاوية سياسيا؛ لأنَّ سياسة الرعية تستلزم الدهاء، والمكر بحسب رأيه، فأرادَ الإمام تصحيح هذهِ الفكرة بأنَّ معاوية غادرٌ وفاجرٌ، فدهائه مبنيٌّ على ذلك، والتركيب الشرطي دلَّ على امتناع اتصاف الإمام بالدهاء لوجود كراهية الغدر؛ لأنَّ الدهاء يستلزم الغدر بالآخرين، ومن ثم يتابعُ الإمام حجاجَهُ بالأداة(لكن) وهي من الروابط المدرِجة للحجج[1]، فربما يتبادرُ إلى الذهن أنَّ الغدرَ قد يكونُ سائغا عندما يتعلقُ الأمر بمواجهة(داهية) من دهاة العرب، فيأتي أثر الرابط الحجاجي(لكن) لتُذكَرَ بعده سلسلة من الحجج في سلَّم حجاجي (الغدر، الفجور، الكفر)، ومن ثم الفضيحة على رؤوس الأشهاد، وذكر اللسانيون أنَّ الحجة التي ترد بعد(بل) أو(لكن) تكون أقوى من الحجج التي تردُ قبلها[2]، والنتيجة المطلوبة من الجمهور هي الابتعاد عن صفة الغدر دائما ومهما اختلفت أحوال الانسان.

وفي نهاية البحث في المستوى النحوي للخطاب الحجاجي رأينا أثر العوامل الحجاجية والروابط واضحا في بناء حجاجية الخطاب وتوجيهه لترسيخ المفاهيم التي طرحها الإمام(ع) في أذهان الجمهور حتى في النصوص التي يكون فيها المخاطب فردا واحدا؛ فالمقصود بذلك كل من يصله الخطاب؛ فكانت عوامل التوكيد الحجاجية من أهم الألفاظ التي استثمرها الإمام في ترسيخ تلك المفاهيم، فكان يحاول إقناع متلقي النص موظِّفا أنواع المؤكدات كأدوات التوكيد، والتوكيد بالقسم، والتوكيد بالقصر؛ إذ تقوم تلك الألفاظ بحصر دلالة الخطاب الحجاجي بخيار واحد ومؤكد؛ لحمل المتلقي على الاقتناع بما يطرح من أفكار.

---

[1] ينظر في ذلك: اللغة والحجاج: ٣٠ .

[2] ينظر في ذلك: الخطاب والحجاج:٢٣-٢٤ .

وبعض النصوص الحجاجية لم تُؤسَّس على عوامل التوكيد لكننا نجدها قد بنيت على عوامل حجاجية أخرى؛ فمنها ما بني على أدوات(المساءلة) التي ترى أنَّ السؤال الذي يطرحه الخطيب هو جوهر الفكرة الحجاجية ويمثل جانب المظهر من عنصري الإشكال أمَّا المضمر فهو جواب الجمهور على ذلك الإشكال المطروح؛ وقد درست أثر استعمال أدوات المساءلة في إقناع المتلقي بإقراره بالجواب الذي يريدهُ فاعل الحجاج، وبذلك تقوم تلك العوامل الحجاجية بمهمة الحصول على إقرار الجمهور بالإجابة التي يريدها الخطيب، وهنا تكمن قوة الحجاج الذي يتصف بأنّه يفرضُ على المتلقي نمطا معينا من النتائج بوصفه الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيهِ المخاطب[١].

وكان لتركيب الشرط أهمية في طرح الأفكار، وإقناع الجمهور بخطاب الإمام، والحجاج بوصفه خطابا إقناعيا يستلزم عدّ تركيب الشرط كلاما تاما أو جملة واحدة؛ فلا يصح الفصل بين جملتي الشرط عند دراسة الحِجَاج ولاسيما أن أدوات الشرط توسِّس لعلاقات الاقتضاء، ومما اختصّ به تركيب الشّرط عن التراكيب الحجاجية الأخرى أنَّ جملة الشرط بركنيها تمثل عنصر الحجّة التي تخدم نتيجة مضمرة أو مذكورة في الخطاب الحجاجي، وقد وردت بعض الأدوات تفيد معنى الشرط والتوكيد معا نحو(أمّا)، ووظِّفت روابط الشرط الأخرى بحسب دلالاتها الزمنية سواء تلك التي تدل على ما يستقبل أم تلك التي تعلق الجواب في الزمن الماضي

وقد اقترنت دراسة الأدوات في تلك النصوص بالروابط الحجاجية الأخرى وهذا جزء من إستراتيجية الإقناع في النص؛ إذ تتضافر الروابط الحجاجية مع السياق الذي ترد فيه لإقناع المتلقي بما يُطرَح من مفاهيم.

---

[١] ينظر في ذلك: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٣ .

وارتبطت الدراسة اللسانية للنص الحجاجي بدراسة المقتضى؛ فهو(المسكوت عنه) الذي يتم اكتشافه من الخطاب نفسه، ففيهِ نعرف ظروف إنتاج النص، كما يجري به بيان الحجّة وقوتها من طريق اختبار(النفي والاستفهام) الذي أشارت إليه لسانيات الحجاج كما لا يصح فيما أرى دراسة المقتضى بمعزل عن ما أشار إليه علماؤنا القدماء، ومع دراسة المقتضى الخاص بالتركيب ندرس المفهوم الدلالي منه وهو يمثل النتيجة النهائية المطلوبة من المتلقي.

الفصل الثالث

المستوى التداولي في الخطاب الحجاجي

شهدت الدراسات اللغوية في العصر الحديث ظهور اتجاه يركِّز بالدرجة الأساس على الوظيفة التواصلية والاجتماعية للغة، وانطلاقا من ذلك يُخضِع دراسة اللغة إلى الهدف من استعمالها؛ فلم تعد دراستها بحثا في أنظمة مجردة من دوافع استعمالها بل دراسة النصوص التي ورد فيها استعمال تلك الأنظمة اللغوية وأثر ذلك في ما يطرأ عليها من تغيُّرات، ودراسة الهدف من طرح خطاب ما، وهو ما يعني في جانب كبير منه الاهتمام بالحجاج بوصف الإقناع هدفا ينشده الخطيب من طرح أفكاره، وبذلك ارتبط مفهوم الحجاج بالتداولية، ويعود ظهور التداولية كعلم مستقل ضمن الدرس اللساني إلى جهود(شارل موريس) في كتابه(أسس نظرية العلامات) سنة١٩٣٨؛ فقسَّم فيه علم(العلامات) على ثلاثة أقسام، هي:علم التراكيب الذي يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات، وعلم الدلالة الذي يدرس علاقة الدوال أو العلامات بمدلولاتها، وعلم التداولية الذي يدرس علاقة العلامات بمفسريها[1].

وقد تنوعت تعريفات التداولية تبعا لفروع المعرفة التي تناولتها[2]، ومن أهمها تعريفان، أحدهما يتمثل بدراسة كل جوانب(المعنى) التي تهملها الدلالة، فإذا كانت الدلالة تقتصر على البحث في جوانب صدق الألفاظ أو كذبها فإنَّ

---

[1] ينظر: الفلسفة والبلاغة: ١٠٧- ١١١، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٩.

[2] ينظر:الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي:٢٦٤- ٢٦٥، والاتصال اللساني وآلياته التداولية:٢٩-٣٠.

التداولية تعنى بما لا تنطبق عليه شروط الصدق كأفعال الكــلام وغيرهــا[١]، والتعريف الآخر يتمثل بالبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو هو دراسة معنى(المُتكلَّم به)[٢]، والسبب في ترجيحي لهذين المفهــومين للتداوليــة يكمن في أنَّ المفهوم الأول أصبح منطلقا لنظرية أفعال الكلام، والمفهوم الآخر فيبدو أنَّه كان المحور في دراسة ظاهرة (الاستلزام الحواري).

والدرس التداولي يتضمن مفــاهيم متعــددة، منهــا: الأفعــال الكلاميــة، والاستلزام الحواري، والافتراض المسبق[٣].

وسأبحث مفهوم(الاستلزام الحواري) في الخطاب الحجاجي لأهميته مع الإشارة على نحو مختصر إلى تداخل مفهومــه مــع مفاهيم(أفعــال الكــلام)، و(الافتراض المسبق)، و(الاقتضاء)، وستتوزع الدراسة على مبحثين، أحدهما بحث مفهوم(الاستلزام الحواري) ونظرية(غرايس) في تفسير هذه الظاهرة مــع الإشارة إلى مفهوم(التداولية المدمجة)عند(ديكرو)، والآخر سيكون ميدانا لدراسة الاستلزام الحواري بصورة تطبيقية في الحجاج العام والخاص في نهج البلاغة.

---

(١) ينظر: الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي: ٢٦٥.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٣.

(٣) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٠.

المبحث الأول

الاستلزام الحواري، نشأته ومفهومه

(الاستلزام) لغة مصدر الفعل(استلزم)، ومادة(لزم) وما يشتق منها تدل على الملازمة وعدم المفارقة[1]، كما تدلُّ على الانفصال أحيانا من باب(التضاد)[2].

وفي الاصطلاح،:"عبارة عن امتناع الانفكاك فيمتنع فيه وجود الملزوم بدون اللازم" [3].

وبهذا يكون المعنى الاصطلاحي مأخوذا من اللغوي؛ لأنَّ اللفظ يلزم معنى، و(اللازم) "ما يمتنع انفكاكه من الشيء أي لا يجوز أن يفارقه" [4]، ومجيء(استلزم) بصيغة (استفعل) التي من معانيها(الطلب)[5]، يدلُّ لغويا على استلزام الحوار معنى معين.

- **تداخل مفاهيم مضمرات القول**

قبل دراسة(الاستلزام الحواري) وعناصره وتطوره ينبغي توضيح مصطلحين يتداخلان في مفهوميهما مع مفهوم(الاستلزام الحواري) وهما(الافتراض المسبق)، و(الاستلزام)؛ إذ بين هذه المصطلحات فروق جوهرية ومع ذلك يقع المتلقي في اللبس، ولاسيما عند الحديث عن مصطلح(الاستلزام)؛ فربما يقع المتلقي في الوهم معتقدا أنَّ لمفهومي(الاستلزام)،

---

[1] ينظر: العين(لزم):٧/٣٨٢، ولسان العرب(لزم):١٢/ ٥٤١.

[2] ينظر في ذلك: تهذيب اللغة(لزم): ١٣/٢٢٠.

[3] الكليات:١٥٩.

[4] كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١٣٩٩.

[5] ينظر: شرح شافية ابن الحاجب:١/١١٠، وأوزان الفعل ومعانيها:١٠٧.

و(الاستلزام الحواري) دلالة واحدة؛ لذا أرى من اللازم تحديد مفهومي(الافتراض المسبق)، و(الاستلزام) قبل الحديث عن ظاهرة(الاستلزام الحواري).

والافتراض المسبق "شيء يفترضه المتكلم يسبق التفوه بالكلام، أي أنَّ الافتراض المسبق موجود عند المتكلمين، وليس في الجمل"[1]، وهذا يعني أنَّ الافتراض المسبق هو مجموعة أفكار في أذهان المساهمين في عملية الحوار ينطلق منها المتكلم.

أمَّا (الاستلزام) فهو" شيء يتبع منطقيا مما قيل في الكلام أي أنَّ الجمل هي التي تحوي الاستلزام وليس المتكلمون"[2]. ومعنى ذلك أن(الاستلزام) ليس إلا اقتضاء النص معنى أو مجموعة معان.

وبناء على ذلك يكون(الخطاب) تابعا(للافتراض المسبق) وفي الوقت نفسه يتقدم(الخطاب) على الاستلزام فهو متبوع، وأشارت التداوليات إلى انطلاق المشاركين في عملية الحوار من هذه الافتراضات المتعارف عليها في دفع عملية التواصل[3]؛ ويبدو لي أنَّ مفهوم(الافتراض المسبق) يقترب من منطلقات الحجاج ومبادئه التي تتمثل في مجموعة من الأفكار المشتركة بين المخاطبين ينطلق منها الخطيب في محاولته إقناع الجمهور المتلقي.

ولفظ(الاستلزام) نفسه هو ما يوقع المتلقي في لبس إرادة مفهوم(الاستلزام الحواري)؛ إذ ربما يعتقد أنَّ المراد به مفهوم(الاستلزام الحواري) وهذا الأمر

---

[1] التداولية: ٥١.

[2] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3] ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٠.

خلاف الواقع، ويكمن سبب الإشكالية في ترجمة بعض مصادر التداولية للمصطلح(entailment) بـ(الاستلزام)[1]، وحلُّ هذه الإشكالية يكون في استعمال مصطلح(الاقتضاء) عوضا من(الاستلزام)، لكي لا يحصل تداخل مع مفهوم(الاستلزام الحواري)، وولاسيما أنَّ مصطلح(الاقتضاء) أصيل في تراثنا الفكري، وتناوله الأصوليون، والفقهاء[2]، فالاقتضاء هو" الذي لا يدل عليه اللفظ، ولا يكون منطوقا به، ولكن يكون من ضرورة اللفظ" [3].

وقد ترجم الأستاذ(محمود أحمد نحلة)مصطلح(entailment) إلى (الاقتضاء)[4]، مما يدل على أنَّ(الاستلزام)، و(الاقتضاء) يتقاربان في الدراسات التداولية على نحو كبير، وذكر أنَّه يمكن التمييز بين(الافتراض المسبق)، و(الاقتضاء) بوساطة معيار الصدق والكذب في جملتين مترابطتين؛ ففي(الاقتضاء) يستلزم صدق الجملة الأولى من نحو:أرى حصانا، صدق الجملة الثانية:أرى حيوانا، وكذب الجملة الأولى يؤدي إلى نتيجة مختلفة، إذ تكون الجملة الثانية إما صادقة وإما كاذبة، بخلاف(الافتراض المسبق) الذي تكون فيه جملة هذا الافتراض صادقة سواء أكانت الجملة الأخرى صادقة أم كاذبة؛ فجملة:توقف زيدٌ عن ضرب عمرو سواء اتصفت بالصدق أم بالكذب تفترض مسبقا أنَّ زيدا كان يضربُ عمرا(٥).

---

(١) ينظر في ذلك: التداولية:٥١.

(٢) ينظر:الإحكام في أصول الأحكام،الآمدي:٣/٨١.

(٣) المستصفى من علم الأصول:٢/١٩٢، وينظر:أصول الفقه:١/١١٨.

(٤) ينظر في ذلك:آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٠.

(٥) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٠.

- **نشوء الاستلزام الحواري وعلاقته بأفعال الكلام**

وبعد أن بيَّنت مفهومي(الافتراض المسبق)، و(الاقتضاء أو الاستلزام)، سأتحدث عن مفهوم(الاستلزام الحواري أو التخاطبي)، فقد نشأت هذه النظرية في مهاد نظرية الأفعال الكلامية، وما يرتبط بالتلفظ من أفعال؛ وتطالعنا عند دراسة الاستلزام الحواري أسماء ثلاثة علماء ترابطت جهودهم، وفي مقدمتهم(أوستن) الذي وضع أساس تحليل النصوص على وفق نظرية(أفعال الكلام)، وكان من أهم نتائجها دراسات(غرايس) في(الاستلزام الحواري)؛ فقد تأسست هذهِ النظرية على ما طرحه (أوستن) وفلاسفة(مدرسة أكسفورد) من رفض لما يُعرف في تاريخ الفلسفة بـ(الوضعية المنطقية) التي حددت وظيفة اللغة بكونها أداة رمزية للوقائع الموجودة في العالم الخارجي وقد افترضت معيار(الصدق والكذب) للحكم على الجمل وهو ما أدى إلى اهتمام هذه الفلسفة بالجمل الخبرية[1]، وقد سميت بـ(الوضعية المنطقية)؛ لأنّها قصرت اهتمامها على كل ما هو موضوع في العالم الخارجي، ووصفها كان يعتمد الأساس المنطقي؛ "فقد كان أصحابها يكتفون بتحليل لغة العبارة ذاتها تحليلا منطقيا، ثم يقبلونها بعد ذلك أو يرفضونها على هذا الأساس وحده" (٢). والملاحظ أنَّ الرؤية التي قدمتها تلك النظرية في اهتمامها بالجمل الخبرية التي تقبل(الصدق أو الكذب) وترمز لما هو موجود في الخارج تماثل ثنائية(الخبر، والإنشاء) في تراثنا الأصولي والبلاغي؛ فالخبر هو"الكلام الذي يكون لنسبته خارجٌ

---

[1] ينظر : التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد:١٣٥.

[2] المصدر نفسه:٢٤٤.

تطابقه أو لا تطابقه" (١)، والإنشاء "كلام ليس لنسبته خارج" (٢)، وهذا دليل على شمولية البحث اللغوي عند الأصوليين ولاسيما في مباحث ما ينجز من أفعال.

وقد افترض فلاسفة هذا المنهج لغة مثالية للتعبير عن ما يدور في أذهانهم، وللإشارة إلى الوقائع الخارجية، وهذا الافتراض المنطقي للغة ذات مصطلحات محددة تحاول أن تفيَ بنشاط هؤلاء الفلاسفة الفكري وعجز هذه اللغة المنطقية المصطنعة عن الإيفاء بمتطلباتهم كان سببا رئيسا في ظهور ما يعرف بـ(فلسفة اللغة الاعتيادية) على يد علماء(مدرسة أكسفورد) الذين أكدوا عجز الفرضية السابقة فانطلقوا من اللغة باحثين عن المعنى في حدود الاستعمال، فكان من أهم نتائج بحثهم اللغوي نظرية(الاستعمال للمعنى)[٣]، التي مفادها "لكي نفهم طبيعة اللغة البشرية، ونستوعب آليات عملها، فإنَّ ذلك مرهون باكتشاف آلية استعمالها" [٤]، وكان رائد هذه النظرية التي تمثل الأساس في التداولية هو الفيلسوف(فنجشتاين) صاحب فكرة(ألعاب اللغة) التي تقول: "لا تبحث عن المعنى، بل ابحث عن الاستعمال"[٥]، وتبنَّى(فنجشتاين) هذا المفهوم في مرحلة متأخرة من حياته[٦]، ومن أهم أسس هذه النظرية أنّه ليس لشيء

---

[١] حقائق الأصول: ٢٧/١.

[٢] المصدر نفسه: ٢٧/١.

[٣] ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢٢، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٣.

[٤] المقاربة التداولية لخطاب المناظرة: ٦٠، وينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٥٨.

[٥] ينظر: المقاربة التداولية لخطاب المناظرة: ٦٠.

[٦] فلسفة اللغة: ٢٤١-٢٤٢.

معنى إلا(القضية)؛ فليس لاسم ما معنى إلا وهو في سياق قضية ما، وغالبا ما نجد الكلمة الواحدة نفسها تكون ذات معنيين مختلفين؛ لذلك فهي تتعلق برمزين مختلفين، أو نجد كلمتين لكل منهما معنى مختلف عن الأخرى ومع ذلك فهما تستعملان على نحو واضح بطريقة واحدة[١].

وتعد جهود(أوستن) من أهم ما قدمته(مدرسة أكسفورد) في رفضها اهتمام (الوضعية المنطقية) بالجزء الإخباري من وظيفة اللغة وإخضاعها النصوص للتجريب بالحكم عليها بالصدق والكذب، وقد عبَّر(أوستن) عن ذلك بالمغالطة الوصفية[٢]، وتساءل عن كيفية التعامل مع العبارات التي لا تصف ما هو موجود في الخارج، والتي لا تخضع لمعيار الصدق والكذب؛ فهذه الجمل غير متحققة في الخارج فهل يُحكم بأنَّها خالية من المعنى؟[٣].

وبدأ(أوستن) عمله في دحض ما عبَّر عنه بـ(المغالطة الوصفية) بالتمييز بين صنفين من الملفوظات هما(المنطوقات التقريرية)، و(المنطوقات الأدائية)[٤]؛ فالقسم الأول من المنطوقات وصفيٌّ أي يصف ما هو واقع في الخارج وتكون ألفاظه صادقة أو كاذبة، أمَّا القسم الآخر فهي منطوقات(إنجازية) وتتميز بكونها تخضع لمعيار(التوفيق، والإخفاق) وتتضمن فعلا مضارعا مبنيا للمعلوم، ومسندا إلى ضمير المتكلم[٥].

---

[١] ينظر: فلسفة اللغة:٢٤٢.

[٢] ينظر: نظرية الفعل الكلامي:٤٠.

[٣] ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد:١٣٥- ١٣٦.

[٤] ينظر: المصدر نفسه:١٣٧، والتداولية والحجاج: ٩٥.

[٥] ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٥٨، والتداولية اليوم علم جديد في التواصل:٣١.

ومثّل التفريق بين(الإنجازيات، والإخباريات) المرحلة الأولى من جهود (أوستن)، ثم شهدت نظريته تطورا جعلها تتجه إلى القول بالبعد الإنجازي في النصوص المختلفة؛ فقد رأى أنّ من الجمل ما تنجز أفعالا مع كونها لا تتضمن فعلا مضارعا مسندا إلى المتكلم بصيغة المعلوم؛ فهذا المعيار ليس ناجحا في كشف إنجازية الجملة[1]، فضلا عن أنّ معيار الصدق والكذب قد تخضع له بعض الجمل الإنجازية في أمثلة متعددة، وفي مقابل ذلك تخضع الأقوال الوصفية إلى معيار التوفيق والإخفاق في بعض الأحيان بحسب ما ذكره(أوستن) من شواهد[2]؛ ووصل (أوستن) إلى النتيجة التي ذكرتها آنفا وهي(الإنجازية) في في النصوص عامة؛ فذكر: "أنّ قول شيء ما هو بوجه عام إنجاز الاستعمال"[3]، فكل جملة تامة مستقلة تقابل إنجاز عمل لغوي محدد[4]، وفي هذا السياق ميّز(أوستن) بين ثلاثة أفعال تُؤدّى في النص، الأول: فعل القول، وهو حدث التلفظ بجملة معينة، والثاني: الفعل الإنجازي، وهو الحدث الذي يتم إنجازه عند التلفظ بجملة معينة، أمّا الفعل الثالث: فهو الفعل التأثيري، ويُقصَد به النتائج أو التأثيرات التي يولّدها الفعل الإنجازي[5].

---

[1] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٦٣، وتداوليات الخطاب السياسي: ٦٩.

[2] ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ٨٥، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٥- ١٥٨.

[3] نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٢.

[4] ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٣١.

[5] ينظر: نظرية الفعل الكلامي: ٨١-٩١، ولسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء: ٩٨.

وقد قسّم(أوستن) الإنجازيات على قسمين، هما:(الإنجازيات الصريحة)، و(الإنجازيات البدائية)، والإنجازيات الصريحة تتمثل بالجمل التي يتم التصريح فيها بالفعل المنجز[1]، وبملاحظة ما يساق من أمثلة في ذلك نجد أنَّ هذه الإنجازيات مبنية على الفعل المضارع المسند إلى المتكلم أي أنَّها اعتمدت المعيار المتخذ للحكم بإنشائية الجملة نفسه، أما الإنجازيات البدائية فهي تلك الجمل التي لا يصرح فيها بالفعل المنجز ولكن يفهم من السياق وظروف الخطاب[2].

وهذه على نحو مختصر آراء(أوستن) التي كانت أساس الدراسات في نظرية (الأفعال الكلامية)، وما ارتبط بذلك من نظرية(الاستلزام الحواري)؛ وقد أفاد(سيرل) من جهود(أوستن) فأعاد النظر ببعض ما طرحه(أوستن) مسلطا الضوء على بعض الجوانب في نظرية(أفعال الكلام)؛ فمن أهم جهوده إجراء تعديل على تقسيم(أوستن) للأفعال المنجزة في النص؛ فتبنى التقسيم الثلاثي مع تغييرات فيه، فالفعل الأول عنده هو فعل(التلفظ أو النطق)، والفعل الثاني هو فعل(الإسناد أو المحتوى القضوي)، أي محتوى القضية وهي(الدلالة العرفية أو التواضعية) التي تحملها تلك الجملة، أمَّا الفعل الثالث فهو فعل(الكلام) الذي بحثه (أوستن) وعنى به الفعل الذي ينجز عند التلفظ[3].

---

(1) ينظر: نظرية الفعل الكلامي:٥٦، ونظرية أفعال الكلام العامة: ٩٣.

(2) ينظر في ذلك: نظرية أفعال الكلام العامة:٩٣-٩٤.

(3) ينظر: نظرية الفعل الكلامي:١٠٩، والخطاب اللساني العربي: ١٩٣/٢.

والملاحظ أنَّ فعل(المحتوى القضوي) قد بحثه(أوستن) ضمن فعل(القول) لكنَّه عبَّر عنه بـ(الفعل الدلالي) الذي يعد جوهر فعل القول[1]، وفعل القول يعني عنده: "فعل التلفظ بصيغة ذات صوت محدد وتركيب مخصوص ودلالة معينة" [2].

ومن أهم ما طرحه(سيرل) تمييزهُ بين(واسم المحتوى القضوي)، و(واسم القوة المتضمّنة في القول)، فـ(المحتوى القضوي) يشير إلى القضية التي يتم إبلاغها، أمّا (القوة المتضمنة في القول) فتعني الفعل المتضمن في القول المحقق[3]، وأفاد(سيرل) من الفرق بينهما في تحليل النصوص في جانب أهمله اللسانيون، وهو أن يفصل تحليل الفعل الكلامي عن تحليل القضية[4]؛ إذ رأى(سيرل) أننا نستطيع نفي جملة(أنا أعدك بالمجيء) بطريقتين الأولى بنفي الفعل الكلامي(أنا لا أعد)، والأخرى بنفي محتوى الجملة أو القضية(أعد بعدم المجيء)[5]، ونفي(المحتوى القضوي) لا يغير الفعل الكلامي؛ إذ ينجز ولكن في حال أخرى وبنمط مختلف من الألفاظ.

ومما طرحه(سيرل) تفريقه بين(الألفاظ الإنجازية)، و(الأفعال الإنجازية)، فالألفاظ الإنجازية، هي: مجموعة كلمات يتم التلفظ بها لإنجاز

---

(١) ينظر: نظرية الفعل الكلامي: ٨١-٨٢، والاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٢.

(٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٦٠.

(٣) ينظر: العقل واللغة والمجتمع:٢٠٣-٢٠٤، والتداولية اليوم،علم جديد في التواصل: ٣٣.

(٤) ينظر: نظرية الفعل الكلامي:١١٣.

(٥) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٦٩.

الأفعال، وتختلف من لغة لأخرى، أمّا الأفعال الإنجازية: فهي ما ينجز من أحداث، ولا يختلف الحدث الإنجازي من لغة إلى أخرى[1].

ومن أهم الأفكار التي تؤسّس لدراسة مفهوم الاستلزام الحواري والتي طرحها(سيرل) ما نصَّ عليه من تمييز بين(معنى الجملة أو معنى الكلمة)، و(معنى المُتكلَّم أو معنى المنطوق)[2]؛ إذ يتحدد معنى الجملة بمعاني الكلمات وترتيبها النحوي أحيانا، أمّا المعنى المتكلَّم فيعتمد في حدود معينة على مقاصد الكلام، ومعنى المتكلَّم هو الذي يمكِّن المتكلمين من استعمال الجمل لكي تعني شيئا ما عبر النطق بها[3].

وما ذكره(سيرل) من وجود فرق بين(معنى الجملة)، و(معنى المتكلَّم) عالجه(غرايس) في تقديم رؤيته لمفهوم(الاستلزام الحواري)؛ فقد أكَّد(غرايس) أنَّ هناك فرقاً بين(ما يقال)، و(ما يتم إبلاغه للمخاطب)[4]، وهو ما أشارت إليه بعض الدراسات التداولية بالفرق بين(الجملة) بما هي نظام لغوي، و(القول) بما هو استعمال وتداول لأبنية اللغة؛ فـ(الجملة) هي "سلسلة من الكلمات التي يمكن لزيدٍ أو عمرو التلفظ بها في ملابسات مختلفة، ولا تتغير بتغير هذهِ

---

(1) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٠، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٢٤.

(2) ينظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٠٦.

(3) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٦-٢٠٧.

(4) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣٠، والقاموس الموسوعي للتداولية: ٢١٢.

الملابسات"[١]، أمّا(القول) "فهو حاصل التلفظ بجملة وهو يتغير بتغير الملابسات والقائلين" [٢].

ومما يرتبط بتفريقه بين(الجملة)، و(القول) طرح(غرايس) مفهوم(الدلالة غير الطبيعية) في مقابل(الدلالة الطبيعية)؛ فـ(الدلالة غير الطبيعية) تقوم على الصلة بين معانٍ أو دلالات يريدُ المتكلم إبلاغها المخاطبَ، والجملِ المستعملة لذلك الإبلاغ[٣]، وتقوم هذهِ الدلالة على قصدينِ، هما: القصد الإخباري، وفيه يقصدُ المتكلم إبلاغَ المخاطب(محتوى قضويا معينا)، والقصد التواصلي، ويتحقق بتعرف المخاطب على القصد الإخباري[٤]، وفيما يتعلق بالقصد الثاني أقول وبعبارة أخرى إنّ إبلاغ المخاطَب بما يحمله الخطاب من معنى يتوقف على ضرورة إدراك المتلقي أنّ المتكلم يريد إبلاغهُ قضية معينة، ويتوقف إدراك المخاطَب لذلك القصد في جانب كبير منه على استعمال المتكلّم الألفاظَ والتراكيب بما يخدم عملية التواصل.

وفيما يتعلق بلسانيات الحجاج يظهر لي أنّ القصد التواصلي يرتبط بصورة وثيقة بالغرض الحجاجي من الخطاب؛ لأنّ(الحجاج) وبخاصة في مفهومي(برلمان) و(ديكرو) خطابٌ يستهدف إقناع المتلقي، ويقتضي الإقناع توظيف عناصر اللغة بما يخدم إيصال الفكرة للمتلقي، والانطلاق من المشتركات في الحوار التي تمثّلها منطلقات الحجاج، كما يقتضي القصد

---

(١) التداولية اليوم،علم جديد في التواصل: ٥٥.

(٢) المصدر نفسه:الصفحة نفسها، وينظر: تداوليات الخطاب السياسي:٦٥.

(٣) ينظر: التداولية اليوم،علم جديد في التواصل:٥٣، وتداوليات الخطاب السياسي:٧٥.

(٤) ينظر: التداولية اليوم،علم جديد في التواصل: ٧٩.

الإخباري إدراك المتلقي الأفكار المطروحة وقبوله الحوار فيها بوصفه مرحلة أولى على طريق الاقتناع بها.

وارتباط الحجاج بالقصد التواصلي يتأسس على العلاقة الوثيقة للحجاج بالتداول؛ فالحجاج بحسب مفهوم طه عبد الرحمن"فعالية تداولية جدلية"[1]، والتداولية تأتي من طابعه المقامي والاجتماعي؛ لأنَّ الحجاج" يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية"[2].

وقد توصَّل(غرايس) إلى نظرية(الاستلزام الحواري أو التخاطبي) في مجموعة مقالات له بعنوان(المنطق والحوار)[3]، وهذه النظرية تعدُّ من أهم عناصر (التداولية)؛ فقد قدَّم بها تفسيرا للخلاف بين(الدلالة الحرفية) للخطاب، والمعنى الذي يتم إبلاغه للمتلقي[4].

وأشار(غرايس) إلى وجود معنيين للخطاب، أحدهما(صريح)، والآخر (ضمني)[5]، والمعنى(الضمني) هو المعنى المقصود في دراسة(الاستلزام الحواري)؛ والمعاني الصريحة هي:" تلك التي تدل عليها صيغة الجملة ذاتها"[6]، أمَّا المعاني الضمنية فهي:" تلك التي لا تدل عليها صيغة الجملة، وإنَّما

---

(1) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٦٥، وينظر: تداوليات الخطاب السياسي:٦٢.

(2) تداوليات الخطاب السياسي:٦٢-٦٣.

(3) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣.

(4) ينظر: الخطاب اللساني العربي: ٢/٢٧٥، والتداوليات علم استعمال اللغة: ٢٩٣.

(5) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٣.

(6) الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٥.

وإنّما تتولد طبقا للسياقات أو المقامات التي تنجز فيها"[١]؛ وبناء على التعريف السابق للمعنى الضمني أستطيع أن أعرّف(الاستلزام الحواري) للخطاب بأنّه:" المعنى الذي يستلزمه الخطاب حواريا، ويختلف باختلاف ملابسات النص، والمتحاورين".

وفيما يتعلق باستلزام الخطابات الحجاجية منها معاني ضمنية أشير إلى ما طرحه الأستاذ طه عبد الرحمن من تصوّر يجعل فيه مفردات(الخطاب، والحجاج، والمجاز) مترابطة؛ فقد عرّف(الخطاب) بأنه:"كل منطوقٍ به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"[٢]، وعرّف(الحِجاج) بأنّه:"كل منطوقٍ به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها"[٣]،وبعد بيان طبيعة(الحجاج) التي تقوم على الالتباس في المقاصد من قصد العلم بالشيء وقصد العمل به فضلا عن التباس المقاصد المقامية بالمقاصد الحوارية[٤]، توصّل إلى تعريف(المجاز) على وفق المنهج الحجاجي، فهو:"كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها بحسب القيمة التي تحملها"[٥]، وأشار بهذا التعريف إلى أنّ(المجاز) يقوم على الالتباس نفسه الذي نجدهُ في(الحِجاج)، لقيامه على الاستدلال بـ(عبارة الدعوى على إشارتها)، فيقوم فيه تعالقٌ بين معنيين هما(الواقعي أو الحقيقي)، و(القيمي

---

[١] الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٥.

[٢] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢١٥.

[٣] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٢٦.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٢٣١.

[٥] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

أو المجازي)[1]، وهذه الرؤية لمفهوم الالتباس المرتبط بالحجاج نجدها في لسانيات الخطاب؛ إذ نصَّت على أنَّه قد يكون للفظ مدلول مختلف بحسب المعاني الاستدلالية التي نعمل على استخراجها لتأويله[2].

وهذه الآراء بمجملها توضح لنا أهمية دراسة(الحجاج) على وفق مفهوم الاستلزام الحواري بوصفه منهجا حديثا في تحليلِ النصوص وبيان دلالات الألفاظ.

والقول بوجود معنيين(حرفي)، و(مستلزم) أثارَ مجموعة تساؤلات تستدعي إيجاد حل لها ضمن النظرية التداولية، وهذهِ التساؤلات الأساسية، هي[3]:

١. في حال استعمال جملة ما، مخروجا بمعناها الظاهر المدلول عليهِ بصيغتها، إلى معنى آخر، ما هو في نهاية الأمر التأويل الوارد لهذهِ الجملة؟، هل يعتمد المعنى المستلزم وحده باعتبار السابق إلى الفهم، أم هل يُعتمد المعنى الصريح والمعنى المستلزم معا؟ باعتبار الثاني ناتجا عن الأول.

٢. في حالة اعتماد كل من المعنيين، يجد المتصدي لتحليل هذهِ الظاهرة نفسه أمام مشكلينِ رئيسين:

أ- كيف تتم عملية الاستلزام هذهِ؟،أي كيف يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم خطابيا بوجه عام.

---

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣١

(٢) ينظر: معجم تحليل الخطاب:٣٦.

(٣) التداوليات علم استعمال اللغة:٢٩٤.

ب- كيف يمكن معرفة وضبط المعنى الذي تخرج إليهِ صيغة معينة من الصيغ الجملية كالاستفهام والأمر والنداء والنهي؟.

وهذهِ التساؤلات دفعت اللسانيين إلى تقديم تصوراتهم لوصف ظاهرة(الاستلزام التخاطبي)، ومن أهم هذهِ المقترحات مقترح(غرايس) الذي أشرت إليه في تصنيفه استلزام الخطاب لمعنيين، استلزام تخاطبي، واستلزام عرفي[١].

- **مبدأ التعاون وخصائص الاستلزام الحواري**

ومقاربة(غرايس) تقوم على افتراض مبدأ سمَّاه مبدأ(التعاون)[٢]، وجوهر هذا المبدأ يقوم على التعاون بين المتكلم، والمخاطب في بيان دلالة الخطاب، وصيغة هذا المبدأ هي: "اجعل مساهمتك في المحادثة بحسب ما تتطلبه الحال أثناء المحادثة برعايةِ الغرض المطلوب، أو اتجاه تبادل الكلام الذي تشارك فيه" [٣].

تتفرع عن هذا المبدأ أربعة قواعد تتضمن كل واحدة منها قواعد فرعية، وهذهِ القواعد،هي[٤]:

---

[١] الخطاب اللساني العربي:٢/٣٤٧.

[٢] الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٩، ولسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء:١٠٨.

[٣] النص الخطاب والإجراء:٤٩٥، وينظر:الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٩.

[٤] النص والخطاب والإجراء:٤٩٥-٤٩٦، وأفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٥.

١. **قاعدة الكم:** اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليهِ أو تنقص منه.

٢. **قاعدة القيمة أو الكيف:** لا تقل ما تعتقد أنّه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليهِ.

٣. **قاعدة العلاقة أو المناسبة:** اجعل كلامك ذا صلة بالموضوع.

٤. **قاعدة الطريقة أو الصيغة:** كن واضحا، وتجنب الغموض، واللبس، وأوجز الكلام ونظمه.

وتنشأ ظاهرة(الاستلزام الحواري) عندما يتم خرق مبدأ أو أكثر من مبادئ التعاون، وهذا الخرق يؤدي إلى انتقال دلالة اللفظ من معناها الظاهر إلى معنى غير صريح[١]، فهذا الانتهاك(المحمود) لمبدأ التعاون يفرض على المتلقي البحث عن المعنى المطلوب، ومع هذا الخرق يبقى المتكلم والمخاطب مخلصينِ للمبدأ السابق؛ إذ إنَّ الخطيب حريصٌ على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، والمخاطب أو المتلقي يبذل الجهد اللازم للوصول إلى ذلك المعنى الذي قصده المتكلم من دون أن يضلِّل أحدهما الآخر[٢]؛ لما في ذلك من إخلال بجوهر عملية التواصل اللساني بين المتحاورين الذي يبنى على مبدأ التعاون من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى أرى أن الخطاب(المضلِّل) يتعارض مع أصل فكرة (الحجاج) القائم على اقتناع الجمهور المخاطب بما يطرح من أفكار؛ لأنَّ التضليل الفكري بحسب ما أثبته أرسطو والفلاسفة المسلمون من أهم صفات الخطاب

---

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢٣٩.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٧.

السفسطائي، فهو يقلبُ الحقائق، ويوهم الجمهور[١]، وينطلق في ذلك من استعمال أنظمة اللغة من صرفية، وتركيبية، ومعجمية، فضلا عن(النبر)[٢]، بما يخدم مغالطاتهم في القياس، وهذا الأمر يمثل عنصر الفرق الرئيس بين الحجاج والمغالطة.

وذكر(غرايس) مجموعة من الخصائص التي يتصف بها(الاستلزام الحواري) والتي تميِّزهُ من (الاستلزام العرفي)، وأهم هذه الخصائص،هي[٣]:

١- **قابلية الإلغاء:** ويكون بإضافة قول أو مجموعة أقوال تفسِد استلزام الجملة لمعنى معين، نحو: لم أقرأ كل كتبك، فهذا القول يستلزم قراءة بعضها، فإذا أعقبنا القول السابق بقولنا: الحق إنِّي لم أقرأ أيًّا منها، فهذا القول يلغي الاستلزام التخاطبي.

٢- **الاستلزام التخاطبي لا يقبل الانفصال عن(المحتوى الدلالي):** وهذه الخاصية للاستلزام التخاطبي تجعله قريبا من(الاقتضاء) إلا أنَّ الفرق الرئيس بينهما يتمثل في عدم انفكاك الاستلزام الحواري عن(التعبيرات الحوارية) المؤسَّسة على ظرف الخطاب[٤]، وهذا الأمر فيما يبدو لي هو جوهر الفرق بينهما؛ لأنَّ الاقتضاء لا يأخذ بمقام الحال في تفسير معنى اللفظ بخلاف الاستلزام الحواري، فقولهم:(فلانة جميلة) على سبيل السخرية

---

[١] ينظر: تلخيص السفسطة:١٢.

[٢] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:٢٣٧ .

[٣] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٩- ٤١، والخطاب اللساني العربي: ٢/٣٣٢- ٣٣٩.

[٤] الخطاب اللساني العربي:٢/ ٣٣٧.

يستلزم تخاطبيا: فلانة قبيحة، حتى مع استعمال جمل ترادف الجملة الأولى، مثل: فلانة آية من الجمال، أو فلانة يتهافت عليها العشاق[1].

٣- **قابلية التأويل والتقدير:** وتشير هذه الخاصية إلى قيام الاستلزام التخاطبي على جملة من الإجراءات للمرور من(المعنى الحرفي) للملفوظ إلى(المعنى المقصود)، وتقوم هذه الإجراءات على افتراض احترام مبدأ التعاون مع إمكانية حصول خرق في قوانينه الفرعية، والمتلقي يدرك ذلك المعنى المقصود، فالمثل العربي:(كثير رماد القدر) يجعل المتلقي يقوم بسلسلة من التأويلات لتفسير دلالة الجملة بالمضياف[2].

٤. قابلية التغير: والمقصود بهذه الخاصية أنّ الاستلزام يتغير بتغير السياقات التي يرد فيها؛ فالجملة:(كم عمرك؟) تستلزم في سياق ما السؤال عن عمر المخاطب، وفي سياق آخر الإنكار على فعل قام به[3]، وهذا يعني أنّ الاستلزام التخاطبي متغير بحسب السياقات.

وقد وجهت بعض الانتقادات لنظرية(غرايس) في الاستلزام التخاطبي، منها إسقاطه الجانب التهذيبي في عملية الحوار، واكتفاؤه بجانب التبليغ في الحوار[4]؛ وقد طُرِحت في سياق ذلك مبادئ أخرى كمبدأ(التهذيب) وغيره[5].

---

[1] ينظر: الخطاب اللساني العربي:٢/ ٣٣٧.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ٢/٣٣٦.

[3] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٠.

[4] ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١١٨.

[5] ينظر في ذلك: المصدر نفسه: ١١٨-١٢١، واللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٤٠-٢٤٩.

ويبدو لي أنَّ معظم الانتقادات الموجَّهة لـ(غرايس) لا تتعلق بالجانب اللغوي في عملية الحوار؛ فالمقترحات أو المبادئ التي أضيفت لمبدأ(التعاون) تتعلق بالدرجة الأساس بشخصيات الحوار وضرورة إضافة مبادئ تراعي حالهم بخلاف مفهوم(غرايس) الذي تمحَّورَ في الجانب التداولي من أبنيةِ اللغة؛ وأعتقد أنَّ أهم ما يميز مبدأ(التعاون) والقواعد المتفرعة منه هو أنّها صدرت من(غرايس) الذي نشأ في ظل مدرسة(أكسفورد) التي ذكرت سابقا أنّها تأثّرت بفلسفة(فنجشتاين)، وهذه الفلسفة انطلقت من قضية محورية في دراسة اللغة، وهي دراسة ظروف استعمالها، والانطلاق من الدلالة الحرفية للملفوظ إلى الدلالات الضمنية أو ما يحملهُ اللفظ من قيمة دلالية.

ومن أهم أفكار(غرايس) فيما يتعلق بدراسة(الحجاج) مقابلته إياه بـ(الاستدلال)، ذاكرا أنَّ(الاستدلال) لا يشتمل على النظر في مقام الخطاب، والجمهور الذي يتوجَّهُ إليه، في الوقت الذي ينهض فيه(الحجاج) بدراسة سياق الخطاب والجمهور[1].

وأفكار(غرايس) السابقة في تفسير دلالة اللفظ على غير المعنى الحرفي له، قادته إلى تقسيم الدلالات التي يحملها اللفظ على معانٍ صريحةٍ وأخرى ضمنية، وهي كما يأتي[2]:

١- المعاني الصريحة:وهي المدلول عليها بصيغة الجملة نفسها، وتقسم على:

أ- المحتوى القضوي:وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.

---

(١) ينظر: الحجاج بين النظرية والأسلوب: ٨.

(٢) التداولية عند العلماء العرب: ٣٤- ٣٥.

ب- القوة الإنجازية الحرفية: وهي القوة الدلالية المؤشَّر لها بأدوات تصبغُ الجملة بصبغة أسلوبية ما كالاستفهام، والأمر، والنهي، والتوكيد.

٢- المعاني الضمنية:وهي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكن للسياق دخل في تحديدها والتوجيه إليها، وتشمل ما يأتي:

أ- معانٍ عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطا أصيلا، وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين، مثل معنى الاقتضاء.

ب- معانٍ حوارية: وهي التي تتولد طبقا للمقامات التي تُنجَز فيها الجملة، مثل الاستلزام الحواري.

وهذه الأفكار بمجملها تمثل رؤية(غرايس) في الخلاف بين المعنى الحرفي، للمنفوظات، وما يتم إبلاغه للمتلقي، ويبدو لي أنَّ مقاربة(سيرل) في تفسير الخلاف السابق تشترك في مضمونها مع الهدف الذي أراده(غرايس) في مفهومه، وإن كان المنطلق عند(سيرل) هي نظرية(أفعال الكلام) التي طرح فيها مفهوم(فعل الكلام غير المباشر) جزءا من نظرية الإنجازات في اللغة؛ فقد صنَّف(أفعال الكلام)على صنفين هما(الأفعال المباشرة)، و(الأفعال غير المباشرة)[1]، والفعل(غير المباشر) هو الفعل الذي ينجزهُ المتكلم فضلا عن الفعل الكلامي الذي تدل عليهِ الصيغة النحوية بصورة مباشرة؛ فمثلا قد تأتي جملة استفهامية وفي الوقت نفسه يقصد بها معنى آخر؛ فمعناها النحوي يمثل فعلها المباشر أما الحدث أو المعنى المنجز فيتمثل بالفعل غير المباشر[2]؛ وقد

---

[1] ينظر:التداوليات علم استعمال اللغة:٢٩٦، ولسانيات الخطاب،مباحث في التأسيس والإجراء:١٠٠.

[2] ينظر: نظرية الفعل الكلامي:١٥٢- ١٥٣، ومعجم تحليل الخطاب:٢٢-٢٣.

طرح(سيرل) جملة من المراحل الاستدلالية للوصول إلى الفعل الإنجازي غير المباشر المتكون من فعلين، هما(الفعل الإنجازي الابتدائي)، و(الفعل الإنجازي الثانوي)[١]، وترتبط هذه الخطوات بما وضعه من شروط لإنجاز الأفعال اللغوية[٢].

وأرى أنّ مقاربة(سيرل)، وإن اختلفت في العنوان عما بحثه(غرايس) إلا أنهّما متفقان في جوهر العمل، وهو تفسير دلالة النصوص أحيانا على غير معناها الحرفي، وعلاقة ذلك بمقام الخطاب، وعلاقة المتلقي بمنتج الخطاب، إلا أنّ الفرق الجوهري بين المقاربتين يكمن في نقطة انطلاق كلٍّ منهما؛ إذ بنى(سيرل) مفهومه على نظرية أفعال الكلام، أمّا(غرايس) فكانت نظريته فيما يبدو لي أوسع وأشمل في علاج الاختلاف بين المعنيين(الحرفي، والتواصلي)، لأنّها تعالج الملفوظات عامة من دون تفريق بين ما عُدّ منطوقات(أدائية)، و(تقريرية) أو ما عُرِف في تطور لاحق في نظرية(أوستن) بالأفعال الإنجازية(الصريحة)، و(البدائية)، فمختلف الخطابات تبلغ المتلقي معنى يتوصل إليه بالجمع بين المعنى الحرفي، ومقام التلفظ.

وتلزم الإشارة إلى أنّ علماءنا الأوائل تنبهوا إلى ظاهرة(الاستلزام الحواري) وإن لم يضعوا لها مصطلحا يدل عليها، وقد تركّزت هذه الجهود في مباحث البلاغيين والأصوليين؛ لقيام تلك الدراسات على الاهتمام بالمعنى؛ فقد درسوا(المعنى الأصلي)، و(المعنى الفرعي) على نحو يفوق ما نجده في جهود النحاة، وعلّل بعض الباحثين ذلك بأنّ النحو يهتم بالجانب الصوري والبنية

---

[١] ينظر:الخطاب اللساني العربي:٢/ ٢٤٩- ٢٥٠.

[٢] ينظر:المصدر نفسه: ٢/٢٥٠.

اللغوية، أمّا الجانبان الأصولي والبلاغي فيبحثان المعنى المعتمد دلاليا، وتداوليا[١].

ورجّح بعض الباحثين أنّ الأصوليين هم أول من اكتشف البعد الإنجازي في الاستعمال اللغوي؛ لأنّ تصديهم لبيان الأحكام الشرعية اقتضى اطلاعهم الواسع على تراكيب النصوص ودراسة المنطق[٢].

ونلحظ أنّ إدراك الأصوليين جوهر فكرة(الاستلزام الحواري) تمثّل في باب(الأمر والنهي)[٣]؛ ويكمن سبب ذلك في مهمة الأصولي في الكشف عن الأحكام الشرعية، والأمر والنهي هما مدار هذه الأحكام، قال السرخسي(ت٤٩٠هـ): "فأحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي؛ لأنّ معظم الابتلاء بهما، وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام"[٤].

والتواصل في الفكر الأصولي ينتمي إلى جنس التواصل اللغوي، ويقوم على أركان أربعة تتوافق مع ما أشارت إليه الدراسات التداولية الحديثة من عناصر التواصل اللساني، وهذه الأركان، هي[٥]:

١. الحكم، وهو الخطاب.
٢. الحاكم، وهو المخاطِب؛ فإن الحكم خطاب وكلام، فاعله كل متكلم.
٣. المحكوم عليه، وهو المكلّف، وشرطه أن يكون عاقلا يفهم الخطاب.
٤. المحكوم فيه، وهو الفعل؛ إذ لا يدخل تحت التكليف إلا الأفعال الاختيارية.

---

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ٦٦.

(٢) ينظر: نظرية الفعل الكلامي: ٢٢٥.

(٣) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٤٣-٤٤.

(٤) أصول السرخسي:١/١١.

(٥) المستصفى من علم الأصول:١/١٥٧- ١٦٢.

والملاحظ في دراسات الأصوليين الأخذ بظروف إنتاج الخطاب دون الاكتفاء بصيغة الكلمة في بيان دلالتها على الحكم؛ فالأمر عندهم:" القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأمور به"[1]؛ فهذا التعريف لم يكتفِ بالصيغة الدالة على الأمر في إثبات دلالته بل عدّت المسألة تخضع لمقتضيات المقام وما يحيط بالنّص من ملابسات، وقد رأى بعض العلماء أنّ الجملة الخبرية تدل أحيانا على الوجوب، وهي في دلالتها هذه أقوى من صيغة فعل الأمر من منطلق أن وقوع الامتثال من المكلّف أمر مفروغ منه[2].

ولم يأخذ الأصوليون بالمبنى النحوي والصرفي لصيغة(افعل) في توجيه دلالتها بل تنوعت الدلالات بحسب القرائن؛ فبعد أن بيّنوا أنّ صيغة(افعل) قد وضعها اللغويون لاستدعاء الفعل[3]، ذكروا أنّ الفرق بين معانيها كان بحسب(الرتبة)، يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ): "قسموها إذا كان القائل فوق المقول له أمرا، وإذا كان دونه سؤالاً، وطلبا، ودعاء"[4]، وإذا لم تكن الصيغة استدعاء للفعل كانت مجازا خارجة عن الباب الذي وضعت له[5].

وما قيل في(الأمر) يقال في(النهي) مثله من استلزام الخطاب لدلالات معينة تتفرع عنه، والنهي هو:"القول المقتضي ترك الفعل"[6]، أو هو:"عبارة عن عن زجر العالي للداني عن الفعل، وردعه عنه"[1].

---

(1) المستصفى من علم الأصول: ٦١/٢.

(2) ينظر في ذلك:أصول الفقه:٦٠/١.

(3) ينظر: المصدر نفسه:١٦٣/١، ومعالم الدين وملاذ المجتهدين:٤٥.

(4) العدة في أصول الفقه:١٦٣/١.

(5) ينظر: معالم الدين وملاذ المجتهدين: ٥٠، ومعارج الأصول:٦٤.

(6) المستصفى من علم الأصول:٦١/٢.

وأشار بعض الأصوليين إلى أنَّ صيغة النهي "حقيقة في التحريم، ومجاز في غيره؛ لأنّه المتبادر منها العرف العام عند الإطلاق"(٢).

ومما يرتبط بمفهوم(الاستلزام الحواري) ما ذكرته كتب الأصول من خروج صيغة النهي إلى معان مستلزمة، منها: التحريم، والإرشاد، والدعاء، وبيان العاقبة(٣)، وهذه الدلالات للنص تأتي بحسب مقام التلفظ.

ويبدو لي أنَّ أهم مظاهر مفهوم(الاستلزام الحواري) في دراسات الأصوليين كانت في مباحث(الحقيقة والمجاز)؛ فقد أشاروا فيها إلى أثر مقام الخطاب في توجيه دلالة اللفظ؛ فالحقيقة:"استعمال اللفظ فيما وضع له في الاصطلاح الذي وقع فيه التخاطب"(٤)، أمَّا المجاز فهو:"كل لفظة أفيد بها غير ما وضعت له في أصل الاصطلاح الذي وقع التخاطب به لعلاقة بينهما"(٥).

ويتمثل الجهد الآخر عند علمائنا بدراسات البلاغيين الذين كانت لهم إسهاماتهم في دراسة خروج دلالة اللفظ عن المعنى الأصلي إلى المعنى الفرعي، وبخاصة في أبواب الطلب؛ فقد ذكر السكاكي(ت٦٢٦هـ) أنَّ صيغ الطلب تخرج إلى معانٍ تناسب المقام عند عدم حملها على الظاهر من دلالتها، فقال:" والسابق في الاعتبار في كلام العرب شيئان، الخبر والطلب المنحصر

---

(١) أصول الفقه:٨٩/١.

(٢) معالم الدين وملاذ المجتهدين:٩٠.

(٣) ينظر: المستصفى من علم الأصول: ٦٧/٢.

(٤) مبادئ الوصول إلى علم الأصول: ٧٠.

(٥) معارج الأصول: ٥٠.

بحكم الاستقراء في الأبواب الخمسة التي يأتيك ذكرها، وما سوى ذلك نتائج امتناع إجراء الكلام على الأصل"[١].

وأبواب الطلب في الفكر البلاغي، هي:التمني، والأمر، والنهي، والنداء، والاستفهام[٢]، ولهذه الأنماط من الطَّلب أدوات تدلُّ عليها، وتحمل معنى أصيلا، وتخرج أقسام الطلب من هذه المعاني إلى معانٍ فرعية، يقول السَّكاكي:" متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولَّد منها ما ناسب المقام"[٣].

وذكر البلاغيون شروطا لإجراء القول بمعناه العرفي أو الوضعي؛ ففي باب الاستفهام فرَّقُوا بين الاستفهام الحقيقي، والمجازي بوساطة معيار(الطلب المتضمَّن في(الاستفهام) وغيره من أنواع الطلب؛ يقول السَّكاكي أنَّ:"الفرق بين الطلب في الاستفهام وبين الطلب في الأمر والنهي والنداء واضح؛ فإنَّك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش مطابق له، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع"[٤]؛ فهذا النَّص صريح في بيان ما يُضبَط به الاستفهام الحقيقي وهو طلب الفهم أي حصول صورة الشيء في الذهن.

أمَّا في حالات المساءلة بالأدوات فالصورة حاصلة في الذهن؛ لأنَّ من يطرح التساؤل ليس جاهلا بالشيء وإنما يريد إيصال فكرة ما باستفهامه هذا، وما أشرت إليه يرتبط بالوعي البلاغي لقضية(الاستلزام الحواري)، وقد عبر التفتازاني(ت٧٩١هـ) عن ذلك بقوله:"لو استعمل صيغ الطلب لمطلوب حاصل

---

[١] مفتاح العلوم: ٧١.

[٢] ينظر: المصدر نفسه: ١٣١.

[٣] المصدر نفسه: ١٣٢، وينظر:الإيضاح في علوم البلاغة: ١٠٨-١١٦.

[٤] مفتاح العلوم: ١٣٢.

امتنع إجراؤها على معانيها الحقيقية، ويتولد منها بحسب القرائن ما يناسب المقام"[1].

وبملاحظة الجهود المتقدمة أصوليا وبلاغيا نخلص إلى أنَّ علماءنا وقفوا على ملامح مفهوم(الاستلزام الحواري) ضمن معالجاتهم في تحليل الخطاب، ولكنَّهم لم يضعوا له مصطلحا يدل عليه، ولم يذكروا خطوات إجرائية لكيفية انتقال دلالة اللفظ من معناها الوضعي العرفي إلى معنى آخر مستلزم بالصورة التي وجدناها عند اللسانيين في دراساتهم الحديثة؛ فقد تميزت تلك الدراسات بتحديد المصطلح لهذا الباب التداولي، وتحديد سبل الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المستلزم بحسب المناهج المتبعة، ولهذا السبب انصب البحث على تطبيق نظرية(الاستلزام الحواري) بمفهومها المعاصر على الخطاب الحجاجي في نهج البلاغة، وسأقف على نصوص متنوعة تتضمن خرقا(ظاهرا) لمبدأ التعاون وفي الوقف نفسه وعند متابعة ظروف إنتاج الخطاب والجمهور المتلقي نجد أنَّ الخرق لمبدأ(التعاون)لا يعني أنَّ الإمام(ع) ليس متعاونا مع الجمهور المتلقي، ولو كان كذلك لرأينا الجمهور المخاطب وبخاصة الخصم منهم يردُّ على الإمام(ع) بأنَّ كلامه لا علاقة له بما يطرحه من أفكار، أو أنَّه يتضمن مغالطات وتضليلا للمتلقي.

- **التداولية المدمجة**

وقبل أن أدرس(الاستلزام الحواري) على نحو تطبيقي في الخطاب الحجاجي أرغب في بيان مسألة مهمة تتعلق بتلك الدراسة ومدى ملاءمتها لما يُعرَف في الدراسات التداولية بـ(التداولية المدمجة)؛ لأنَّ البحث سيكشف عن

---

[1] الشرح المُختصَر: ١٩٢.

تضافر الدلالة الحرفية، ومعنى(التلّفظ) في بيان حجاجية الخطـــاب؛ فالتداوليـــة المدمجة ترتبط بلسانيات الحجاج، ويقتضي ذلك أن أبيِّن على نحـــو مختصـــر مفهومها.

والتداولية المدمجة: "نظرية دلالية تدمج فـــي الشـــفرة اللغوية(اللســـان بالمعنى السوسيري) مظاهر عملية القول"[١]، وعند مراجعة مفهوم(اللسان) فـــي فكر(سوسير) نجد له جانبين "جانب فردي وجانب اجتماعي"[٢]، ولكـــل جانـــب منهما نظام خاص به؛ فـــ"اللسان ينطوي دائما على وجود نظام ثابـــت، كمـــا ينطوي على عملية التطور"[٣]،أي أنّ النظام الثابت في مفهوم(اللســـان) يتمثـــل بقواعد(اللغة) التي تتصف بالثبات النسبي في جوانبها المختلفة مـــن صـــوتية، وصرفية، وتركيبية بخلاف(الكلام) الذي يمثل استعمال أبناء الجماعة اللّغويـــة لمنظومة اللغة.

و(التداولية المدمجة) تولي عملية(التلفُّظ) وإلقاء القول من جانب منـــتج الخطاب أهمية كبرى؛ و(التلفُّظ) بحسب مفهوم(ديكرو)،هو:"الواقعة التاريخيـــة التي تنشأ عبر الملفوظ"[٤].

وتتصف(التداولية المدمجة) باتخاذها المسارات الحجاجية وسيلة فـــي تأويل (الأقوال) وتتابعها، فليست العلاقة بينها اســـتنتاجية؛ والحجـــاج بحســـب التداولية المدمجة يبنى على معانٍ مقبولة من عامة الناس[٥].

---

(١) القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٣.

(٢) علم اللغة العام: ٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧.

(٤) لسانيات الخطاب، صابر الحباشة: ٢٦.

(٥) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٥.

و(التداولية المدمجة) من حيث كونها مشروعا لسانيا تداوليا تقف بين نزعتين لسانيتين(قصيين) هما النزعة الدلالية في مقابل النزعة الذرائعية(التداولية)[1]؛ إذ تؤكد(النزعة الدلالية القصوى) أنَّ الاعتبارات السياقية ليس لها أيّة إفادة في التحليل، أمّا(النزعة التداولية القصوى) فترى على العكس من ذلك أنَّ الدلالة الخطابية محددة سياقيا[2]، أمّا التداولية المدمجة فتقف موقفا وسطا بين المنهجين السابقين؛ إذ يقترح الأستاذ صابر الحباشة أنَّ تتأسّس على تداولية معتدلة تقترح تقديم الدلالة بوصفها(سياقية) أساسا كما تقترح تنسيق تحليل الدلالة بقضايا التداولية[3]، وهذا باختصار مفهوم(التداولية المدمجة) وموقعها في البحث اللساني.

ويبدو لي بحسب الفهم السابق لـ(التداولية المدمجة) أنَّها لا تتقاطع مع دراسة(الاستلزام الحواري) التي تقوم في جوهرها على الانتقال من المعنى الوضعي أو الحرفي إلى المعنى المستلزم، ضمن ثنائية(الجملة/القول)؛ وإن ذكر بعض الباحثين أنَّ(ديكرو) "يرفض مفهوم المعنى الحرفي"[4]، إلا أنَّه معارض بما ذكره آخرون؛ فـ(الحرفية) التي تعني:"القول بوجود معنى أول للكلمة ومعنى متفرّع أو سياقي"[5]، هي من النقاط التي كان(ديكرو) متذبذبا في قبولها واستُشهد في سياق ذلك بنصوص لـ(ديكرو)[6]، ويظهر لي وبمتابعة ما ذُكِر

---

[1] ينظر: لسانيات الخطاب، صابر الحباشة: ٢٢٩.

[2] ينظر: لسانيات الخطاب، صابر الحباشة: ٢٣٠.

[3] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[4] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٥٨.

[5] الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢/٣٢٦.

[6] ينظر في ذلك:المصدر نفسه: ٢/٣٢٦- ٣٢٧.

في ذلك أنَّ(التداولية المدمجة) لم ترفض وجود دلالة حرفية لمكونات الجملة[١]؛ فالأستاذ المبخوت - وهو الذي ذكر أن(ديكرو) يرفض وجود معنى حرفي للجملة- نصَّ على أنَّ الأساس في مفهوم التداولية المدمجة هو التمييز بين الجملة، والقول من ناحية والدلالة والمعنى من ناحية أخرى؛ فالدلالة تنتج عن تحليل(الجملة) بحسب ما توفره معطياتها اللغوية من تركيب ومعجم؛ أمَّا المعنى فينتج عن تحليل(القول) بحسب معطياته المقامية[٢]، أي أنَّها تثبت أنَّه ليس في الإمكان بيان معنى النصّ من دون الرجوع إلى مقام الخطاب؛ فالتداولية المدمجة "ترفض المقابلة التقليدية بين المعنى الحرفي(معنى الكلمات أو الجملة) والمعنى غير الحرفي(معنى إلقاء القول أو معنى المتكلّم)"[٣]، أي أنَّها لا تكتفي في بيان دلالة الألفاظ بذكر المعنى الحرفي أو الوصفي لها بل توظِّف عنصر المقام في بيان المعنى، ويبيِّن(شكري المبخوت) هذه الثنائية في توجيه المعنى؛ فيقول:"ولبيان إمكان هذه المراوحة بين دلالة الجملة ومعنى القول يُفترض أنَّ القول تعليمات وتوجيهات تقدمها المكونات اللغوية للمؤول حتى يتمكن من الوصول إلى المعلومات الكفيلة ببيان كيفية إعادة بناء المعنى الذي قصد إليه القائل"[٤].

وبهذا أرى أنَّ التداولية المدمجة ليست ضد (الحرفية) وإنَّما ضد اعتماد المعنى الحرفي وحده في توضيح معنى الملفوظات، وهذا الأمر يقودنا إلى الإجابة عن إشكال ربما يُطرح عن إمكان المواءمة بين دراسة مفهوم(الاستلزام

---

[١] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٥٧ .

[٢] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[٣] القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٣.

[٤] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٥٨ .

الحواري) مع الاستفادة من منهج التداولية المدمجة في بيان معنى(التلفُّظ)؛ فما ذكرتُه من انطلاق(التداولية المدمجة) من المعنى الحرفي المتمثِّل بدلالة الجملة نحو تأويل النص بما ينسجم مع مقام الخطاب ويخدم حجاجيته يمثِّل جوهر(الاستلزام الحواري)، وبذلك ستكون معالجة النصوص على وفق منهج(الاستلزام الحواري)، وبخاصة أنَّ التداولية المدمجة تدرس معنى الأقوال مرتكزة على أساسينِ هما دلالة الجملة(المجال اللغوي)، ومعنى القول(المجال البلاغي أو التداولي)[1].

---

[1] ينظر: القاموس الموسوم للتداولية: ٨٤.

المبحث الثاني

الاستلزام الحواري في الخطاب الحجاجي

سأدرس في هذا المبحث ظاهرة الاستلزام الحواري في حجاج النهج على نحو تطبيقي بعد أن وقفت على أسس مفهوم الاستلزام الحواري، والمحاولات الغربية في تفسير هذه الظاهرة وفي مقدمتها نظرية(غرايس) عبر مبدأ(التعاون)، والقواعد المتفرعة منه التي تعدُّ الأساس في ذلك، وجهود(سيرل) في دراسة الأفعال الإنجازية وطرحه مفهوم (الفعل الإنجازي الابتدائي) الذي يقرب من نظرية الاستلزام الحواري وإن كان يتعلق بمفهوم آخر من مفاهيم التداولية هو "أفعال الكلام"؛ إذ يُشتَق من التلفظ الحرفي بوساطة ستراتيجية استدلالية تؤكد أن هذا الفعل المنجز هو هدف التواصل الحواري التخاطبي[١].

والمحاور الحجاجية في نهج البلاغة تقسم كما ذكرت على قسمين، هما خطب الإمام، وكتبه؛ ففيهما يبرز ما أشار إليه أرسطو من عناصر "الصناعة القولية"، وهما الخطب، والمناقشات الجدلية[٢]، وقد عزَّزت الدارسات الحجاجية الحديثة هذه النظرة إلى النمطين الرئيسين للخطاب[٣]، ويتضح صواب التقسيم للخطاب الحجاجي بالاطلاع على دلالة استعمال الألفاظ في الحجاج؛ فعندما يخاطب(ع) الجمهور لإقناعهم بما يطرحه من أفكار في مقابل ما يطرحه أعداؤه يستعمل الألفاظ التي تدل على خطأ منهج الأعداء، وضرورة عدم الوقوع في الفتن، كما أنَّه يوصيهم بالتقوى التي تستلزم دلالة تختلف عن دلالتها إذا وجِّهت

---

(١) ينظر: الخطاب اللساني العربي:٢/٢٤٩.

(٢) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية:١٦٨ .

(٣) ينظر في ذلك: الحجاج في البلاغة المعاصرة:٥٢-٥٣.

إلى من يحارب الخليفة الشرعي، وعندما يكون الخطاب موجّها إلـى جماعة بعينها أو إلى شخص ما بما له من منصب أو منزلة يكون الحجاج خاصا بما يريده الإمام من نتائج تبعا لذلك الحجاج؛ لذلك يتم استعمال الالفاظ بدلالات تتناسب ومقام الخطاب.

وهذا التقسيم الفكري لصناعة الخطاب الحجاجي سيكون أساسا لدراسة ظاهرة(الاستلزام الخطابي) في النهج، وبذلك ستكون الدراسة على وفق محوريين، هما: الاستلزام الحواري في خطب الإمام وكلماته، والاستلزام الحواري في كتبه ورسائله.

أولا: الاستلزام الحواري في خطب الإمام (ع) وكلماته

وردت نصوص حجاجية في خطب الإمام في معرض طرح أفكاره على الجمهور المتلقي، وهذه النصوص تضمّنت ألفاظا وتراكيب تستلزم دلالات تناسب مقام الخطاب الحجاجي؛ فهي تحمل معاني ضمنية متولدة في مقام الخطاب، ولها معنى(صريح)، وآخر(ضمني)، وهذه الدلالة المتولدة من هذين المعنيين عبّر عنها (غرايس) بـ(الدلالة غير الطبيعية)، التي تقوم على الصلة بين المعنى الذي يريد المتكلم إبلاغه المتلقي، والألفاظ أو الجمل المستعملة لذلك الإبلاغ[1].

وقد مثّل الاستلزام الحواري المؤسّس على خرق مبدأ التعاون من خلال قاعدة (الطريقة أو الصيغة) التي تنصُّ على تجنب اللبس والغموض في الكلام[2]، ظاهرة استحقت معالجتها في نصوص حجاجية متعددة في خطب

---

[1] ينظر: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل:٥٣.

[2] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٥.

الإمام(ع)، وسأقف على أمثلة متنوعة لهذا النمط من خرق مبدأ التعاون، منها قوله(ع) في خطبة له: "**ألا وإنَّ الشيطان قد ذمَّر حزبه، واستجلب جَلَبَه، ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه**"[1]؛ فلفظ(الشيطان) له معنيان ظاهر، ومستلزم، وهذا المعنى المستلزم هو ما طلبه الإمام من استعماله ذلك اللفظ لما له من أثر في إقناع الجمهور بضرورة التصدي للناكثين؛ فللفظ الشيطان دلالة على السوء والانحراف عما أمر به الله تعالى لاسيما في المجتمع الإسلامي؛ وخطاب الإمام كان بعد أن نكث أصحاب الجمل بيعته واجتمعوا على حربه وهو ما عناه بـ(ذمَّر) أي:حضَّ وحثَّ[2]؛ فالطاقة الحجاجية للنص تأتي من تعبير الإمام عن جمعهم بـ(الشيطان)، وقد نشأ الاستلزام الحواري بخرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة)؛ فالإمام لم يصرح بأسمائهم، وذلك مدعاة لوقوع المتلقي في لبس إرادة الأشخاص المعنيين بالخطاب لكن بلحاظ ظروفه وسياق النص يتوصل المتلقي إلى ما يريده الإمام(ع) من مواجهة الشيطان المتمثل بالناكثين الذين أرادوا عودة الظلم إلى ديار المسلمين.

ومن الخطاب الحجاجي المستلزم دلالة تنطلق من المعنى الظاهر نحو المعنى المستلزم تخاطبيا، قوله(ع):"**الحمدُ لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل**"[3]، فالخطب لغة: الأمر[4]، والفادح: الثقيل[5]، واعتماد المعنى الظاهر لهاتين اللفظتين لا يعطي " قوة حجاجية للخطاب" تبدأ أولا بالتعبير عما

---

(1) نهج البلاغة: ١٠٨.

(2) ينظر: لسان العرب(ذمر):٤/٣١١.

(3) نهج البلاغة:١٤٠.

(4) ينظر: لسان العرب(خطب):١/٣٦٠.

(5) ينظر: تهذيب اللغة(فدح):٤/٤٢٨.

حدث بالخطب(الفادح والجليل)، وإذا ما عرفنا أنّ الخطبة قيلت بعد التحكيم، وما كان من أمر الحكمينِ وتآمرهما على الإمام أدركنا أن دلالة(التلفُّظ) لهاتين اللفظتين هي(التحكيم).

وهذا التداخل بين الدلالتين من أهم ما طرحته(التداولية المدمجة) التي لا ترى فرقا حقيقيا بين(معنى الملفوظ)، و(قيمة التلفظ)[1]؛ فمعنى اللفظ يتحدد بالسياق الذي يرد فيه، وخرق لمبدأ التعاون كان بالخروج على قاعدة(الطريقة أو الصيغة)؛ فبعد أن حمد الإمام الله تعالى على ابتلائه يصرِّح بأنَّه قد نهاهم عن الاحتكام لهذين الحكمين فخالفه الجمهور وكانت النتيجة تشظي جبهة الإمام وتفرقها.

ومن الألفاظ التي تستلزم دلالات تخاطبية لفظ (الشيطان) في قوله(ع) في معركة صفين:"وعليكم بهذا السَّواد الأعظم، والرِّواق المطنَّب، فاضربوا ثَبَجه؛ فإنّ الشيطان كامنٌ في كسره، قد قدَّم للوثبة يداً، وأخَّر للنكوص رجلا"[2]، والسَّواد الأعظم أراد به جمهور أهل الشام، و(الرواق المطنَّب) هو مضرب معاوية ذو الأطناب[3]، وهي: الحبال والأوتاد[4]، والثَّبج من كل شيء:"معظمه ووسطه وأعلاه"[5]، وقصدُ الإمام من ذلك ضرب قلب الجيش الذي يتمركز معاوية فيه، وبعد ذلك دخل رابط السببية على لفظ(الشيطان) المؤكد بأداة التوكيد الذي يستلزم حواريا صرف معناه إلى معنى خاص

---

[1] ينظر: التداولية والحجاج: ٢٦.

[2] نهج البلاغة: ١٧٢.

[3] ينظر: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١٧٤/٥.

[4] ينظر: لسان العرب(طنب): ٥٦١/١.

[5] المصدر نفسه(ثبج): ٢١٩/٢.

هو(معاوية)؛ لما يتضمنه ذكر ذلك من إقناع وحثٍّ للجمهور المخاطب على قتال القوم الذين يقودهم(الشيطان) المتمثل بمعاوية، وهو توظيف لدلالة اللفظ بما يناسب حجاجيته.

ومن الخطاب الحجاجي العام المتضمن ألفاظا تستلزم دلالات تخاطبية تمّ فيها خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) ما ورد في بيان ما يصيب الأمم بسبب ابتعادها عما أمر به الله تعالى، ويومئ فيها إلى أهمية إتباع الأنبياء وأوصيائهم وفي هذا إشارة إلى ضرورة طاعة الإمام(ع) بوصفه وصيّ النبيِّ فضلا عن كونه الخليفة الذي بايعه جمهور المسلمين؛ فقال:"**فيا عجباً، وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفِرق على اختلاف حجَجِها في دينها، لا يقتصّون أثر نبيٍّ، ولا يقتدون بعمل وصيٍّ، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا**"[1]؛ فالنَّص الحجاجي تضمن مجموعة ألفاظ تستلزم معاني ضمنية كان الهدف منها إقناع الجمهور بتبني أفكار تتأسّس على دلالات خاصة بتلك الألفاظ، وأولى هذه الألفاظ(نبي)؛ فاللفظ بحسب معناه الظاهر يطلق على جميع من ينبئون عن الله تعالى[2]، وقد ذكر اللغويون أصلين يحتمل أن يشتق منه لفظ(النبيّ)، الأول من (النباوة) وهي الارتفاع فهم أرفع خلق الله، والآخر من الإنباء عن الله وقد تركت الهمزة[3]، وهذه الدلالات تمثل المعنى الظاهر أمّا المعنى المستلزم حواريا فهو النبي محمد(ص)؛ فالجمهور مسلمون

---

[1] نهج البلاغة: ٢١٦.

[2] ينظر في ذلك: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم:١٦٨١.

[3] ينظر: لسان العرب(نبا): ٣٠٢/١٥.

وتكليفهم يقتضي اتباع ما جاء به النبي(ص) بالدرجة الأساس، والإمام يرى لزوم اقتصاص أثر النبي جزءا رئيسا في حماية نظام المجتمع الإسلامي، ومن ثم طرح الإمام اللفظ الحجاجي الآخر المستلزم معنى ضمنيا وهو(وصي)، وهذا الأمر يدلنا على أنّ الاقتداء بالوصي يأتي بعد اتباع النبي(ص)، والمعنى الظاهر للوصي هو من يتصل نسبه بنسب الرسول(ص) وقد علَّل اللغويون بذلك وصف الإمام(ع) بالوصيِّ[1]، ويبدو لي أنّ اللفظ بمعناه الظاهر لا يحمل أيّ طاقة حجاجية؛ فهل يكون صلاح الأمم ولاسيما الاسلامية باتباع كل من يتصل نسبه بالرسول(ص) وإن لم يكن مهتديا بهديه؟، الجواب(لا)؛ فهذا المعنى الظاهر لـ(الوصيّ) الذي أراد اللغويون توجيه اللفظ إليه لا يمكن الركون إليه عند دراسة حجاجية النص؛ لأنّ المعنى المستلزم للفظ يدل على الاتصال بالنبي(ص) بما له من ولاية على المسلمين، وولايته بذلك هي امتداد لولاية الله تعالى، وولاية نبيه، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[2]، فهذه الآية نزلت في الإمام عليٍّ(ع)[3]، وهي صريحة في إثبات اتصال ولاية الإمام بولاية النبي(ص) فضلا عن اتصال نسبه (ع) بالنبي (ص)، وهذا المعنى المستلزم يعطي الخطاب دفعا حجاجيا لإقناع الجمهور بالأفكار المطروحة وهي ضرورة طاعة النبي(ص) وخليفته الإمام(ع).

---

[1] ينظر في ذلك: المصدر نفسه(وصي): ٣٩٤/١٥.

[2] المائدة: ٥٥.

[3] ينظر في ذلك: الجامع لأحكام القرآن:٥٤/٨-٥٥، وتفسير القرآن العظيم:٧٤/٢.

ومن الألفاظ الحجاجية الأخرى في الخطاب السابق والمستلزمة معان غير ما هو مطروح لها(المعروف)، و(المنكر)؛ فالمعروف بحسب المعنى الظاهر الذي رصده الإمام(ع) عند الأمم التي تهلك اجتماعيا هو ما يتوافق مع أهوائهم ورغباتهم، والمنكر عندهم ما رفضته أهواؤهم، وهذه النظرة الاجتماعية المخطوءة للمعروف والمنكر تذكرنا بموقف السفسطائيين الذي أشرت إليه في الفصل الأول؛ فالحق والباطل يخضعان لهوى الإنسان ورغباته وليس هناك من ثوابت دينية أو أخلاقية تتحكم بسلوك الإنسان بحسب الفكر السفسطائي[1]، والإمام(ع) ينطلق من ذلك ليبين أنّ من أهم أسباب هلاك الأمم هو تحكيمهم الأهواء والابتعاد عن ما يقره العقل والشرع، ومنها يجب أن يكون المعروف والمنكر معنيان غير ما هو شائع في المجتمع، ومقتضى الخطاب السابق أنّ الإمام رأى أنّ المجتمع بحاجة إلى ما يطرحه مع كونه يمثل مجتمع صدر الإسلام الذي ترى بعض المدارس الإسلامية أنه خير العصور، وقد قصد الإمام معاني خاصة لهذه الألفاظ ترسّخ المفهوم الدلالي من الحجاج؛ فالمعروف هو ما أثبته الشرع والعقل، والمنكر ما رفضاه، والملاحظ أنّ المفهوم غير الصحيح للمعروف والمنكر لم يكن شائعا في أذهان الجمهور حسب بل نراه حتى في معجمات المصطلحات؛ فهذا الكفوي (ت١٠٩٤هـ) قد حدّ(المعروف) بقوله:" كل ما سكنت إليه النفس واستحسنته لحسنه عقلا أو شرعا أو عرفا فهو معروف"[2]؛ إذ جعل ما يُتعارف عليه شرعا أو عقلا أو عرفا بمنزلة واحدة، وهذا غير صحيح وواضح البطلان؛ لأنّه لو تعارف أبناء المجتمع على عمل

---

[1] ينظر: أسس الفلسفة والمذهب الواقعي: ١/ ٦٧.

[2] الكليات: ٨٠٤.

من الأعمال المحرمة المنكرة؛ فهل سيكون معروفا؟، الجواب(لا)؛ وهذا الرأي هو الذي تصدى لتفنيده الفلاسفة فضلا عن الديانات السماوية وجاء الحجاج السابق في سياق الرفض لذلك التوجيه الخطير لدلالة المعروف والمنكر، فينبغي ترك تفسير المعروف بما يتعارف عليه، والاكتفاء بقيدي(الشرع والعقل) في تحديد دلالة اللفظ لاسيما في دراسة الخطاب الحجاجي الذي يراد به حث الجمهور على الالتزام بضوابط الدين الإسلامي، وبذلك كانت الألفاظ السابقة (النبي، والوصي، والمعروف، والمنكر) تستلزم معاني تتناسب مع ما يطرحه الإمام لجمهوره فالنبي هو(محمد)، والوصي هو(علي) والمعروف ما أقرّه الشرع والعقل، والمنكر ما أنكره العقل والشرع؛ وطرح تلك الألفاظ بالدلالات التخاطبية مما استلزمه الحجاج لتكون بديلا عما يطرح له من دلالات في الثقافات الأخرى، وهذا التوظيف للمعنى المستلزم في الحجاج لاسيما في النص السابق يمثّل ما يُعرَف بـ(سلطة الخطاب) التي تتماهى فيها دلالة الألفاظ مع شخصية(الخطيب)؛ فاستعمال اللغة وإلقاء الخطاب يرتبطان بالمقام الاجتماعي للمتكلم وما يتميز به من صفات شخصية يألفها فيه المجتمع، وما له من بلاغة، وينبغي التلاؤم بين المتكلم ووظيفته الاجتماعية من جانب وبين ما يصدر عنه من خطاب من جانب آخر[1].

ومن الاستلزام الحواري في خطاب الإمام قوله:"**أمّا بعد، أيُّها النَّاس فأنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري بعد أن ماج غيهبها، واشتد كَلَبُها**"[2]؛ فالفتنة هي مركز الحجاج في النص، واللفظ يقبل تأويلات

---

[1] ينظر: اللغة، دفاتر فلسفة: ١٠٧- ١٠٨.

[2] نهج البلاغة: ٥٤٦.

متعددة؛ فعصر الإمام وما حدث فيه كان عصر فتن بدأت بفتنة مقتل الخليفة عثمان، لكن المرجَّح لديّ أنّ المعنى المستلزم بحسب المقام هي فتنة أصحاب الجمل وقتالهم؛ نظرا لافتتان كثير من المسلمين بدعواهم ووجود اثنين من كبار صحابة النبي(ص) مع أم المؤمنين في جانب الجماعة التي خرجت عن الخلافة ونكثت البيعة؛ فكانت النتيجة أن حدثت الحرب وسقط بسبب ذلك آلاف القتلى من الفريقين[١].

ويرجِّح لديَّ ما ذكرته من توجيه دلالي للفظ(الفتنة) ما ذكره ابن أبي الحديد من أنّ المسلمين كانوا يهابون قتال أهل القبلة، وما يستتبع ذلك من تفاصيل كتقسيم فيئهم، والإجهاز على الجرحى منهم، وتتبع من يهرب منهم، فضلا عن استعظامهم حرب عائشة وطلحة والزبير[٢]؛ فالاستلزام الحواري نشأ من خرق قاعدة(الطريقة أو الصيغة)؛ لأنّ اللفظ وإن قبل تأويلات متعددة إلا أنّ قصد الإمام كان واحدا منها والمخاطب يدرك ذلك فلم يكن هناك لبس في إرادة المعنى المطلوب وذلك بذكره مصاحبات اللفظ الحجاجي، نحو الغيهب وهو:شدة السَّواد[٣]، والكَلَب:الشدِّة والشَّر والأذى[٤]، وقد أجاد الإمام(ع) في وصف فتنتهم بتلك الألفاظ بسبب الشخصيات التي اشتركت فيها.

ومن أمثلة الاستلزام الحواري قول الإمام في كلام له لأهل الكوفة:"**ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز**

---

[١] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٥٣٩/٤.
[٢] ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٤٥/٧.
[٣] ينظر: تهذيب اللغة(غهب): ٣٨٨/٥.
[٤] ينظر: تاج اللغة(كلب): ٢١٤/١.

طريقه، وبموضع الشَّجا من مساغ ريقه"[1]، والاستلزام الحواري يتمثل في لفظ(الظالم)؛ فاللفظ اشتق من (الظلم) وهو وضع الشيء في غير موضعه[2]، ومنه أطلق على كل من يخرج عن جادة الحق، وهذا اللفظ يستلزم معنى حواريا يناسب المقام هو(معاوية)؛ لأنَّها وردت في سياق التحذير من انتصار أتباع معاوية على جمهوره نتيجة تخاذلهم ليس لأنهم على حقٍ وأهل العراق على باطل، بل لأنّهم طوعٌ لأميرهم[3]؛ فهم مسرعون في طاعة معاوية بخلاف أتباع الإمام المتباطئين عن حقه، ويشير الإمام إلى مفارقة غريبة ابتلي بها(ع)، فيقول:"**صاحبكم يطيع الله وانتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه**"[4]، فأتباع معاوية يطيعونه مع عصيانه الله وارتكابه الآثام، أمَّا أتباع الإمام فهم عاصون له على الرغم من طاعته الله؛ واستلزام لفظ(الظالم) معنى ضمنيا هو(معاوية) يطابق ما طرحته التداولية المدمجة من رفض للتعارض بين(السيميائية)، و(البرغماتية)، أي بين دلالة اللفظ وقيمة التلفظ به[5].

ومن الاستلزام الحواري ما ورد في خطبة له تعرف بـ(الملاحم) في قوله: "**ما لي أراكم أشباحا بلا أرواحٍ، وأرواحا بلا أشباحٍ، ونسَّاكا بلا صلاحٍ، وتجارا بلا أرباحٍ، وأيقاظا نوّماً، وشُهودا غُيَّبا، وناظرة عُميا، وسامعة صُمًّا، وناطقة بُكما**"[6]؛ فالحجاج بني على تراكيب، وألفاظ تستلزم معاني ضمنية،

---

(1) نهج البلاغة: ٢٥٢-٢٥٣.

(2) ينظر: لسان العرب(ظلم): ٣٧٣/١٢.

(3) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧٢/٧.

(4) نهج البلاغة: ٢٥٣- ٢٥٤.

(5) ينظر: الفلسفة البلاغة: ٩٣، والقاموس الموسوعي للتداولية:٨٣.

(6) نهج البلاغة: ٢٧٦.

فالشَّبح:"الشخص"[1]، وقد عنى الإمام أنَّهم أشخاص لا عقول لهم، وهم في الوقت نفسه كالأرواح بلا أشخاص في خفتهم وطيشهم[2]، أمَّا الاستلزام الحواري فكان في قوله: نسَّاكا بلا صلاح، والنسك: "العبادة والطاعة"[3]، والنَّص يستلزم معنى ضمنيا؛ لأنَّ الإمام قد وصفهم بعدم الصلاح، ويبدو لي أنَّ المعنى التلفظي بحسب المقام هو(النفاق)؛ فهم يظهرون طاعة الله وهم بعيدون عن التقوى، ووصف الإمام لهم بالتجار مع عدم الربح يقتضي معنى ضمنيا للتاجر؛ لأنَّ من أهم صفات التاجر البحث عن الربح، وذلك الوصف يرتبط بكونهم منافقين ويمثل قرينة تعين في بيان معنى الجملة السابقة؛ فالمنافق يظهر الإيمان ويؤدي الطاعات لكن بسبب ما يضمره من كفر يبطل عمله ولا يُقبل، هذه التجارة في حقيقتها(رياء)؛ لأنَّهم يظهرون الإيمان متاجرين به من غير أن يُقبل منهم أي عمل، فهم خاسرون والمعنى المستلزم للتجارة في الخطاب هو الرياء، ويستمر الإمام بذكر صفات الجمهور؛ لينتقل إلى بيان اتصافهم بالصفات المتعارضة في ظاهرها، والمجتمعة في حقيقتها؛ فهم أيقاظ في ظاهرهم لكنهم نُوَّم، ولديهم حاسة نظر لكنَّهم عميٌ في بصائرهم، ولهم أسماع لكنهم صمٌّ عن سماع صوت الحق، ولهم نطق لكن بغير حقٍّ؛فالحجاج في النَّص أراد منه الإمام إقناعهم بترك هذه الصفات من نفاق ورياء والتوجّه إلى الله تعالى بنيّةٍ خالصة من هذه الأمراض النفسية.

---

(1) تاج اللغة وصحاح العربية(شبح): ٣٧٧/١.

(2) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٨٧/٧.

(3) لسان العرب (نسك): ٤٩٨/١٠.

وقد نشأ الاستلزام الحواري في الخطاب السابق بخرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) التي تقتضي من المتلقي بذل الجهد اللازم للوصول إلـــى المعنـــى المستلزم للخطاب، ونلحظ النّص الحجاجي يتصف بما يُعرف بــ(التضام)، وهو من عناصر (الاتساق المعجمي)[1]، فيما يتعلـــق بواحـــدة مـــن أهـــم صـــوره وهو(التضاد)[2]، وهو ما يعني الجمع بين الألفاظ المتقابلة في الخطاب؛ فهـــذه الألفاظ المتقابلة في دلالتها صورت لنا حال الجمهور المتلقي للحجاج بما يكشف عن عمق المسؤولية الملقاة على عاتق الإمام في ضـــرورة إقنـــاع الجمهـــور بالعودة إلى جادة الصواب، والخطاب الحجاجي السابق يقتضي أن الأمة اتصفت بهذه الصفات التي ذكرها الإمام (ع)، والملاحظ أن مـــا ذكرتـــه مـــن دلالـــة الاقتضاء يمثل مرحلة تسبق نطق الإمام بالخطاب الحجاجي؛ وقد شبَّهت بعض الدراسات مقتضى النص بالخبر المعلوم، أمّا (المنطوق) فيمثل الخبـــر الجديـــد قياسا له[3]، وهذا المقتضى وما نتج عنه من تشخيص الإمام حال الأمة كان أهم عناصر الحجاج الذي أراد به الإمام تغيير واقع الجمهور، وذلك بتقوية المفهوم الذي جاء به النبي(ص) وهذا الأمر يمثل جوهر عملية(الحجاج) التي تهدف في جانب كبير منها زيادة تسليم الجمهور بما يعرض عليه من أطروحات[4]، ويبدو لي أنّه بسبب الفتوحات، وتغيّر قيم المجتمع، وانشغال الناس بما درته الفتوحات من أموال تصدى الإمام(ع) لتصحيح حركة الأمة عبر طرحه منظومة أخـــلاق تمثل امتدادا للتعاليم الإسلامية بل هي جوهرها؛ وهذا التغيير المتعلق بـــأخلاق

---

[1] ينظر : لسانيات النص: ٢٤- ٢٣٨، ونظرية علم النص: ١١١.

[2] ينظر : إشكالات النص، دراسة لسانية نصية: ٣٦٦.

[3] ينظر :الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١٧١/١.

[4] ينظر : كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٨٤.

الإنسان وتهذيب المجتمع يدخل بحسب دراسات الفلاسفة في باب ما يعرف بـ(الحكمة العملية)، والتي تتعلق بحياة الإنسان في مقابل(الحكمة النظرية) التي تبحث في مسائل التوحيد، والنبوة، والمعاد[1].

ومن الاستلزام الحواري في خطب الإمام، قوله(ع):"**أتامروني أن أطلب النَّصر بالجور في مَن ولِّيت عليه؟**"[2]، والخطاب ورد في جواب له(ع) عندما عوتب على جعله الناس أسوة في العطاء، ومن أهم عناصر الحجاج في النّص لفظ(الجور)، ومقام التلفظ يكشف للباحث المعنى المستلزم أو الضمني للفظ؛ فقد ذكر اللغويون أنّه: نقيض العدل، والميل عن القصد[3]، فكأنَّ المعجميين افترضوا أنّ(العدل) يمثل القصد المفترض للإنسان، والميل عنه(ظلم)، وهذا المعنى يعدُّ الدلالة الحرفية، وبتطبيق منهج(التداولية المدمجة) الذي يقوم على رفض المواءمة بين الدلالة الحرفية للفظ، والدلالة غير الحرفية(معنى إلقاء القول)[4]، يكون المعنى الحواري للجور في الخطاب الحجاجي هو التفريق في العطاء، وعدم المساواة، ونعت الإمام ذلك بالجور مما يدخل في زيادة حجاجية الخطاب؛ لما يثيره مفهوم(الجور) في نفس الجمهور من وجوب التصدي للانحراف في توزيع الثروة على الرعية، وقد أجاد الإمام في ذلك لقطع الطريق أمام من جاءه مطالبا بالعودة إلى سيرة من سبقه، وقد ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي أنَّ مسألة العطاء مسألة فقهية، ورأي عليٍّ(ع) وأبي بكر فيها واحد،

---

[1] ينظر في ذلك: الحكمة عند الإمام علي(عليه السلام) في نهجه: ١٥.

[2] نهج البلاغة: ٣٢٠.

[3] لسان العرب(جور):٤/١٥٣.

[4] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية:٨٣.

وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيء والصدقات، وكان رأي عمر عندما تولى الخلافة تفضيل بعض الناس على بعض، وجعلهم طبقات، وكان قد أشار بذلك على أبي بكر أيام خلافته بذلك فلم يقبل[1]، فرأى الإمام(ع) العودة إلى سنّة النبي (ص) التي سار عليها الخليفة أبو بكر، ومقتضى الخطاب أنَّ القوم كانوا يريدون العودة إلى سنة من سبق عليًا لأنَّها كانت أجدى لهم وأفضل، كما يقتضي الخطاب أنّهم يمثلون علية القوم ممن كان يأخذ ما لا يأخذ غيره من أموال.

ومن الاستلزام الحواري في خطب الإمام وكلماته، قوله (ع):"**هذا جزاء من ترك العقدة، أما والله لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرا**"[2]؛ فالاستلزام الحواري في الخطاب الحجاجي يكمن برأيي في قوله:(العقدة)، وهي في معناها الوضعي أو الحرفي:"موضع العَقْد، وهو ما عُقِد عليه"[3]، ويتعلق المعنى الوضعي السابق بالمكان الذي يشتد فيه الشيء ويغلظ كالخيط أو الحبل ونحوهما[4]؛ وقد وظَّف الإمام المعنى الظاهر للفظ للوصول إلى المعنى المستلزم تخاطبيا، لأنَّ معنى التلفظ يستدعي تأويل(العقدة) بحرب معاوية وأتباعه وضرورة الاستمرار في قتالهم في معركة(صفين)، وعدم الإصغاء إلى خدعة رفع المصاحف؛ فكان المعنى التواضعي منطلقا للوصول إلى المعنى المستلزم للفظ، وقد نشأ الاستلزام الحواري بسبب خرق قاعدة(الطريقة أو الصيغة) التي مثلث ظاهرة في الحجاج

---

(1) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٨/١١١.

(2) نهج البلاغة: ٣٠٩.

(3) تاج اللغة وصحاح العربية(عقد): ٢/٥١٠.

(4) ينظر في ذلك: لسان العرب(عقد): ٣/٢٩٦.

الموجّه إلى الجمهور العام، وأرى أن الخطاب السابق وبخرقه هذه القاعدة المبنية على تجنب اللبس والغموض بالدرجة الأولى كان خرقا أفادت منه الظاهرة الحجاجية؛ لأنَّ الحجاج كما أسلفت عند حديثي عن خصائص الخطاب الحجاجي في الفصل الأول ينبني على حالة(الالتباس) التي رصدها الأستاذ طه عبد الرحمن في تداخل اعتباري القيمة، والواقع[1]، فضلا عن تبادل الأدوار الحجاجية بين كل من المدعي والمعترض، وتداخل مفهومي(القيمة)، و(الواقع) يعني تداخل المعنى الوضعي الحقيقي للفظ مع المعنى(القيمي) أي قيمة التلفظ في مقام الخطاب وما يقتضيه ذلك من توجيّه لدلالة الخطاب بما يخدم حجاجيته؛ فالالتباس الحجاجي لا يعني وجود أكثر من دلالة للفظ في الخطاب، وإنما اختيار دلالة يستلزمها مقام الحجاج تنطلق من المعنى الظاهر تناسب المقام؛ إذ تستعار ألفاظ معينة لتوظيف معناها بما يخدم الحجاج، وبالرغم من وجود دلالات متعددة للألفاظ التي رصدتها المعجمات لكن انطلاقا من نظرية الحجاج بوصفه حوارا إقناعيا يخاطب ذهن المتلقي نرى وجود دلالة واحدة للفظ في الخطاب الحجاجي، وهو المعنى المستلزم حواريا الذي يقصده الخطيب، وينبغي على المتلقي التنبُّه له وتشخيصه؛ لتنجح بذلك عملية التواصل اللساني، وهذا القول هو الذي يخلِّص الحجاج من تهمة التلاعب(السفسطائي) بالجمهور والقائم على إيهام الجمهور؛ فالتبكيت السفسطائي هو وليد ما تحدثه الألفاظ في المعاني من لبس وغموض نتيجة لاشتراك معانٍ مختلفة في لفظ واحد[2]؛ "لأنَّ الألفاظ ليس يمكن أن تُجعَل مساوية للمعاني، ومتعددة بتعددها، إذ كانت المعاني تكاد

---

[1] ينظر في ذلك: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣٠.

[2] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٤٠٨.

أن تكون غير متناهية، والألفاظ متناهية، فلو جعلت الألفاظ معادلة للمعاني لعسر ذلك عند النطق بها، أو الحفظ لها، أو لم يمكن"[١]، وقد أشار ابن رشد إلى أنَّ المشترك اللفظي يدخل في باب التبكيت السفسطائي جاعلا إياه مما يكون من قِبل الألفاظ[٢]؛ فهذا النوع من الخطاب(المغالطي) ينشأ من محورين هما:الألفاظ، والمعاني ولكلٍ منهما أقسام تقع بسببها السفسطة[٣].

ومن هنا نستدلُ على ضرورة حصر دلالة اللفظ في الخطاب الحجاجي بمعنى يستلزمه الخطاب ومقصود من قبل الخطيب، والملاحظ أنَّ الأستاذ عبد الله صولة رأى أنَّ وجود(المشترك اللفظي) في الكلام مدعاة إلى ضعف الحجاج بل وإلى انعدامه أحيانا؛ لما يتركه في الخطاب من فضاء حرية للمخاطب يمكِّنه من المراوغة، وتجاهل مفهوم الخطاب والتظاهر بفهم غيره منه[٤]؛ وما ذهبت إليه التداولية المدمجة من رفض للفصل بين الدلالة الحرفية للفظ، وقيمة التلفظ بمعنى أننا لا نستطيع أن نصف معنى كلمة من دون إحالة على مقاصد التلفظ[٥]، يعدُّ إضاءة لمفهوم(الالتباس الحجاجي) البعيد عن قضايا(المشترك اللفظي)؛ إذ يتأسس ذلك الالتباس على الانتقال من المعنى الظاهر أو الوضعي للفظ إلى المعنى المستلزم؛ والملاحظ أنَّ(سيرل) قد تجاوز مسألة المعنى الحرفي للفظ؛ فلا يصح اعتماده في تحليل الخطاب بل لا وجود له إلاَّ من طريق الخلفية

---

[١] تلخيص السفسطة: ٦.

[٢] ينظر في ذلك: المصدر نفسه: ١٦- ١٧.

[٣] ينظر في ذلك: المصدر نفسه:١٦-٢٧.

[٤] ينظر في ذلك: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٦٦.

[٥] ينظر: التداولية والحجاج:٢٦.

الإبلاغية للخطاب[١]، وهو بهذا يشير إلى أهمية قصد استعمال لفظ بدلالة حرفية ما في سياق معين لتستلزم دلالة ضمنية تناسب المقام.

ثانيا: الاستلزام الحواري في كتب الإمام (ع) ورسائله

بعد أن درسنا ظاهرة الاستلزام الحواري في خطب الإمام وكلماته ننتقل إلى دراسة الاستلزام الحواري في كتبه (ع) ورسائله، وقد مثّل الاستلزام الحواري ظاهرة مهمة في حجاج الإمام(ع) معاوية وجمهوره فضلا عن غيرهم، ومن ذلك قوله (ع) في كتاب إلى معاوية:"**اتق الله فيما لديك، وانظر في حقّه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تُعذَر بجهالته؛ فإنّ للطاعة أعلاما واضحة، وسبلا منيرة، ومحجة نهجة، وغاية مطّلبة**"[٢]؛ فالاستلزام الحواري في الخطاب السابق يكمن في قوله: (اتق الله)؛ لأنّ تقوى الله تعني بحسب معناها الظاهر:مخافة الله وحذره[٣]، وقبل أن أشير إلى المعنى المستلزم تخاطبيا للتقوى يظهر لي أنّ الأمر بالتقوى في حجاج الإمام ينفتح على قراءات متعددة تتنوع بحسب نوع الجمهور المتلقي للخطاب؛ فقد توجّه الإمام إلى الجمهور يأمرهم بالتقوى وهي مخافة الله في مواضع كثيرة منها ما ورد في خطبته(الغرّاء)، وهو قوله:"**فاتقوا الله تقية من سَمِع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن**"[٤]، ونظير ذلك من خطب الإمام التي كان كثيرا ما يحث فيها على تقوى الله.

---

[١] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٤٣٣.

[٢] نهج البلاغة: ٦١٣.

[٣] ينظر في ذلك: لسان العرب(وقي): ١٥/ ٤٠٢.

[٤] نهج البلاغة: ١٩٦.

وبيان دلالة اللفظ ولاسيما محل الحجاج في الخطاب يعتمد على الجمهور المتلقي؛ فالأمر بالتقوى في أمثال هذه الخطابات يعني العمل بما فرضه الله، والانتهاء عما حرمه تعالى، أمَّا عندما يتوجه الأمر بالتقوى إلى جمهور خاص ولاسيما من يتصف بالمعارضة لخلافة الإمام فمقام الخطاب يستلزم معنى ضمنيا للأمر بالتقوى هو الدخول في طاعة الخليفة الشرعي؛ والأمر بالتقوى الموجَّه إلى معاوية وجمهوره نتيجة مطلوبة تلتها سلسلة حجج مؤكدة بـ(إنَّ) تتضمن أعلام الطاعة وسبلها، ومن المؤكد أنَّ أهم سبل طاعة الله هي طاعة الخليفة الذي وصل إلى الحكم بطريق الشورى، ومبايعة جمهور المسلمين له من غير إكراه، ومقتضى النَّص أنَّ عصيان الإمام يلزم عنه عصيان الله تعالى، والاستلزام الحواري نشأ بخرق قاعدة(العلاقة) التي تنصُّ على جعل الخطاب ذا صلة بالموضوع[1]، وهذا الخرق يتولد عند المتلقي في صورة تساؤل عما يريده الإمام من أمره معاوية بتقوى الله؛ فهل التقوى المطلوبة تقتصر على أداء الواجبات التي تقع على المسلم من صلاة وصوم ونحو ذلك أم تستلزم التقوى فضلا عن ذلك وبالدرجة الأولى مبايعة الخليفة الشرعي، والدخول في ما دخل فيه المسلمون؟، وهذا التوجيه الحجاجي للمعنى المستلزم للتقوى يزداد قوة إذا ما علمنا أنَّ الجمهور المستهدف إقناعه لم يكتف بعدم مبايعة الإمام(ع)، بل أعلن الحرب على الخلافة.

ومن النصوص المتضمنة ألفاظا تستلزم معاني خاصة أو ضمنية قوله(ع): "**ولعمري لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنَّهم عن قليل يطلبونك**

---

[1] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٥.

لا يكلِّفونَك طلبهم في برٍّ ولا بحر، ولا جبل ولا سهل"[1]؛ وقد تضمن رد الإمام على ما أراده معاوية من تسليمه قتلة الخليفة عثمان متذرعا بكونه ابن عمه، إذ قال لبعض من كان يتولى نقل الرسائل بين الإمام ومعاوية: "ألستم تعلمون أنّ عثمان قتل مظلوما؟، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه وأمره إلي، فقولوا له: فليسلِّم إلي قتلة عثمان، وأنا أسلِّم له أمره"[2]، وبهذا المنطق القبلي توجّه معاوية إلى الإمام(ع) منطلقا من نظرة جاهلية للأمور؛ فكيف يكون وليَّ الدم وأبناء عثمان موجودون؟، فضلا عن أنّ معاوية لا يعترف بخلافة الإمام من حيث الأصل، وأنَّه إنما طلب ذلك لأنَّه يعلم رفض الإمام ذلك، وبذلك ستكون له ذريعة في عصيانه؛ والاستلزام الحواري يكمن في لفظة(غيِّك) التي في معناها الظاهر: الضلال والخيبة والفساد[3]، أمّا معناها المستلزم فهو الخروج عن طاعة الإمام(ع)، وإعلانه الحرب على الخلافة[4]، وقد نشأ الاستلزام بخرق قاعدة(الطريقة أو الصيغة) التي تتأسس على التباس المعنى الحرفي الظاهر بالمعنى المستلزم الخاص بمقام التلفظ، ومقتضى النص أنّ من الضلال إتباع معاوية، وحاول الإمام(ع) استثمار الطاقة الحجاجية لهذه الألفاظ لإقناع القوم بالعودة إلى جادة الحق.

ومن صور الاستلزام الحواري الذي كان ظاهرة في خطاب الإمام(ع) إلى معاوية وجمهوره، قوله(ع) في كتاب إليه:"**إنَّه بايعني القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا**

---

[1] نهج البلاغة: ٥٨٦.

[2] البداية والنهاية: ١٣٨/٨.

[3] ينظر: لسان العرب(غوي): ١٥/١٤٠.

[4] ينظر: تهذيب اللغة(شقَّ): ٢٤٨/٨.

للغائب أن يردَّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمَّوه إماما كان ذلك لله رضى"[1]، والاستلزام الحواري في الخطاب نشأ من خرق مبدأ التعاون في قاعدة (القيمة أو الكيف) التي تنصُّ على عدم قول ما يُعتقد خطؤه، أو ما ليس للمتكلم دليل عليه[2]، وخرق القاعدة تمَّ باستشهاد الإمام لصحة خلافته بمبايعة الجمهور له كما بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وذِكره أنَّ الشورى هي للمهاجرين والأنصار، وهنا يتساءل القارئ أو الجمهور المتلقي للخطاب عن إقرار الإمام بمبدأ(الشورى) في اختيار الحكم وهو ما يخالف رأي مذاهب الشيعة عامة، والتي يجمعها القول بأفضلية الإمام(ع) على من سبقه، والتعيين الظاهر أو الخفي من النبي(ص) للإمام(ع)[3]، والشيعة بمذاهبها المتعددة إنّما قالت بهذا الرأي نتيجة لما روته المصادر المختلفة من روايات، ولفهم العلماء بعض الآيات القرآنية فضلا عن أنَّ الإمام نفسه قد صرَّح في مواضع متعددة في نهج البلاغة أنّه غير راضٍ عن مسار الشورى في اتخاذ الخليفة، لكونه يرى أنَّ الخلافة حقٌ له[4]، وهذا التساؤل في النص السابق هو في حد ذاته يقود للاعتقاد بوجود خرق لمبدأ التعاون، وباستحضار مجموعة من المواقف التي عبَّر فيها الإمام(ع) عن عدم رضاه على تولية غيره ممن سبقه نصل إلى نتيجة مفادها أن الإمام أراد إلزام معاوية وأتباعه بما ألزموا به أنفسهم من القول بمبدأ الشورى، وبذلك ينتفي الخرق الظاهر لمبدأ التعاون، والملاحظ أنَّ النص السابق تضمن خرقا آخر لمبدأ التعاون فيما ذكره الإمام من

---

[1] نهج البلاغة: ٥٨٣.

[2] ينظر:الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٩.

[3] ينظر: الفَرق بين الفِرق: ٢٩، والملل والنِّحل: ١/١٦٩- ١٧٠.

[4] ينظر: نهج البلاغة:٦٣٧- ٦١٠- ٤١٤.

أنَّه متى اجتمع جمهور المهاجرين والأنصار على رجل وبايعوه كان في ذلك رضا الله؛ فخرق مبدأ(الطريقة أو الصيغة) كان بوجود نوع من اللبس يحصل في ذهن الجمهور وهو يتلقى الخطاب، فمن هو(الرجل) المقصود؟، أعني الإمام أنّ اجتماع القوم على بيعة أيِّ رجل تصبح خلافته مرضية عند الله وإن كان عاصيا له؟، والجواب(لا) لأنَّ هذا المعنى المتبادر إلى الذهن لا يقبله العقل فضلا عن أنَّ الإمام لم يقل جميع المسلمين بل قال(المهاجرين والأنصار) وبذلك خرجت الأمصار الأخرى ومنها الشام من دائرة تحديد شخصية الخليفة، وقد انطلق الإمام من هذا العرف السياسي في اختيار الخليفة؛ ليفند مزاعم معاوية في إبطال خلافة الإمام؛ وخرق مبدأ التعاون يستلزم معنى ضمنيا للفظ(رجل) يصح أن يحمل عليه النّص الحجاجي؛ فالإمام(ع) قد قصد بذلك اللفظ نفسه، وهو يرى أنَّه أحق بغيره بالخلافة ثمَّ اجتمعت الأمة عليه بعد أن جرى ما جرى من إبعاده عن الخلافة فكان في ذلك لله رضى؛ ومقتضى النّص أنَّ هناك جمهورا يعتقد ولو بحسب الظاهر بصحة نظرية الشورى في تحديد شخصية الخليفة وفي مقدمتهم معاوية الذي ادعى اعتقاده الشورى فاستهدفه الإمام(ع) بالحجاج السابق.

ومن الاستلزام الحواري في رسائل الإمام وكتبه ما ورد في عهد الإمام لمحمد بن أبي بكر حين قلده مصر، فمنه قوله(ع):"**فإنَّه لا سواءَ إمامُ الهدى وإمامُ الردى، ووليُّ النبيِّ وعدوُّ النبيِّ**"[1]؛ فالنّص(حجة) تخدم نتيجة مطلوبة هي ضرورة طاعة الإمام(ع) والخطاب موجَّه إلى ابن أبي بكر ومنه إلى الجمهور المتلقي للخطاب، والاستلزام الحواري يكمن في أنَّ كلام الإمام يخرق

---

[1] نهج البلاغة: ٦٠٧.

في ظاهرهِ مبدأ التعاون مما يوقع المتلقي في اللبس فمَن المقصود بإمام الهدى؟ ومَن المقصود بإمام الضَّلال؟، وبملاحظة مقام الخطاب نرى أنَّ المعنى المستلزم لـ(إمام الهدى) هو الإمام(ع)، ولـ(إمام الردى) هو معاوية؛ فمفهوم(التلفظ) مع دلالة(الملفوظ) عنصرين متلازمين[1]، وهذا يعني ملازمة عليٍّ لإمامة الهدى، وملازمة معاوية لإمامة الرَّدى ضمن مفهومي التداولية المدمجة، والالتباس الحجاجي، وقد تعزَّزت هذه الأطروحة الحجاجية بالمقابلة بين وليِّ النبي وعدوِّه؛ وقد ذكر ابن أبي الحديد أنَّ عداوة معاوية للنبي(ص) ليست من باب عداوة قريش للنبي في أيام الحرب بينهما، بل إنَّه الآن عدوٌّ للنبي(ص)؛ لأَّن النبي (ص) قال في حقِّ عليٍّ(ع): "وعدوُّك عدوي وعدوي عدو الله"[2].

ومن الاستلزام الحواري ما ورد في كتاب للإمام(ع) إلى عقيل بن أبي طالب:"**فدع عنك قريشا وتركاضهم في الضَّلال، وتجوالهم في الشِّقاق، وجماحهم في التِّيه؛ فإنَّهم أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله (ص) قبلي**"[3]؛ والاستلزام الحواري في الخطاب الحجاجي السابق تأسَّس كما في معظم الحالات على خرق مبدأ (الطريقة أو الصيغة) التي تعني تجنب اللبس والغموض، وذلك باستلزام ألفاظ (الضلال، والشقاق، والتيه) معاني ضمنية تناسب مقام الخطاب أي دلالة تلفظ خاصة بها؛ فالضَّلال معجميا يعني: الهلاك

---

[1] ينظر في ذلك: لسانيات الخطاب، صابر الحباشة: ٢٦.

[2] شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد:١٥/٢٧.

[3] نهج البلاغة: ٦٣٧.

والضياع[١]، والشِّقاق بمعنى:العداوة[٢]، أما التِّيه فهو التحير[٣]، وهذه الدلالات تمثل خرقا لمبدأ التعاون، وهو ما يستلزم البحث عن معنى يناسب المقام ويتأسس في الوقت نفسه على الدلالات السابقة، والمعنى المستلزم هو الخروج عن طاعة الإمام بما يمثله من خلافة شرعية تعد امتدادا لولاية النبي(ص)، ويعزز هذا المعنى ما ذكره الإمام من إجماعهم على حربه كما أجمعوا على حرب النبي(ص)، ومقتضى النص يتضح في رفضهم خلافة الإمام؛ لأنَّه سيعود بهم إلى سيرة النبي(ص) التي كانت تمثِّل العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس في العطاء.

ومن أمثلة الاستلزام الحواري في كتبه ورسائله(ع)، قوله لعمرو بن العاص في كتاب له:"**فإنَّك جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهرٍ غيُّه، مهتوكٍ سِترُه، يشين الكريمَ بمجلسه، ويسفِّه الحليمَ بخلْطته، فاتَّبعتَ أثره، وطلبت فَضْله**"[٤]؛ فالاستلزام الحواري للخطاب الحجاجي السابق يكمن في خرق مبدأ التعاون؛ والإمام(ع) عدل عن التصريح باسم من يتبعه ابنُ العاص مستعيرا لذلك أهم ما يتصف به من خصال، لزيادة الطاقة الحجاجية للخطاب قاصدا بذلك دعوته إلى الاقتناع بترك معاوية لاتصافه بالصفات المذكورة التي التبست فيها ما تحمله من دلالات بدلالة التلفظ الخاص بمقام الخطاب، ومقتضى النص أنَّ معاوية يمثل رمزا للبعد عن التعاليم الدينية، والإنسانية فلا يصح إتباعه، وأنَّه لا يجوز للفرد أن يتبع المنحرف عن جادة الصواب، وقد وصفه الإمام بأنَّه

---

[١] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(ضلل): ١٧٤٨/٤.

[٢] ينظر: المصدر نفسه(شقق): ١٥٠٣/٤.

[٣] ينظر: لسان العرب(تيه): ٤٨٢/١٣.

[٤] نهج البلاغة: ٦٤٠.

ممن يخلط الأشياء بمعنى يلبسها على السامعين[1]، وأجاد الإمام(ع) في نعت معاوية بذلك لأنَّه قد صورَّ الإمام(ع) في صورة المتآمر على الخليفة عثمان والمحرِّض على قتله بدعوى الحصول على الخلافة، وهو خلاف الواقع الذي نقله لنا المؤرخون وكان فيه الإمام أهم الناصحين للخليفة والثوار معا.

ومن أمثلة الاستلزام الحواري في الخطاب الخاص ما ورد في كتاب الإمام(ع) إلى سهل بن حنيف، عامله على المدينة واصفا قوما لحقوا بمعاوية: "**كفى لهم غيًّا، ولك منهم شافيا، فرارُهم من الهدى والحق، وإيضاعُهم إلى العمى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها**"[2]؛ والاستلزام الحواري يكمن في ما ذكره الإمام من التقابل بين(الهدى والحق)، (والعمى والجهل)؛ والمعنى الحرفي لهذين الزوجين من المتقابلات يتماهى مع معنى التلفظ الخاص بهما، وهو في هذا المقام يتمثل في الزوج الأول بمعسكر الإمام علي(ع)، ويقابله في الزوج الآخر معسكر معاوية، وورود هذين الزوجين جعل النص يتصف بصفة(التَّضام) وهي من عناصر الاتساق المعجمي ويُبنى على ورود زوج من الكلمات التي تتقابل في دلالتها[3].

والتوظيف الدلالي لهذه الألفاظ أعطى دفعا حجاجيا للخطاب؛ لما لها من أثر في بيان الفرق بين الطرفين، والتقابل الدلالي يعد عنصرا حجاجيا في إقناع الجمهور المتلقي للخطاب بترك الالتحاق بمعاوية؛ وقضية لحاق جمع من رؤساء القبائل وسادة القوم بمعاوية تعكس ما كانت تتصف به حكومة معاوية

---

[1] ينظر في ذلك: لسان العرب(خاط): ٧/٢٩١.

[2] نهج البلاغة:٧٠٣-٧٠٤.

[3] ينظر: إشكالات النص، دراسة لسانية نصية: ٣٦٦.

في بلاد الشام التي بدأت في تحدي خلافة الإمام(ع) بوسائل منها شراء ذمم سادة القبائل، وتفضيل طائفة على أخرى[1]، وهذه الطرق دفعت هؤلاء النفر إلى الالتحاق بـ(العمى والجهل)، وعند الإطلاع على الواقع التاريخي لكل من الفريقين يزول ما قد نجده من لبس.

ومن صور الاستلزام الحواري قول الإمام(ع) لأبي ذر الغفاري(رض) عندما نُفي إلى الربذة:"**إنَّ القومَ خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه**"[2]، وظاهرة الاستلزام أراها بنيت كما في معظم الحالات التي درسناها على خرق قاعدة(الطريقة أو الصيغة)؛ وذلك لما يثيره المعنى الحرفي للنص من لبس عند المتلقي؛ إذ ربما يكون المتلقي في لبس إرادة المقصود بلفظي(الدين، والدنيا) الواردين في النَّص لكن عند دراسة مقام الخطاب يزول اللبس؛ لأنَّ المعنى المستلزم لـ(الدِّين) هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولـ(الدُّنيا) يعني تبديد أموال الرعية، وعدم إنفاقها في الوجه الشرعي؛ فمن أهم صفات التدين الحقيقي في مدرسة علي(ع) وأبي ذر هو رفض الاستحواذ على أموال الرعية، وفي مقابلهم أهل الدنيا ممن يعمل على تسخير أموال الخلافة في خدمة مجموعة من المنتفعين والسُّراق، ومقتضى النَّص أنَّ أعداء أبي ذر قد مثَّلوا الدنيا، أمَّا أبو ذر فقد مثل الدِّين في مقابلهم، والنص السابق كان يقرب من مخاطباته في رسائله وكتبه (ع) من جهة أنَّ المخاطب بها شخص بعينه أو جمهور خاص وهو في الموضع أعلاه اختص بأبي ذر الغفاري (رض).

---

[1] ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ٢٦٦.

[2] نهج البلاغة: ٣٢٧- ٣٢٨.

وبهذا أرى أنّ دراسة النصوص على وفق الاستلزام الحواري أفادت في الوقوف على دلالات للخطاب الذي ندرسه، وعدم الاكتفاء بالدلالة الحرفية للملفوظ بل تتجاوزه إلى توظيف مقام الخطاب في بيان معنى النص؛ فدلالة الألفاظ تأتي بالتماهي بين المعنى الحرفي لها وقيمة التلفظ بها في مقام معين؛ ومفهوم(التلفظ) بحسب ما ذكره (ديكرو)، هو:"الواقعة التاريخية التي تنشأ عبر ظهور الملفوظ"[1]؛ وهو بهذا يعني الظرف الموضوعي للخطاب.

ودلالة الخطاب الحجاجي تُبنَى كما لاحظنا في الأمثلة التي درستها على الالتباس بين المعنيين؛ إذ يتم توظيف ما تحمله الدلالة الحرفية للفظ أو الجملة للانطلاق إلى المعنى المستلزم حواريا، وهذا التفاعل بين المعنيين هو من أهم عناصر الطاقة الحجاجية للنص، وأشرت إلى أنّ هنالك تساؤلا طُرِح في النظرية التداولية محوره الرئيس يتمثل في أنّه، أيعتمد المعنى التخاطبي وحده عند دراسة ظاهرة الاستلزام الحواري أم يُعتمَد المعنيان كلاهما؟[2]، وبمتابعة النصوص التي درستها في الخطاب الحجاجي العام أو الذي خصّصه الإمام لجماعة محددة أجد أنّه يتم اعتماد كلا المعنيين؛ لأنّ المعنى الحرفي الوضعي يمثل قاعدة الانطلاق نحو المعنى المستلزم حواريا؛ فالمعنى المستلزم هو المتولّد عن الحرفي نتيجة المقام الذي يرد فيه.

وتمّ اعتماد مفهوم (غرايس) في تفسير ظاهرة (الاستلزام الحواري) بخرق مبدأ(التعاون) بوساطة أحد القواعد المتفرعة عنه؛ وخرق مبدأ التعاون

---

[1] لسانيات الخطاب،صابر الحباشة:٢٦.

[2] ينظر: التداوليات علم استعمال اللغة: ٢٩٤.

يعني الانتقال من المعنى الحرفي إلى آخر تخاطبي؛ فالمفارقة تكمن في أنَّ الاستلزام الحواري ينشأ عند خرق قاعدة أو أكثر من قواعد مبدأ التعاون.

وفي معظم الأمثلة التي درستها تمَّ خرق قاعدة(الطريقة أو الصيغة) التي تفترض أن يكون الكلام خاليا من عنصر اللبس، والغموض[1]، والملاحظ أنَّ(الحِجَاج) وكما أشرت إليه يُبنى على عنصر الالتباس الذي يكمن في التباس المعنى الحرفي بالمعنى المستلزم؛ فهو ليس من باب تعدد دلالات اللفظ الواحد أي(المشترك اللفظي) وإنّما من باب تضافر معنيين أحدهما حرفي والأخر مقامي في إعطاء اللفظ بعدا حجاجيا ضمن ما تطرحه(التداولية المدمجة) من رفض للتعارض بين الدلالة الحرفية للفظ، ومعنى(إلقاء القول)[2]، والخرق لقاعدة الطريقة أو الصيغة كان حالة عامة رصدتها في معظم الأمثلة الخاصة بالاستلزام الحواري.

وقد وردت بعض الأمثلة تمَّ فيها خرق ظاهري لقاعدة(القيمة أو الكيف) لكن باستحضار الموقف التواصلي يزول الاعتقاد بحصول الخَرق، وما ورد من ذلك في حجاج الإمام(ع) كان من باب إلزام المتلقي وبخاصة الخصم بما يراه ويعتقده ليكون ذلك دافعا له للإقتناع بما يطرح عليه.

ووقفت على بعض النصوص الحجاجية التي اتصفت بالاتساق المعجمي في باب(التضام) وهو ما أعطى دفعا حجاجيا للنصوص؛ إذ تتصف بالتماسك، وللتماسك دور كبير في جعل المتلقي يقبل الأطروحة المعروضة عليه في

---

[1] ينظر: النَّص والخطاب والإجراء، ٤٩٧.

[2] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٣.

الخطاب الحجاجي؛ إذ كيف يقبل المتلقي فكرة ما مطروحة عليه مـن دون أن يكون الخطاب المتضمن تلك الفكرة متماسكا؟.

ودرست مفهوم الاستلزام الحواري في الخطاب الحجاجي الخاص فكان أكثر تنوعا في الخرق الظاهري لقواعد مبدأ التعاون من الحجاج العـام فـإلى جانب خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) نرى أمثلة تمَّ الخرق فيها علـى نحـو ظاهري لقاعدتي (العلاقة)، و(القيمة أو الكيف) وباستحضار مقام الخطاب وما يريده الإمام من عدم جعل الخطاب مباشرا حتى يكون بعيـدا عـن الابتـذال والتكرار .

الفصل الرابع

مقدمات الحجاج في نهج البلاغة

لدراسة "مقدمات" الحجاج أو "منطلقاته" أهمية كبيرة؛ لأنّها من أهم الوسائل التي تكشف مدى قوة الخطاب الحجاجي؛ فالمقدمات أو المنطلقات، هي:"القضايا التي يتكئ عليها الحجاج، أي المنطلقات التي ترتكز عليها المحاجة في النفي والإثبات"[١]، وبها نحكم على الخطاب الحجاجي وقدرته في الإقناع لما يرد فيه من منطلقات؛ لذا برأيي ينبغي على دارس الحجاج في أيّ خطاب أن يدرس منطلقاته الحجاجية؛ فهي توقفنا على طريقة الخطيب في توظيف تلك القضايا لخدمة الأطروحة التي يرغب في إقناع الجمهور بها، فضلا عن أنّ دراسة المنطلقات تمثّل أهم الركائز التي قامت عليها الخطابة الجديدة (الحجاج) في عصرنا الحاضر في جهود (برلمان وتيتيكاه)؛ فالخطاب قبل أن يكتمل كيانه له "مقدمات تؤخذ على أنّها مسلمات يقبل بها الجمهور، واختيار هذه المقدمات وطريقة صوغها وترتيبها له في حدّ ذاته قيمة حجاجية"[٢].

والملاحظ أنّ دراسة مقدمات الحجاج لم تتوقف على جهود (برلمان وتيتيكاه) بل تصدى لدراستها (ديكرو) معبرا عنها بــ(المبادئ الحجاجية) التي تتصف بخصائص معينة[٣]، أشرت إليها عند دراسة مفاهيم الحجاج في العصر الحديث فهي تمثّل مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل

---

[١] كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٩١.

[٢] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨ .

[٣] ينظر: التحاجج، طبيعته ومجالاته:٦٦ .

مجموعة بشرية معينة[1]، وأهمية هذه الصفة تأتي من قدرة الخطيب على توظيف هذه المشتركات في إقناع الجمهور، وانطلاقا من ذلك سأبحث هذه المبادئ؛ لأهميتها في بيان حجاجية النص.

وستُقسَم الدراسة على قسمين بحسب نوع الجمهور، **في المبحث الأول** سأبحث الخطاب الحجاجي العام الموجَّه إلى الجمهور سواء كان الجمهور متلقيا معاصرا للإمام(ع) أم متلقيا على نحو غير مباشر في الأجيال اللاحقة، وفيما يتعلق بالجمهور المعاصر للإمام نرى أنَّ معظمهم من أتباع الخلافة بغض النظر عن التفاوت بينهم في مدى طاعتهم الإمام(ع) فمنهم من كان يراه خليفة كغيره ممن سبقه أو ممن سيأتي بعده، ومنهم من كان يرى أنّه وصيٌّ النبي والإمام المفروضة طاعته؛ لذا كان الخطاب عاما لذلك الجمهور، **أمَّا المبحث الثاني** فسيتناول الخطاب الحجاجي الموجَّه إلى جمهور خاص وهذا الجمهور المتلقي وإن كان فردا في بعض الأحيان لكنَّه في الوقت نفسه يمثل جماعة لها أفكارها ومبادئها وربما مطالبها فقد يكون رمزا من الرموز الرافضة خلافته، وقد يكون المتلقي أحد عمَّال الإمام(ع) على الولايات، أو أحد أتباعه وعندها سيكون الحجاج موجَّها عبر ذلك المخاطب إلى الجمهور الذي يمثله ذلك المخاطب.

وبعد تقسيم الخطاب بحسب الجمهور المتلقي سأدرس منطلقات الحجاج أو مقدماته في ذلك الخطاب.

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ١/٦٥ .

المبحث الأول

مقدمات الحِجاج في الخطاب العام

لقد وردت تلك المقدمات في الحجاج العام، وكان مدار معظمها على النحو الذي يُوصف بأنّه(واقع)؛ لأنّ منطلقات الحجاج المختلفة بحسب رأي(برلمان) مدارها على ضربين الأول على(الواقع) وهو المتعلق بـــ(الوقائع، والحقائق، والافتراضات)، والآخر مداره على المؤثر والمفضّل وهو المتعلق بـــ(القيم، ومراتبها، ومواضع الأفضل فيها)[1]؛ وانطلاقا من تقسيم(برلمان) للمنطلقات نرى أنّ معظم منطلقات الحجاج في نهج البلاغة إن لم نقل كلّها كانت من قبيل (الواقع)، وبخاصة عنصري(الحقائق) و(الوقائع)، وإن وردت مقدمات أخرى فهي في سياق هذين المنطلقين، وسأبحث فيما يأتي هذهِ المنطلقات:

١. الحقائق:

وهي مجموعة من القضايا التي يؤمن بها أفراد المجتمع، ومدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية[2]، ومن الحجاج المنطلق من(الحقائق) قوله(ع) في صفة من يتصدى للحكم وهو ليس أهلا له أنّه أبغض الخلائق إلى الله تعالى؛ فهو"**رجل قمش جهلاً، موضِع في جهّال الأمة، غارٌّ في أغباش الفتنة، بكر فاستكثر من جمع، ما قلَّ منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من أجنٍ، وأكثر من غير طائل جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت بهِ إحدى المبهمات هيأ لها رثًا من رأيهِ ثم قطع بهِ فهو من لبس الشبهات**

---

[1] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣١٣ .

[2] ينظر في ذلك: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٩٢.

في مثل نسيج العنكبوت"[1]، فهذا الجزء من الخطاب انبنى على حقيقة ثابتة هي أنَّ مدعي العلم ولاسيما من يتصدى للحكم أو القضاء هو أبغض الخلق إلى الله تعالى ثم بدأ(ع) يبين حقيقة مدعي العلم بذكر مجموعة من صفاته، و(قَمَش) بمعنى: جمع[2]؛ فهو لم يجمع علما بقدر ما جمع جهلا، و(موضِعٌ) من(أوضع) وهو "السير بين القوم"[3]؛ فهو جاهل يسير في جُهَّال مثله، وجمعه لم يكن جمعا للعلم بقدر ما كان جمعا لأوهام ومغالطات، واستعار الإمام لفظ(الآجن) للدلالة على علمه فهو غير صافٍ؛ والآجنُ:"الماء المتغير الطعم واللون"[4]، و(غارٌّ) أي: غافلٌ[5]؛ فحقيقة هذا(المتعالم) أنَّه غافل في ليل الفتنة، ومن كان هذا حاله كيف سيهدي الآخرين للحكم الصحيح؟، ومقتضى النص أنَّ الأمة تحتاج إلى أن يتصدى الإمام لبيان حال أئمة الجهل؛ لأنَّها قد ابتليت أو ستبتلى بهم.

ومن الحجاج المنطلق من الحقائق ما ورد في خطبة له(ع) تسمى(الغرَّاء) انطلق فيها الإمام من حقائق دينية وفلسفية للوصول إلى النتيجة المطلوبة وهي اقتناع الجمهور بلزوم تقوى الله؛ إذ انطلق(ع) من حقيقة الذات الإلهية المقدسة ذاكرا ما تتصف بهِ، قال(ع):"**الحمد لله الذي علا بحولهِ، ودنا بطوْلهِ، مانح كل غنيمةِ وفضل، وكاشفِ كل عظيمة وأزْلِ**"[6]، فافتتح الإمام خطابه بذكر ما يتصف

---

[1] نهج البلاغة: ١٠٠.

[2] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(قمش): ١٠١٦/٣.

[3] لسان العرب (وضع): ٣٩٨/٨.

[4] تاج اللغة وصحاح العربية(أجن): ٥/ ٢٠٦٧.

[5] ينظر: لسان العرب(غرر): ١٦/٥.

[6] نهج البلاغة: ١٩١.

به الله، و(الطَّوْل):المنّ[1]، أمّا(الأزْل) فهو: "الضيق والشِّدة"[2]، وبعد ذلك ينتقل الإمام لبيان النتيجة المطلوبة وهي لزوم طاعة الله تعالى، وقد احتج لذلك بجملة من صفات الله ثم أعقبها بصفات الدنيا، فقال:"**أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقّت لكم الآجال وألبسكم الرِّياش، وأرفغ لكم المعاش...، فإنّ الدنيا رَنِق مشربُها، رَدِغ مشرعُها، يونق منظرُها، ويوبق مخبرُها**"[3]، فهذا النص جزء من خطاب ذكر فيه الإمام صفات الله وفي سياقها صفات الدنيا، وقوله:(أرفغ المعاش) من(الرَّفغ) وهو السعة[4]، والملاحظ أنّ الإمام وصف الله تعالى بجملة من الاسم الموصول مع صلته، والاسم الموصول إن وقع صفة يؤول بمشتق بحسب توجيه النحاة[5]؛ فقد انطلق(ع) من ضرب الله لنا الأمثال وتوقيتهِ لنا الآجال وغير ذلك من النعم ليصل إلى النتيجة وهي طاعة الله، ثم انطلق الإمام من حقيقة أخرى هي حال الدنيا فمشربها رَنِق أي كدرٌ[6]، وموردُ مشربها رَدِغٌ أي: وحلٌ شديد[7]، وصفات الله والدنيا كانت هي الحقائق التي انطلق منها، وقد أكّد(ع) حقيقة الدنيا بـــ(إنّ)، وتوكيد النّص يقتضي أنّ هناك من يراها بغير الصورة التي أثبتها الإمام.

وبعد الانطلاق من حقيقة(الله) تعالى المنعم ذي القوة والعظمة، وحقيقة الدنيا بظاهرها الجميل وباطنها القبيح ينطلق الإمام من حقيقة أخرى في خطابه

---

[1] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية (طول): ٤/١٧٥٥.

[2] لسان العرب(أزل): ١١/ ١٣.

[3] نهج البلاغة: ١٩٢- ١٩٣.

[4] ينظر: تهذيب اللغة(رفغ): ٨/ ١٠٩.

[5] ينظر في ذلك: شرح الرضي على الكافية: ٢/٢٩٠، ومعاني النحو:٣/١٥٩.

[6] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(رنق): ٤/ ١٤٨٥.

[7] ينظر: المصدر نفسه(ردغ): ٤/ ١٣١٨.

الحجاجي هي حقيقة الموت والنشور، قال(ع):"**حتى إذا تصرّمت الأمور، وتقضّت الدُّهور، وأزف النشورُ، أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة السِّباع، ومطارح المهالك، سراعا إلى أمرهِ، مهطعين إلى معادهِ، رعيلاً صُمُوتا، قياما صفوفا**"[١]؛ فهذا النص جزء من خطاب عام يتحدث فيه الإمام(ع) عن حال بني آدم وهم يُبعثون من مثواهم الأخير مسرعين للحساب، وهذه الحقيقة الدينية والفلسفية المركبة من فعل الشرط(الموت)، والجواب(الإخراج من المثوى الأخير) تستلزم استعداد الإنسان لملاقاة ربّه؛ فحقيقتنا:"**عبادٌ مخلوقون اقتدارا، ومربوبون اقتسارا، ومقبوضون احتضارا، ومضمّنون أجداثا، وكائنون رُفاتا، ومبعوثون أفرادا، ومدينون جزاءً، ومميّزون حسابا**"[٢]، والنّص واضح في دلالتهِ وهو ترسيخ وتفصيل للأطروحة القرآنية في قدرة الله تعالى على الخلق والإماتة والإحياء للحساب، وكل ذلك لإقناع الجمهور من خاص وكونيٍّ بضرورة التقوى، وبعد ذلك يقول الإمام بشأن تلك الحقائق التي ساقها لإقناع الجمهور:"**فيا لها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوبا زاكية، وأسماعا واعية، وآراء عازمةً، وألبابا حازمةً، فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووَجِل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن**"[٣]؛ فالإمام ينصُّ على أنَّ ما ذكره بحكم الأمثال بوصفها مواعظ شافية لو وجد من يعي النصح، ولابد من الإشارة إلى أنَّ استعمال(لو) كان بدلالة ما ذكره سيبويه بأنّها: "حرف لما كان سيقع لوقوع

---

[١] نهج البلاغة: ١٩٤.

[٢] المصدر نفسه: ١٩٥.

[٣] نهج البلاغة: ١٩٦.

غيره"[1]؛ فمسألة تحقق الشفاء من الأمراض النفسية، تتوقف على وجود العقل المتعظ والرأي الحازم في التوبة من الخطأ، وليس المقصود بدلالة(لو) ما يذكر في كتب النحو بأنَّها حرف امتناع لامتناع[2]؛ لأن الدنيا لا تخلو من وجود أسماع واعية وقلوب مؤمنة وإن كانت قليلة وهو ما يؤدي إلى قيام هذه المواعظ بدورها.

ثم يتبع تلك الحقائق بما أنعمه الله علينا؛ فقال:"**جعل لكم أسماعا لتعيَ ما عناها، وأبصاراً لتجلوَ عن عشاها، وأشلاءً جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها**"[3]، إذ انطلق الإمام من حقيقة جعل الأسماع والأبصار، والجسد بكل ما فيه من أعضاء وحواس في خدمة الإنسان، وهذه المنطلقات تخدم في مجملها نتيجة مطلوبة هي لزوم التقوى ومحاربة هوى النفس والشيطان.

ومن الحجاج المنطلق من حقائق دينية والموجَّه إلى جمهور عام قول الإمام (ع):"**إنَّ أفضل ما توسَّل بهِ المتوسِّلون إلى الله سبحانه الإيمانُ بهِ وبرسوله، والجهادُ في سبيله؛ فإنَّهُ ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص؛ فإنَّها الفطرة، وإقام الصلاة؛ فإنَّها الملَّة، وإيتاء الزكاة؛ فإنَّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنَّهُ جُنَّةٌ من العقاب**"[4]، فالنَّص جزء من خطاب أوسع يتضمن مجموعة من الفرائض الشرعية مما يجب الالتزام بها مع الحجج التي تبين أهمية القيام بها؛ وقد تضمن النتيجة المطلوبة مع عنصر الحجة لكل ما يريده الإمام(ع)، وابتدأ الإمام حجاجه بـــ(إنَّ) التي أكَّدت النتائج المطلوبة، والملاحظ أنَّ الإمام(ع)

---

[1] الكتاب: ٣٠٧/٢.

[2] ينظر: حروف المعاني:٣، ورصف المباني في شرح حروف المعاني:٢٨٩

[3] نهج البلاغة: ١٩٧.

[4] المصدر نفسه: ٢٨٦.

استعمل لفظ(المتوسلون) لحث الجمهور للوصول إلى هذه المرتبة العالية؛ فلم يقل الإمام(المسلمون) أو(المؤمنون) بل وظّف دلالة(التوسل) التي تعني التقرُّب إلى الله بالعمل[1]؛ لأنَّ التوسّل إلى الله صفة لا يتمتع بها إلا القلة من المؤمنين؛ وقد ارتبطت النتائج المطلوبة بالحجج المؤكدة بــ(إنَّ) في سياق رابط السببية(الفاء)؛ فالتوحيد مفهوم مطلوب اعتقاده من الجمهور لأنَّه يمثل الفطرة السليمة، وإقام الصلاة هي أول صور انتماء الفرد للجماعة المسلمة وهكذا في جميع ما طرحه الإمام في النص السابق من حقائق تقدمت فيها النتائج وارتبطت بالحجج بعدها برابط السببية مع توكيدها؛ لتثبيت تلك الأطروحات في نفس المتلقي وقد تلتها جملة من الحقائق على غرار ما سبق من تقدم للمفهوم على الحجة وارتباطه بها برابط السببية كقوله(ع): "**وصلة الرَّحِمِ؛ فإنَّها مثراةٌ في المال، ومنسأةٌ في الأجل، وصدقة السِّر؛ فإنَّها تكفِّر الخطيئةَ،...أفيضوا في ذكر الله؛ فإنَّه أحسنُ الذِّكر، وارغبوا فيما وعد المتقين به؛ فإنَّ وعده أصدقُ الوعد،...وتعلموا القرآنَ؛ فإنَّه أحسنُ الحديثِ، وتفقَّهوا فيه؛ فإنَّه ربيع القلوبِ**"[2]؛ فالإمام(ع) قدَّم في هذه الخطبة جملة أطروحات مطلوبة مع الحجج التي تدعمها.

٢. الوقائع:

يرى(برلمان) أنَّ الوقائع مجموعة من الأحداث، وأهم ما تتصف بهِ "أنَّها لا تكون عرضة للدحض أو الشك"[3]، و"أنَّ التسليم بالواقعة من قبل الفرد ليس إلا تجاوبا منه مع ما يفرض نفسه على جميع الخلق؛ إذ الواقع يقتضي إجماعاً

---

[1] ينظر: لسان العرب(وسل): ٧٢٤/١١.

[2] نهج البلاغة: ٢٨٦- ٢٨٧.

[3] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨ .

كونيا"[١]، ويبدو لي أنَّ رأيه هذا هو ما جعل(الوقائع) تقع في مقدمة المنطلقات في بحثه.

وقد تناولت الحقائق أولا في الخطاب الحجاجي الموجَّه إلى جمهور عام على الرغم من أنَّ الوقائع أقوى حجاجا منها؛ لأنَّ الحقائق كانت أكثر ورودا من الوقائع في ذلك النمط من الخطاب فضلا عن تعلق ذلك الخطاب بحقائق دينية من قبيل الدعوة إلى التقوى، وذكر نعم الله تعالى، وإرسال الأنبياء، والتذكير بالمعاد؛ فالحجاج انطلق من ثوابت(متوارثة) منذ بعثة النبي(ص) وهي ترسيخ لما طرحته الأديان السماوية السابقة على نحو مجمل مع حفظ الخصوصية التي يتميز بها الطرح الإسلامي لهذه الحقائق.

ومن(الوقائع) في حجاج الإمام(ع) ما ورد في كلامه عند اضطراب أمر أصحابه في التحكيم:"**أيُّها النَّاس إنَّه لم يزل أمري معكم على ما أحبُّ حتى نهكتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوِّكم أنهكُ. لقد كنتُ أمسِ أميرا فأصبحت اليوم مأمورا**"[٢]؛ فالإمام(ع) انطلق في إقناع جمهوره بالاستمرار بقتال الأعداء بتوظيف جملة من الوقائع؛ منها إنَّ الحرب وإن أنهكت معسكر الإمام إلا أنَّها لجيش معاوية كانت أنهك؛ وقد ذكر ابن أبي الحديد: "أنَّ القتل في أهل الشام كان أشد استحرارا والوهن فيهم أظهر ولولا فساد أهل العراق برفع المصاحف لاستؤصلَ الشام"[٣]، ثم انطلق الإمام من واقعة أخرى في حجاج القوم وهو أنَّه بعد كان أميرا متبوعا أصبح مأمورا تابعا؛ لأنَّ مكيدة عمرو بن العاص في رفع

---

[١] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨ .

[٢] نهج البلاغة: ٥٢٥.

[٣] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١١/ ٢٩.

المصاحف بوجه جيش الإمام قد نجحت في تفريق جيش الإمام وأصبح الإمام بسببها خاضعا لإرادة ثلة من جيشه في لزوم قبول التحكيم، وتلك الخدعة لم تنجح إلا بسبب تشظي جيش الإمام إلى أقسام، فمنهم من دخلته الشبهة وخُدِع فظنّ أنّ أهل الشام قد فعلوا ذلك لإيمانهم بالرجوع إلى القرآن، ومنهم من آثر السِّلم فلما رأى هذهِ الشبهة تعلق بها وأخلد إلى الراحة، ومنهم من كان مبغضا الإمام(ع) في باطنهِ ويطيعه في ظاهره فلما وجدوا طريقة إلى خذلانه أسرعوا إليها[1].

والملاحظ أنّه(ع) قد أكّد الحجج التي ساقها التي تخدم النتيجة المضمرة وهي خطأ ترك قتال معاوية وهو ما يقتضي دلاليا لزوم العودة عن ترك قتاله؛ فافتتح خطابه بتوكيده بـــ(إنّ) في سياق ندائه الجمهور المتلقي، ثم استعمل(قد) مع القسم ليؤكد إنهاك الحرب معسكر معاوية على نحو أكبر مما أصاب جيش الإمام، والملاحظ أنّ المالقي(ت٧٠٢هــ) ذكر عدم جواز الفصل بين(قد) والفعل بفاصل إلا في الضرورة أمّا في الكلام فلا يجوز[2]، أمّا المرادي(ت٧٤٩هــ) فإنّه وإن ذكر أنّه لا يفصل بينهما بغير القسم إلا أنّه لم يستشهد لذلك سوى ببيتين[3]، مما يُشعر القارئ بأنّ ذلك مخصوص بالشعر، ولو اطلع هؤلاء النُّحاة على نهج البلاغة لاستشهدوا بنصوص منه على جواز الفصل بينهما بالقسم، والملاحظ أنّ الرضي الإستراباذي قد استشهد بقول الإمام(ع) في شأن أصحابه الذين استشهدوا في صفين:" **قد والله لقوا الله**"[4]، ذاكرا جواز الفصل بين(قد) والفعل بالقسم[1]، ويبدو

---

[1] ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١١/ ٣٠.

[2] ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني:٣٩٣.

[3] ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني:٢٦٠.

[4] نهج البلاغة: ٤٣٩.

لي أنَّ الجمع بين حرف التحقيق والقسم كان مبالغة من الإمام في توكيد ما طرحه من أفكار في النّص.

ومن الحجاج المنطلق من الوقائع مما حدث له(ع) قوله في كلام له مبينا ما وقع عليه من ظلم من قريش:"**إنّهم قد قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى بهِ من غيري، وقالوا: ألا إنّ في الحقِّ أن تأخذهُ، وفي الحقِّ أن تُمنَعه؛ فاصبر مغموما، أو مت متأسفا**"[2]، وقد انطلق الإمام في حجاجه السابق من جملة وقائع في مقدمتها أنَّ قريش بزعمائها وشيوخها ممن ناصب الإسلام العداء قد أبعدوا الإمام عن الخلافة التي هي منصب إلهي، وقد أكّد بالأداة(إنَّ) قطعهم رحمَه فهو ابن أخيهم؛ ويذكر الإمام(مغالطة) تقرب من السفسطة قدمتها قريش لتسويغ إبعاده عن الخلافة؛ إذ زعمت أنَّ من الحق إبعاد الإمام عن الخلافة، وفي الوقت نفسه أنَّ من الحق توليه إياها!، وساق الإمام كلامهم على نحو مؤكد بـــ(ألا) التي يفتتح بها الكلام للتأكيد والتنبيه[3]، وفي سياقها(إنَّ) لبيان مدى إصرار قريش على أطروحة إبعاد الإمام عن الخلافة، وهنا لنا أن نتساءل ونحن نبحث في حجاجية الخطاب العلوي وما يذكره الإمام من حجج أعدائه عن طبيعة هذا(الحق) الذي توظّفه قريش كيفما تشاء، وأرى أنَّ من مقتضيات النص أنَّ مفهوم(الحق) عند قادة قريش ينقسم على قسمين: حقٌّ إلهيٌّ يمثله تصدي الإمام للخلافة، وحق قَبليٌّ يمثله إبعاد الإمام عنها لما تحمله القبائل وفي مقدمتها قريش من أحقاد على النبي(ص)؛ لأنَّه حطَّم كبرياءها وسفَّه آراءها

---

[1] ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤/٤٤٥.

[2] نهج البلاغة: ٥٤١.

[3] ينظر: حروف المعاني:١١.

فكان من الثابت انتقال هذا البغض للنبي إلى ابن عمه ووصيِّه وهو ما استلزم إبعاده عن الخلافة.

ومقتضى الخطاب السابق أنَّ الإمام(ع) كان يرى أنَّه أحقُّ بالخلافة ممن سبقه وليس ذلك من باب الحرص على ملك أو سلطة بل للاستمرار بالسياسة التي اتبعها النبي(ص) حفاظا على الرسالة الإسلامية من انحرافات المنحرفين، ثم انطلق الإمام من وقائع أخرى في الخطاب نفسه؛ إذ قال: "**فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ، ولا ذابٌ ولا مُساعدٌ إلا أهلَ بيتي فضننت بهم عن المنية، فأغضيت على القذى، وجرعت ريقي على الشَّجا، وصبرت من كظم الغيظ على أمرَّ من العلقم، وآلم للقلب من حزِّ الشِّفار**"[1]؛ فالإمام(ع) يعلِّل عدم نهوضه بالمطالبة بالخلافة عندما أُبعِد عنها بعدم وجود معين أو مساعد له في ذلك سوى أهل بيتهِ فاضطر إلى الصبر على ما هو أشد ألما لقلب الإمام من القطع بالسيف، والإمام في النص السابق يجيب عن تساؤل أو إشكال يطرحه الجمهور يتعلق بعدم نهوضه للمطالبة بالخلافة، وهذا المقتضى الدلالي للنص نتوصل إليه بتطبيق نظرية (المساءلة الحجاجية) التي ترى أنَّ الحجاج ليس إلا جوابا أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدَّر ضمنيا من ذلك الجواب[2]، وهذا يرتبط بما ذكرته عند البحث في مفهوم(المساءلة) في الخطاب الحجاجي من أنَّ النصوص(الإخبارية) هي إجابات عن أسئلة مضمرة بحسب ما أشارت إليه بعض الدراسات[3].

---

[1] نهج البلاغة: ٥٤١.

[2] ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٨.

[3] ينظر في ذلك: المقتضب: ٣٥٧/٤، وأصول تحليل الخطاب: ٨٠٦/٢.

ومن أهم أمثلة الخطاب الحجاجي المنطلق من الوقائع الخطبة المعروفة بـــ(الشقشقية) وفيها جرى توظيف جمع من الوقائع لإقناع الجمهور بضرورة إتباعهِ(ع)؛ لأنّه الخليفة الشرعي بل وأولى بالإتباع ممن سبقه، ومنها قوله(ع):"**أما والله لقد تقمّصها فلانٌ وإنّهُ ليعلم أنّ محليَ منها محلُ القطب من الرّحا ينحدر عني السَّيلُ ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلتُ دونها ثوبا، وطويت عنها كشحا**"[1]؛ ففي النص السابق ينطلق الإمام من(واقعة) تقمص(فلان) الخلافة، واستعمال لفظ(تقمُّص) يستلزم معنى حواريا هو أنّ من تصدى لها لم يكن أهلا لخلافة النبي(ص)، فشبَّه(ع) تصديه للخلافة بالتقمص لها، وكأنّ الخلافة رداء اختصّ الله به شخصا محددا، وعندما تسنمها غيره كان تقمصا منه لهذا الرداء، والهاء في(تقمصها) تعود إلى الخلافة ولم يذكرها "للعلم بها"[2].

وقول الإمام إنّ محله منها محل القطب من الرّحا يحتمل معنيين يدخل كل منهما في حجاجية النص؛ فكما أنّ الرّحا لا تدور إلا على القطب فكذلك الخلافة لا تقوم إلا بهِ(ع) وهذا هو المعنى الأول أمّا المعنى الآخر هو أنّه من الخلافة في الصميم وفي وسطها كما أنّ القطب وسط الرّحا[3]، وما ذكره الإمام في النص السابق يمثل بمجمله وصفا لواقعه(ع) في علو منزلتهِ، ثم أشار الإمام إلى أنّه قد صبر على إبعادهِ عن الخلافة؛ إذ قال:"**فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيلهِ،**

---

[1] نهج البلاغة: ٧٦- ٧٧.

[2] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ١٥٢.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ١/ ١٥٣.

فأدلى بها إلى فلان بعده"[١]؛ فانطلق الإمام من وقائع أخرى منها الصبر على إبعادهِ عن الخلافة وهو أحجى، أي: حري به وأولى[٢]، وقد استعمل(ع) (هاتا) وهي من أسماء الإشارة[٣]، حتى إذا توفي الخليفة أبو بكر عهد بها إلى عمر بن الخطاب فكان ذلك الإبعاد الثاني للإمام عن الخلافة، ثمَّ انطلق(ع) من سلسلة وقائع أخرى في حجاجه السابق، فيقول: "**فيا عجبا! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاتهِ لشدَّ ما تشطّرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء يَغْلُظ كلمُها، ويخشُن مسُّها، ويكثر العثارُ فيها والاعتذار منها**"[٤]؛ فهنا يتعجب الإمام من تناقض في المواقف فبينما كان الخليفة الأول يقول:"وليّتُ عليكم ولست بخيركم"[٥]، كما يُروى عنه قوله: "أقيلوني بيعتكم"[٦]، نراه بعد ذلك يعهد بها إلى الخليفة الثاني قبل وفاته وهو ما يستدعي تساؤل المتلقي عن التناقض في الموقفين، وقوله(ع):"**لشدَّ ما تشطّرا ضرعيها**" يعني أخذ كل واحد منهما نصفا من ضرعي الخلافة، فكان أن صارت الخلافة بتعبير الإمام(ع) بيد من يتصف بالغلظة الشديدة والخشونة وفي ذلك أمثلة متعددة[٧]، وكان من صفاته في خلافته أنه كان كثيرا ما يحكم بالأمر ثم ينقضه ويعتذر مما أفتى بهِ أولا ورويت في ذلك حوادث متعددة[٨]،

---

[١] نهج البلاغة: ٧٧.

[٢] ينظر: لسان العرب (حجا): ١٤/ ١٦٧.

[٣] ينظر: التذييل والتكميل: ٣/ ١٨١، وشرح الرّضي على الكافية: ٢/ ٤٧٥.

[٤] نهج البلاغة: ٧٨- ٧٩.

[٥] تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٠.

[٦] الإمامة السياسية: ١/ ٣١.

[٧] ينظر في ذلك: سيرة النبي(ص): ١/ ٤٣٢-٤٣٣، وصحيح ابن حبّان: ١١/ ٢٢٤.

[٨] ينظر في ذلك: السنن الكبرى: ٧/ ٣٨٠، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٧٨.

حتى أنَّ الخليفة نفسه قد قال:"كل الناس أفقه من عمر"[1]؛ فالإمام انطلق في حجاجهِ من أحداث وقعت قد وسمت خلافة من سبقه بصفات خاصة، ويستمر(ع) بسرد وقائع أخرى في حجاجهِ قائلا: "**فصبرتُ على طول المدَّة وشدَّة المحنة حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنِّي أحدهم، فيالله ولِلشورى متى اعترض الرَّيبُ فيَّ مع الأول منهم حتى صرت أقرَنُ إلى هذهِ النظائر؟، لكنّني أسففتُ إذا أسفُّوا، وطرتُ إذا طاروا، فصغا رجلٌ منهم لضغنهِ، ومال الآخر لصهره، مع هنٍ وهن**"[2]، فانطلق الحجاج في النص من واقعة(الشورى) التي حدَّد بموجبها الخليفة عمر من يخلفه في الحكم؛ إذ وكل الأمر إلى ستة من الصحابة ليختاروا واحدا منهم، وهم طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وعليٌّ[3]، وفيما يتعلق بمسألة(الشورى) في الخطاب السابق لابد لي من التوقف عند قضية مهمة هي دخول(لام الاستغاثة) على لفظ الجلالة ولفظ(الشورى)؛ فالملاحظ أنَّ الرواية الواردة في نهج البلاغة بالنسخة المعتمدة في دراستي، وفي نهج البلاغة بشرح الشيخ(محمد عبده) كانت اللام الداخلة فيها على لفظ الجلالة مكسورة وهذا يعني أنَّها لام داخلة على المستغاث له؛ لأنَّ لام الاستغاثة إن دخلت على المستغاث بهِ فُتِحت وإن دخلت على المستغاث له كُسِرت[4]، وقد وردت في شرح ابن أبي الحديد بفتح اللام الداخلة على لفظ الجلالة مما يعني أنَّ لفظ الجلالة في النَّص مستغاث به بحسب ما ذكره الشارح، وهذا يعني اختلاف التوجيه الدلالي للخطاب، فعندما يكون

---

[1] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٢/ ١٥.

[2] نهج البلاغة: ٧٩.

[3] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٨.

[4] ينظر: الأصول في النحو: ١/٣٥١- ٣٥٢، وشرح التسهيل: ٣/ ٤٠٩- ٤١٠.

لفظ الجلالة مستغاثا من أجلهِ فهذا يعني أنّ المستغاث به محذوف، ويتم تقديره عند النحاة بـــ(القوم)[1]، والإمام يستغيث بالقوم؛ لإنقاذ دين الله تعالى بسبب تصدي من ليس أهلا للخلافة لها، وإبعاد الخليفة المنصوص عليه عنها، أمَّا رواية ابن أبي الحديد بفتح لام الاستغاثة فتعني أنّ لفظ الجلالة مستغاث بهِ؛ فالإمام يستغيث بالله تعالى من جراء إبعاده عن حقّه بالخلافة، وقد ذكر المؤرخون أنّ الإمام كان متيقنا من صرف الخلافة عنه بحجة الشورى[2]، أمَّا لفظ(الشورى) فقد ورد مجرورا بلام مكسورة ومسبوقا بأداة عطف، وذكر النحاة أنَّه عندما يُعطف على المستغاث بهِ بغير تكرار(يا) تكون اللام الثانية مكسورة؛ لأنّ الدلالة واضحة في كونه معطوفا على المستغاث بهِ فليس الاسم مستغاث له[3]، ويلحظ الباحث أن ابن أبي الحديد عدّ لفظ(الشورى) مدعوا إليه، أي مستغاثا له وقد استدل على ذلك بكسر اللام الداخلة على لفظ(الشورى)؛ إذ قال: "اللام في(بالله) مفتوحة، واللام في(للشورى) مكسورة؛ لأنّ الأولى للمدعو، والثانية للمدعو إليه"[4]، وهذا الرأي وهمٌ منه؛ لأنّ النحاة وكما أسلفت قد ذكروا أنّهُ عند العطف من دون إعادة(يا) تكسر لام الاستغاثة؛ لأنَّه قد أُمِن اللبس بالعطف على المستغاث بهِ[5]، وبعد بيان الفرق الدلالي بين الروايتين والوهم الذي وقع فيهِ ابن أبي الحديد في جعله لفظ(الشورى) مستغاثا له مع كونه معطوفا على المستغاث به.

---

[1] ينظر: شرح التسهيل: ٣/٤١١، وشرح الرضي على الكافية: ١/٣٥٢.

[2] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٩- ٢٣٠.

[3] ينظر: المقتضب: ٤/ ٢٥٥، والأصول في النحو: ١/ ٣٥٣.

[4] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ١٨٤.

[5] ينظر: شرح الرضي على الكافية: ١/ ٣٥٢.

وأرى وبملاحظة مقام التلفظ الخاص بالخطاب السابق أنّ اللام الداخلة على لفظ الجلالة مفتوحة كما أثبت ذلك ابن أبي الحديد لكن ليس على أنَّه مستغاث بهِ بل على أنه متعجب منه؛ فقد ذكر النحاة أنَّ هذهِ اللام المفتوحة تسمى لام التخصيص ويمثل التعجب إحدى دلالاتها فضلا عن الاستغاثة[1]، والذي يرجِّح ذلك عندي هو أنَّ الإمام(ع) طرح تساؤلا حجاجيا يتعلق بموقفه من مجمل قضية(الشورى)؛ إذ كيف يُقرَن إلى هذه(النظائر) وهو متقدم على كبيرهم والأول منهم[2]، والإمام(ع) بهذا التوجيه التداولي للخطاب لا يستغيث بل يعجب من قضاء الله تعالى فيما آلت إليه الأمور في إبعاده عن الخلافة وهنا أشير إلى أنَّ التعجب لا يعني الاعتراض فحاشا الإمام(ع) من الاعتراض على إرادة الله لكن العجب من إبعاد الإمام(ع) عن الخلافة التي تمثل حقا له وقضاء الله قد جرى؛ لأنّ من تصدى للخلافة حاول إبعاد الإمام عنها بمختلف الوسائل، وقد عطف على ذلك عجبه من مآل الأمر إلى(الشورى) لتحكيم نفر في شخصية الخليفة مع وجود الأفضل فيهم؛ فالإمام متقدِّم على الأول في استحقاقه الخلافة فكيف يتساوى بالمتأخر منهم؟، لكنه لم يترك المطالبة بحقهِ "إن كان المنازعُ فيه جليل القدر أو صغير المنزلة"[3]، و(صغا): مال[4]، وقوله(ع): **(مع هنٍ وَهنٍ)** أي أمور يكني عنها ولا يصرح بذكرها، وهي المكاره والشدائد[5]، وقد قصد الإمام في قوله:**(فصغا رجل منهم**

---

(1) ينظر: الأصول في النحو: ١/ ٣٥٣، وشرح التسهيل: ٣/ ٤٠٩- ٤١٠.

(2) ينظر : شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ١٨٤.

(3) المصدر نفسه: ١/ ١٨٤.

(4) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(صغا): ٥/ ٢٤٠٠.

(5) ينظر: لسان العرب(هنا): ١٥/ ٣٦٦.

لضغنه) طلحة؛ فقد كان حاقدا على الإمام ويطمع بالخلافة، وجزء كبير من حقدهِ كان بسبب ما حصل بين بني هاشم وبني تيم في خلافة أبي بكر فطلحة تيمي وهو ابن عم للخليفة أبي بكر[1]، وقد رشّح عثمان للخلافة؛ لأنَّه يعلم أنَّهُ بوجود هذين الشخصين لا أمل له بالخلافة، أمّا من مال لصهرهِ فهو عبد الرحمن بن عوف؛ لزواجه من أخت عثمان لأمهِ[2]، وقد رَجُح موقف ابن عوف بتأييد سعد له؛ لأنّه ابن عمه فكلاهما من بني زهرة[3]؛ وقد ذكر المؤرخون أنَّ ابن عوف دعا عليا(ع) للبيعة بشرط العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين وهو ما رفضه الإمام معللا ذلك بالعمل على وفق كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد رأيه(ع)، والأمر نفسه عرضه على ابن عفان فقبله من دون تردد[4]، وهو ما جعل ابن عوف يبايع عثمان بالخلافة.

وهكذا نرى الخطبة الشقشقية تتبني في حجاجها على الوقائع، وما ذكرتهُ كان جزءا منها؛ فقد استمر الإمام(ع) بالاستشهاد بالوقائع التي تلت ذلك، و(الوقائع) تمثل قمة المنطلقات الحجاجية؛ لأنّها لا تكون عرضة للدحض أو الشك[5]، وقد تأسس الحجاج على الوقائع للوصول إلى ما يستهدفه الإمام(ع) من حجاجه وهو

---

[1] ينظر: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١/ ١٨٤، ونهج البلاغة،شرح الشيخ محمد عبده: ٣٤/١.

[2] ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ١٨٩.

[3] ينظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٧.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ٤/ ٢٣٨.

[5] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٨ .

زيادة اقتناع الجمهور بضرورة طاعة الإمام كطاعة من سبقه من الخلفاء؛ لكونهِ أحقّ الصحابة بالخلافة.

وبعد أن وقفنا على أمثلة انطلق فيها الحجاج من منطلق واحد تجد نصوصا أخرى امتزجت فيها المنطلقات منها ما ورد في خطبة الإمام عندما بلغهُ إغارة أتباع معاوية على الحجيج بعد التحكيم في قوله:"**أيُّها النّاس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمَّ الصِّلاب، وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء**"[1]، فالنّص موجَّه إلى الجمهور من أتباع الإمام وقد انطلق الحجاج من واقعهم؛ فهم متخاذلون يَضعُف من يكونون عسكرا له لهوانهم، وبعد ذلك ينتقل الإمام في الخطاب نفسه إلى مقطع آخر يمتزج فيه الواقع بالحقيقة؛ قال(ع):"**ما عزّت دعوةُ من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل، دفاع ذي الدّين المَطُول، لا يمنع الضَّيمَ الذّليلُ، ولا يُدرَك الحقُّ إلا بالجدّ**"[2]، ففي هذا النص امتزجت الوقائع التي تتحدث عن حال من يستنصر بهؤلاء المتخاذلين؛ فالحجاج بدأ بأداة النفي الداخلة على الفعل الماضي ولهذا دلالة على رسوخ حالة التخاذل فيهم؛ فلم يستعمل صيغة المضارع؛ لأنّ دخول النفي عليها يخلِّص المضارع للحال[3]، و(قاساكم): كابدكم[4]، ولا يتعلّ هؤلاء المتخاذلون إلا بأضاليل، ويهربون من مواجهة أعداء الدِّين كتهرب ذي الدّين المماطل، وهذا الجزء يمثل واقعهم، أمّا الحقيقة الممتزجة معه فتمثّلت في ما ذكره الإمام من أنّ الذّليل لا يمنع الظلم كما أنّ الحقّ لا يُدرك إلاّ

---

[1] نهج البلاغة: ١٢٦.

[2] المصدر نفسه: ١٢٦.

[3] ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني:٣١٣.

[4] ينظر: لسان العرب(قسا): ١٥/ ١٨١.

بالعمل الجاد في مواجهة أعدائهِ، ومقتضى النص أنَّ الجمهور وصل إلى مرحلة خطيرة من التخاذل والتمسك بأعذار باطلة في مواجهة معاوية ففتنة رفع المصاحف وما أشاعهُ المنافقون في جيش الإمام من حرمة قتال معاوية وأتباعه لقبولهم التحكيم كانت كالقشة التي قصمت ظهر البعير، وتكملة للخطاب الحجاجي السابق يوجِّه الإمام أتباعه بـــ(المساءلة الحجاجية) التي هي من ضمن عناصر التوجيه الحجاجي[1]؛ إذ تفترض تلك المساءلة وجود إجماع على ما تتعلق بهِ[2]، ففي الخطاب السابق يقول الإمام:"**أيّ دارٍ بعد داركم تمنعون ومع أيّ إمامٍ بعدي تقاتلون؟**"[3]، فبعد أن انطلق الإمام من جملة وقائع، وحقائق في حجاجهِ انتقل ومن خلال النص السابق موظِّفًا المساءلة بـــ(أيّ) التي: "يسأل بها عند التمييز بين الأجناس"[4]؛ لإقناعهم بحقيقة رئيسة هي أنَّهم لن يستطيعوا أن يمنعوا أو يحموا ولاية من ولايات الخلافة إن سقطت عاصمة الخلافة، ثم يتساءل عن جنس الإمام الذي يستحق أن يُنصَر إن لم ينصروه؛ فمن سيأتي بعده جبار ظالمٌ، والإمام العادل أولى بالنصر من الظالم؛ فهو ينطلق من حقيقة قرآنية هي حرمة إعانة الظالم إيمانا بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[5].

ومن الخطابات الحجاجية المنطلقة من أكثر من منطلق قول الإمام لمَّا غلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات ومنعوهم الماء:"**قد استطعموكم القتال،**

---

[1] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٢١.

[2] ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3] نهج البلاغة: ١٢٦.

[4] حروف المعاني: ٦٣.

[5] هود: ١١٣.

فأقِرّوا على مذلّةٍ وتأخير محلّة، أو روُّوا السيوف من الدِّماء تُرووا من الماء؛ فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين"[١]؛ فالنص السابق تضمن نوعين من المنطلقات الأول كان وقائع ذكرها الإمام معبِّرا عنها بــ(استطعموكم القتال) أي طلبوا القتال منكم، فالتعبير كان مجازيا، وكأنّه(ع) جعل القتال شيئا يُطلَب أكلُه[٢]، ثم انتقل الإمام(ع) إلى منطلق آخر صاغه بصورة حقيقة فلسفية هي أنّ الموت يتمثل بالقهر والانهزام، أمّا الحياةُ فهي في العزّ وإن أدّى إلى الموت، وقد خيَّرهم الإمام(ع) بين الإقرار على المذلّة وتأخر المرتبة، أو القتال، وقد وظّف الإمام تقابلا دلاليا غريبا يعكس الحال التي وصل لها القوم و هي أنّهم لكي يُروَوا من الماء عليهم أن يَرووا السيوف من الدماء.

ومن الخطابات الحجاجية التي وظّف فيها الإمام(ع) أكثر من منطلق ما ورد في خطبة له فيما يتعلق بنكث طلحة والزبير البيعة؛ فيقول: "**والله ما أنكروا عليَّ مُنكرا، ولا جعلوا بيني وبينكم نِصْفا، وإنَّهم ليطلبون حقًّا هم تركوه، ودما هم سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلا قِبلَهم**"[٣]، فهذا النص الحجاجي انطلق من مبدأين: الأول مجموعة من الوقائع؛ إذ يؤكد الإمام حجاجه بالقسم أنّهم لم ينكروا منكرا في الحقيقة بل أنكروا ما للإمام فيه حجّة عليهم؛ فقد طالبوا الإمام بتسليمهم قتلة عثمان؛ وهم من سفك دم عثمان بالتحريض عليه؛ فكانت هذه هي الوقائع، أمّا المنطلق الآخر فتمثّل بــ(الافتراضات)، والافتراضات جزء من المنطلقات في مفهوم(برلمان) إلاّ أنّها لا

---

(١) نهج البلاغة: ١٥٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٣/ ٢٤٤.

(٣) نهج البلاغة: ٣٣٥- ٣٣٦.

تحظى بالموافقة العامة كالوقائع والحقائق، والإذعان لها من قبل الجمهور لا يكون تاما وقويا إلا إذا أتى في مسار الحجاج عناصر أخرى تقويه[1]، وما ذكره(برلمان) نجده يتطابق مع النص السابق؛ فقد ورد الافتراض بعد سرد الوقائع، وذلك في قوله(ع): "**فإن كنت شريكهم فيه فإنَّ لهم نصيبهم منه، وإن ولوه دوني فما الطَّلِبَة إلا قِبَلَهم**"[2]، فالحجاج في النَّص منطلقٌ من افتراضين تأسَّسا على تركيب الشرط بالأداة(إن) والملاحظ أنَّ الإمام وظَّف دلالة(إن) فيما يخدم حجاجية النَّص؛ إذ أشار النحاة إلى عدم التيقُّن من وقوع ما بعدها فلا يُجزَم بوقوعه[3]، وقد أجاب(ع) عندما طرح كل افتراض منهما، فإمّا أن يكون الإمام(ع) محرِّضا معهم على الخليفة عثمان وهو ما يستدعي محاكمتهم هم لا الاكتفاء بالقصاص من الإمام(ع)؛ لأنّهم قد شاركوا في قتل الخليفة، وإمّا أن يكونوا هم المباشرين قتله أو التحريض عليه دون أن يشاركهم الإمام(ع)؛ وهنا لا يحق لهم مطالبة الإمام أن يسلِّم قتلته لهم؛ لأنَّهم هم القتلة والمحرضون عليه، ولم يفترض الإمام (ع) أنَّه المتهم بدم عثمان دونهم؛ لأنَّهُ وبحسب ما ذكرهُ ابن أبي الحديد لم يقل بذلك قائل؛ فالمسلمون كانوا على قولين في ذلك: الأول أنَّ عليا كان مع طلحة والزبير ضمن من حرَّض على عثمان، والآخر أنَّ عليا(ع) بريء من ذلك، وأنَّ طلحة والزبير غير بريئينِ من ذلك[4]، ويظهر من مقام الخطاب أنَّ هؤلاء المطالبين بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان كانوا يدركون أنَّ الإمام كان أبعد القوم عن دم عثمان، والدليل في ذلك أنَّ غاية ما طلبه هؤلاء

---

[1] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠٩ .

[2] نهج البلاغة: ٣٣٦.

[3] ينظر: شرح المفصَّل:٩/٤، وشرح التسهيل:٢/٢١١.

[4] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٩/ ٣٦.

فضلا عن معاوية أن يسلِّم قتلة عثمان ولم يتَّهم(ع) بقتله، وعند مراجعتنا للمصادر التاريخية التي ذكرت مقتل الخليفة عثمان نجد أنَّ هناك أسماء معينة كان لها دورٌ في إذكاء الفتنة بين المسلمين؛ ففي مقدمة هؤلاء المحرضين الذين نادوا فيما بعد بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان عمرو بن العاص وكان سبب تأليبه الناس على عثمان أنَّه فيما روى المؤرخون كان عاملا على مصر لعثمان فعزله، فبدأ عمروٌ يطعن على الخليفة ويؤلِّب الناس عليه[١]، حتى إذا ما بلغه مقتل الخليفة عثمان، قال: "إن كنت لأحرِّض عليه، حتى إنيَّ لأحرِّضُ عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل"[٢]، فضلا عن الشخصيات الأخرى التي حملت السيف بوجه الإمام بعد مقتل الخليفة عثمان مدعية طلب القصاص من قتلة الخليفة المقتول ظلما[٣]!، وليس بحثنا محلا لتناول تفاصيل مقتل الخليفة عثمان لكن نقول إجمالا أنَّ الخطاب الحجاجي السابق كان منطلقا من تمازج الوقائع والافتراضات وهو ما يعطي قوة له.

---

[١] ينظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٦-٣٥٧-٣٦٠.

[٢] المصدر نفسه: ٤/ ٣٥٧.

[٣] ينظر في ما قام به من ادعى طلب الثأر للخليفة عثمان من تحريض عليه في حياته: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٩- ٤٤٩- ٤٥٩.

المبحث الثاني

مقدمات الحِجاج في الخطاب الخاص

درست في المبحث السابق منطلقات الحجاج في الخطاب الموجه إلى الجمهور المتلقي وكان خطابا موجّها إلى عامة الجمهور المتلقي لحجاج الإمام الذي سعى فيه إلى زيادة اقتناعهم بضرورة طاعة الخلافة فضلا على ترسيخ القيم الإسلامية لديه؛ فالحجاج فيه اقتناعي بحسب مفهوم (برلمان)[١]، أمّا في هذا المبحث فسأدرس منطلقات الحجاج في الخطاب الموجّه إلى جمهور خاص فهو حجاج(إقناعي)[٢]، إذ يهدف هذا الحجاج إلى إقناع جمهور خاص، وهذا الجمهور الخاص نجد فيه من يحمل فكرا مغايرا أو حتى مضادا لما يطرحه الإمام(ع) فضلا عن الصفوة من أصحاب الإمام وأهل بيته؛ وقد ارتأيت تقسيم دراسة الخطاب الحجاجي الخاص على محورين، الأول هو الخطاب الحجاجي الخاص الموجّه إلى أعدائه(ع)، والآخر يتمثل بالخطاب الحجاجي الموجّه إلى الخاصة من أتباعه(ع) من عمّال الولايات وأقربائه .

أولا: الخطاب الموجّه إلى أعداء الإمام(ع):

ويشتمل هذا الخطاب الحجاجي على جملة نصوص موجهة إلى من كان يعارض خلافته(ع) وفي مقدمة ذلك الحجاج ما توجّه به(ع) إلى معاوية وجمهوره؛ فقد حاججهم في نصوص متعددة، وكانت النتيجة المطلوبة من ذلك الحجاج هي إقناعهم بالتخلي عن معارضة الخلافة والدخول فيما دخل فيه النّاس من طاعة الإمام (ع)، وقد تنوعت منطلقات الحجاج في ذلك الخطاب؛ إذ بنيت بعضها على

---

(١) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٠١ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

منطلقات واحدة، ومنها ما بني على تضافر أكثر من مبدأ حجاجي بحسب طبيعة المقام وما كان يطرحه معاوية في رسائله للإمام(ع) من أفكار يحاول إشاعتها في الوسط الإسلامي وهو ما استدعى تصدي الإمام لتلك الأطروحات وتغييرها، وسندرس أمثلة من الحجاج المنطلق من منطلق واحد كالحقيقة، أو الواقع، والمنطلق من أكثر من منطلق حجاجي، فمن المنطلق من الحقيقة قوله(ع):"**فاتق الله فيما لديك وانظر في حقِّه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تُعذر بجهالته؛ فإنَّ للطاعة أعلاما واضحة وسُبلا نيِّرة ومحجَّةً نهجة وغاية مُطَّلَبة**"[1]، وهذا الجزء من الخطاب انطلق فيه الإمام من حقيقة دينية هي ضرورة تقوى الله تعالى والخطاب الذي ورد في نهج البلاغة ينطلق برمته من حقيقة التقوى، والأمر بالتقوى في الخطاب الموجَّه إلى جمهور خاص يستلزم دلالة ضمنية تتناسب والمخاطب، وقد تناولت النص السابق عند دراسة المستوى التداولي في خطاب النهج وذكرتُ أنَّ الأمر بالتقوى يقتضي طاعة المخاطب لله تعالى، وما دام هذا المخاطب غير خاضع للخلافة فضلا عن عدم اعتقاده مبدأ الإمامة سيكون الخضوع لسلطان الخلافة الشرعية أهم دلالات التقوى المطلوبة.

وقد تقدَّمت النتيجة المطلوبة وهي التقوى ووردت بصيغة الأمر وارتبطت بالحجة بعدها برابط السببية، وأُكِّد جانب الحجة بـــ(إنَّ) مع سلسلة من الأسماء المعطوفة على اسم(إنَّ)، وقد نُعِت كلٌّ منهما بنعت يرسِّخ ما يطرحه الإمام؛ فسبل الطاعة نيِّرة، والطريق صالحة، وقوله(ع):و(غاية مطَّلَبة) يعني أنَّ هذه الغاية

---

[1] نهج البلاغة: ٦١٣.

مسعفة لطالبها بما يطلبه[1]؛ فدلالة الجمل تتعلق بخلافة الإمام وطاعتها التي تتصف بأنّ لها دلائل أهمها مبايعة الإمام.

ومن الحجاج المنطلق من الواقع ما ورد في كتاب للإمام إلى معاوية: "**فأمّا إكثارُكَ الحِجَاج في عثمان وقتَلَتهِ؛ فإنَّك إنّما نصرْتَ عثمان حيث كان النصر لك وخذلتهُ حيث كان النَّصر له**"[2]؛ فمعاوية شديد التمسك بالأهواء المضلّة بحسب ما أشار إليه الإمام(ع) قبل النص أعلاه ومنه انطلق إلى واقع آخر هو أنَّ معاوية خذل الخليفة عثمان عندما كان بحاجة للنصرة، وفي هذا إشارة إلى كتاب عثمان إلى معاوية الذي يأمره فيه بإرسال مقاتلة أهل الشام إلى المدينة عندما حوصر فيها، والكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد؛ فإنَّ أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إليَّ من قِبلِك من مقاتلة أهل الشام على كلّ صعب وذلول"[3]، لكنَّ معاوية تخاذل عن نصرة الخليفة، والملاحظ أنَّ الطبري(ت٣١٠هـ) سوّغ ذلك بأنّه كره أن يُظهر مخالفة أصحاب الرسول(ص)![4]، ولم يذكر لنا مخالفتهم في ماذا؟، وبهذا أنطلق الإمام في حجاجه من واقع توظيف معاوية مقتل الخليفة بما يخدم طمعه بالخلافة؛ وهذه كانت أمثلة على انطلاق الحجاج الموجَّه إلى معاوية من مبادئ واحدة.

وقد وردت نصوص حجاجية في خطاب الإمام(ع) منطلقة من تداخل الوقائع بالحقائق، منها ما ورد في كتابه إلى معاوية:"**إنَّه بايعني القوم الذين بايعوا**

---

[1] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(طلب): ١٧٢/١.

[2] نهج البلاغة: ٦٣٨.

[3] تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٨.

[4] ينظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٨.

أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردَّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى"[1]. فالنص يتضمن ثنائية(الوقائع، والحقائق) وقد انطلق الإمام من مبايعة الجمهور له لإقناع معاوية وأتباعه بمبايعته(ع)؛ فهذه البيعة الناتجة عن الشورى وبخاصة ممن كان في المدينة ملزمة لغيرهم من سكان الأمصار كما كان الحال مع الخلفاء السابقين، ثمَّ ارتبط الحجاج بما ساقه(ع) من(حقيقة سياسية) هي أنّه متى اجتمع المهاجرون والأنصار على(رجل) وبويع بالخلافة كان في ذلك رضا الله، وقد أكَّد بيعته بـــ(إنَّ).

وفي سياق ذلك التوكيد بالقصر الذي يحصر المفهوم الحجاجي للخطاب؛ فقوله:(إنما الشورى للمهاجرين والأنصار) يمثل واقعا أو(عرفا سياسيا) يخرج أهل الأمصار من دائرة الشورى، وقد جرت بذلك سيرة اختيار الخلفاء الذين سبقوا الإمام(ع)، وبذلك تسقط حجّة معاوية في الطعن بصحة خلافة الإمام في عدم مبايعة الشام له؛ وقد تناولت النص السابق عند دراسة الاستلزام الحواري في خطاب الإمام؛ إذ أرى أنَّ المعنى المستلزم أو الضمني للرجل هو الإمام نفسه وذلك بخرق مبدأ (الطريقة أو الصيغة) الذي يقوم على أساس تجنب اللبس والغموض[2]؛ فالنص بني على التباس حجاجي بين معنيين الأول(ظاهري)، والآخر(مستلزم) فهو التباس عبارة النص بإشارته[3]؛ و الحقيقة التي انطلق منها الإمام(ع) أنَّ بيعته فيها رضا الله تعالى وعليهم أن يدخلوا في تلك البيعة.

---

(1) نهج البلاغة: ٥٨٧.

(2) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٥.

(3) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٢١.

ومن الحجاج المنطلق من تضافر الحقائق مع الوقائع قول الإمام لمعاوية:"**وكيف أنت صانع إذا تكشَّفت عنك جلابيب ما أنت ما فيه من دنيا قد تبهَّجت بزينتها، وخدعت بلذَّتها،دعتك فأجبتها، وقادتك فاتَّبعتَها، وأمرتك فأطعْتَها...، ولا تمكِّن الغواة من سمعك وإلاَّ تفعل أعلمْكَ ما أغفلت من نفسك؛ فإنَّك مُترَف قد أخذ الشّيطان منك مأخذه**"[1]، ففي هذا الجزء من كتابه ينطلق الإمام من حقيقتي(الموت)، و(سيطرة الشيطان) للتأثير في معاوية لعلّه يفعل ما يتوجب عليه فعله ولكي لا يبقى له عذر أمام الله تعالى أولا وأمام التاريخ ثانيا في عدم الدخول في طاعة الإمام(ع)، ومن ثمَّ التأثير في أتباع معاوية لإقناعهم بترك التمرد على الخلافة بتوجيه النصح لقائدهم معاوية؛ والحجاج صيغ بطريقة إشكال أو تساؤل موجَّه إلى معاوية وجمهوره؛ فالتساؤل بـــ(كيف) عن حال معاوية يوم القيامة إذ سيحشر وهو محارب الخليفة الذي وصل للحكم بالطريقة نفسها التي قُبِلت فيها خلافة غيره والتساؤل نفسه يوجَّه لأتباعه لكي يهتدوا؛ فهم يتبعون شخصا غرَّته الدنيا وتمكَّن منه الشيطان، وهذا الأمر يقتضي ترك الطاعة المطلقة له، ثم ينطلق الإمام من واقع آخر، فيقول:"**ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرَّعيةَ، وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق ولا شرفٍ باسق**"[2]، فالواقع طُرِح بصيغة تساؤل بـــ(متى) عن الزمن الذي تصدَّر فيه بنو أمية الناس في الإسلام أو الجاهلية؛ فهم في الجاهلية وإن كانوا من سادة قريش إلا أنهم لم يتقدموا على بني هاشم، وبعد بعثة النبي (ص) كانوا قادة الكفر ومواجهة المسلمين[3]؛ ومن كان زعيم الكفر في

---

(1) نهج البلاغة: ٥٨٧.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٥/ ٨١.

مواجهة النبي(ص) لا يصح أن يتولّى شيئا من أمور المسلمين، وبعد ذلك يستشهد الإمام بجملة وقائع ردا على دعوة معاوية للحرب، فيقول:"**وقد دعوتَ إلى الحرب فدع النَّاس جانبا واخرج إليَّ، وأعف الفريقين من القتال؛ لتعلم أيُّنا المَرِينُ على قلبهِ والمغطى على بصره، فأنا أبو حسن قاتل جدِّك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معي. وبذلك القلب ألقى عدوي...، وزعمت أنَّك جئت ثائرا بدم عثمان. ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك إن كنت طالباً**"[1]، ففي النَّص يردُّ الإمام على ما دعاه إليه معاوية من الحرب؛ فقد ذكر ابن أبي الحديد أنَّ معاوية أرسل كتابا للإمام(ع) يتوعده فيه بالحرب، وأنَّ العاقبة للمتقين!، فكان ردُّ الإمام متمثلا بالخطاب السابق منطلقا في حجاجه من وقائع؛ والإمام يذكِّر معاوية بأنَّه قد قتل أخاه حنظلة، وخاله الوليد، وجده عتبة في معركة بدر، ولفظ(السيف) يحمل دلالة مستلزمة ضمنية، إذ ليس المراد منها الدلالة المادية للفظ وإنَّما ما يرمز له(السَّيف) من سلاحِ الإيمان في مواجهة الكفر، فالمعنى المستلزم حواريا للسيف هو المبادئ التي آمن بها الإمام(ع) منذ بعثة النبي (ص) والتي لم تتبدل و مبادئ معاوية والمعسكر الذي يمثله في مقابل ذلك لم تتبدل كذلك، وبالقلب الذي قابل الإمام(ع) به معسكر الكفر بقيادة بني عبد شمس في زمن النبي(ص) يقابل معاوية.

ثم انطلق الإمام من وقائع أخرى هي أنَّ دمَّ الخليفة عثمان وكما يعلم معاوية وغيره لم يسفكه الإمام(ع)، وهنا أشيرُ إلى قضية مهمة ترتبط بالبحث في المنطلقات سبق أن ذكرتها في المستوى التداولي عند حديثي عن التداخل بين مفاهيم (الافتراض المسبق)، و(الاقتضاء)، و(الاستلزام الحواري) هي أنَّ الافتراض المسبق يقترب بل لعلهِ يتطابق مع مفهوم(المقدمات الحجاجية)، وهذا

---

[1] نهج البلاغة: ٥٨٨.

التقارب يخدم دراستنا لمنطلقات الحجاج لاسيما الموجَّه للجمهور المعادي للإمام(ع)؛ فالإمام ينطلق في حال الخطاب الموجَّه إلى الجمهور من(حقائق)، و(وقائع) تمثل افتراضات مسبقة متفق عليها ويؤمن بها الجمهور ولاسيما أعداء الإمام؛ لكي يذعن لها المتلقي فيحصل له أو لمن يمثله اقتناع بما يُطرح من أفكار ولو بعد حين.

ومن الحجاج الموجَّه إلى أعداء الإمام(ع) ما قُصِد به الخوارج وهم منكرون للتحكيم وقد حاول الإمام أن يقنعهم بالعدول عن حربهِ؛ فكانت(الوقائع) لأهميتها هي المنطلق الحجاجي الذي وظَّفه الإمام(ع)،ومنها قوله:"ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف- حيلة وغيلة ومكرا وخديعة- إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم؟"(١)، فالإمام انطلق من واقعهم الذي صوّره في صيغة تساؤل حجاجي ليكون أبلغ في إقناعهم؛ إذ فرضوا على الإمام القبول بالتحكيم، و(استقالونا) طلبوا ترك القتال(٢)، و(استراحوا) طلبوا الرواح أو العودة(٣)، فبعد أن ذكر الإمام(ع) مقالتهم ذكّرهم بقوله لهم عند طلبهم التحكيم:"هذا أمرٌ ظاهره إيمانٌ وباطنه عدوان، وأوّلهُ رحمة، وأخره ندامة فأقيموا على شأنكم والزموا طريقتكم"(٤)، وهكذا بني الخطاب الحجاجي على جملة من الوقائع؛ لكونها أقوى منطلقات الحجاج وبخاصة عند توجيهه لمن يعاديهِ.

---

[1] نهج البلاغة: ٣١٢.

[2] ينظر في ذلك: لسان العرب(قيل) : ١١/ ٥٧٩.

[3] ينظر: لسان العرب(روح): ٢/ ٤٦٥.

[4] نهج البلاغة: ٣١٢.

وقد انطلق الحجاج الموجه لجمهور الخوارج في بعض الأمثلة من أكثر من منطلق، ومن ذلك قوله(ع) للخوارج: "**فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنِّي أخطأت وضللت، فلِمَ تضلِّلون عامَّة أمَّة محمد(ص) بضلالي، وتأخذونهم بخطئي وتكفِّرونهم بذنوبي؟**"[1]، ففي هذا الجزء من الخطاب وما يتبعه ينطلق الإمام من(الافتراضات) في محاولة إقناع الخوارج بالتخلي عن تكفير المسلمين وقتلهم؛ إذ لنفترض أنَّ الإمام ضالٌّ ومخطئ فهل يجيز ذلك لهم تكفير المسلمين؟، وقد استعمل أسلوب(المساءلة) لبيان خطئهم في تكفير الآخرين لمجرد الاختلاف معهم، فلا عذر لهم في تكفير أهل القبلة، والإمام(ع)على الرغم من كونه الخليفة الذي اختاره جمهور المهاجرين والأنصار وقبلت خلافته الأمصار عدا بلاد الشام فضلا عن كونه وبحسب ما ورد في النهج نفسه والروايات عن الصحابة في فضله لم يكفِّر أحدا من أعدائه لا من نكث البيعة ولا من لم يبايع كمعاوية ولا من كفَّر المسلمين كالخوارج، وهذا بحد ذاته دليل على انحراف هذا المنهج عن تعاليم الإسلام، وقد أشار ابن أبي الحديد إلى أنَّه لا يصح لقائل أن يعتذر لفعل الخوارج بأنَّهم لم يأخذوا الأمة بضلال الإمام(ع)؛ لأنَّه قد حدث ذلك حتى أنَّهم قتلوا الأطفال والبهائم[2]، وهو ما استحق توجيه الحجاج لهم منكرا عليهم ذلك المنهج، ثم انطلق الإمام(ع) من الوقائع بعد الافتراضات في حجاجه؛ إذ ربط افتراض ضلاله(ع) بما وقع في زمن النبي(ص)؛ فالنبي(ص) مع إقامته الحدَّ على الزاني والقاتل والسارق إلاَّ أنَّه لم يمنعهم حقوقهم أو يخرجهم من الإسلام، يقول الإمام(ع) منطلقا من ذلك الواقع:"**وقد علمتم أنَّ الرسول(ص) رجم الزاني، ثم صلى عليه ثم ورَّثه أهلَه،**

---

[1] نهج البلاغة: ٣٢١.

[2] ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٨/ ١١٣.

وقتل القاتل وورّث ميراثَهُ أهله، وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله(ص) بذنوبهم وأقام حقَّ الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله"[1]، فالإمام وبعد أن انطلق من افتراض كونه(ع) مخطئا، انطلق من وقائع تعامل فيها النبي(ص) مع (مرتكب الكبيرة) بحسب الضوابط الإسلامية، وقد أكّد الإمام ذلك الواقع بـــ(قد) مع الفعل(علمتم)؛ لترسيخ فكرة معرفتهم بالوقائع التي يستشهد بها(ع)، فالنبي(ص) وإن أقام الحدَّ على القاتل والسارق والزاني من محصنٍ وغير محصن إلا أنَّه لم يكفرهم فورّث من كان حكمةُ القتل وصلّى عليه، ومن أقيمت عليه حدود أخرى لم يمنعه من حقه من بيت المال وقد تزوج من أقيم عليه الحدُّ من المسلمات فهو كفؤ لهن وليس كافرا؛ وأرى أنَّ الخطاب السابق كان ذا طاقة حجاجية عالية؛ لأنَّ الإمام(ع) وهو خليفة المسلمين ووصي النبيِّ نزل لمستوى من يُخطئ في تطبيق الشرع الإسلامي بل تجاوز ذلك إلى الاستشهاد على حسن إسلامه(ع) وعدم كفره بمن أقيمت عليه الحدود ومع ذلك لم يخرج من ملة المسلمين حتى مع ضلاله.

والخطاب الحجاجي السابق يعد من أهم الأمثلة على المنطق الذي أشرت إليه عند الكلام عن(الدوكسولوجيا)؛ لأنَّ الإمام(ع) كان محاورا يحاول إقناع الخوارج بترك التكفير وهو في ذلك لا يقابلهم بالإكراه المنطقي بتكفيرهم بالمقابل وقتلهم من دون إلقاء الحجة عليهم، فالإمام ينطلق مما يعرف في الدراسات

---

[1] نهج البلاغة: ٣٢٢.

الحجاجية الحديثة بـــ(الدافعية العقلانية) التي ترى أنَّ ما ينتج عن المحادثة لا يمكن أن يكون نافذا بالإكراه المنطقي أو التجريبي بل بالحجة الجيدة[١].

ومن الخطاب الحجاجي الذي توجّه به الإمام(ع) إلى أعدائه ما ورد في كتاب له إلى طلحة والزبير:"**أمَّا بعد، فقد علمتما وإن كتمتما أنِّي لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنّكما ممن أرادني وبايعني، وإنَّ العامة لم تبايعني لسلطانٍ غاصبٍ، ولا لِعَرَض حاضر**"[٢]؛ فقد انطلق الإمام من واقع استشهد بهِ هو عدم طلبه الخلافة بالوسائل غير الصحيحة، ولم يتآمر على الخليفة عثمان كما فعل غيره لتؤول إليه السلطة بل إنَّ الجماهير هي التي أرادته إذ ذكرت الروايات أنّه بعد مقتل الخليفة عثمان انهال الناس على الإمام(ع) لبيعته وهو رافض لذلك حتى أُكره على البيعة وقد اشترط أن تجري بيعته في المسجد[٣]، وهذا يدلنا على أنّه أراد بيعة عامة وليست خاصة برجل أو رجلين تنعقد الخلافة ببيعتها، ومن جملة من تقدّم لبيعته طلحة والزبير اللذان قالا له:"لا نختار غيرك"[٤]، ثم ذكر الإمام أنَّ بيعته لم تكن خوفا من سلطان أو طمعا في(عَرَض حاضر)، و(العَرَض):"ما كان من مال قلَّ أو كثر"[٥]، ومقتضى النص دلاليا أنَّ الإمام لم يطلب الخلافة بالقوة كما فعل غيره.

---

[١] ينظر في ذلك: الفلسفة والبلاغة: ٨٢.

[٢] نهج البلاغة: ٦٨٣- ٦٨٤.

[٣] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/٤٢٧-٤٢٨-٤٢٩.

[٤] المصدر نفسه: ٤/ ٤٢٧-٤٢٨.

[٥] تاج اللغة وصحاح العربية(عرض): ١٠٨٣/٣.

ثم انتقل(ع) إلى منطلق حجاجي آخر تأسَّس على قضية بيعة المسلمين له ولاسيما طلحة والزبير، وهذا المنطلق هو(الافتراض)؛ إذ خاطبهما بقوله(ع):"**فإن كنتما بايعتماني طائعينِ، فارجعا وتوبا إلى الله من قريب، وإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهارِكما الطاعة وإسرارِكما المعصية، ولعمري ما كنتما بأحقِّ المهاجرين بالتقية والكتمان، وإنَّ دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه، كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما بهِ**"[1]، فالحجاج انطلق من الافتراض بوساطة أداة الشرط(إن) التي تدل على عدم التيقُّن من وقوع ما بعدها[2]، وبيعتهما لا تخرج عن واحد من أمرين إمَّا أن تكون عن قناعة وهو ما يستلزم توبتهما، وإمَّا أن يكونا كارهين للبيعة وهذا لا يلزم الإمام(ع) بشيء؛ لأنَّ الحكم إنما يكون على ظاهر الإنسان لا على ما يضمره؛ فهما قد أظهرا طاعة الإمام(ع) وهما يضمران بغضهُ وهو ما يعطي دفعا لحجاجية الخطاب.

والملاحظ في سياق ذلك أنَّ وصف الإمام كان دقيقا؛ إذ قال(كارهينِ) ولم يقل(مُكرَهينِ)، والفرق كبير بين(المكرَه)، و(الكاره)، وليس لهما إدعاء الإكراه على البيعة؛ لأنَّ الإكراه يعني:"أن يُجرَّد السيف ويُمَدُّ العنقُ"[3]، ولم يحدث هذا؛ لأنَّه لو حدث لاتخذوا ذلك ذريعة لهما ولمن معهما فضلا عن اتخاذ معاوية ذلك سببا في الطعن في خلافة الإمام(ع)، وإن كانت بعض الروايات

---

(1) نهج البلاغة: ٦٨٤.

(2) ينظر: شرح المفصَّل: ٤/٩.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣٤/١٧.

تحدثت عن أنّ طلحة والزبير قد صرّحا بأنّهما بايعا مُكـرَهين[١]، إلا أنهـا لا تستقيم للمناقشة؛ لأن هناك صحابة آخرين تخلفوا عن بيعة الإمام(ع) ومنهم سعد بن أبي وقاص وابن عمر وحسّان بن ثابت وغيرهم[٢]، فلم يُكرِه الإمام هـؤلاء على بيعته طوال خلافته (ع)، وهما إن كانا صـادقينِ فـي رفضـهما تـولي الإمام(ع) الخلافة في بداية الأمر فبماذا يفسّران طلبهما منه أن يوليّهما البصرة والكوفة مثلما نصّت على ذلك الروايات؟[٣]، واعتقد أنّ ما ينسب إليهما من قول بالإكراه إنما كان بعد نكثهما البيعة لتسويغ موقفهما أمام جمهورهما؛ ثم ينتقـل الإمام(ع) إلى الوقائع مرة أخرى لعله يقنعهما أو يقنع جمهورهما بتركها، فيقول فيما يتعلق بقتل الخليفة:"**وقد زعمتما أنّي قتلتُ عثمان، فبيني وبينكما من تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة ثم يُلزم كلُّ أمرىء بقدر ما أحتمـل**"[٤]؛ فالإمـام ينطلق في حجاجه من واقع استشهد به وهو وجود أشخاص تخلّفوا عن نصـرة كلا الطرفين الإمام(ع) والناكثين، فهؤلاء يمثلون (طرفا محايدا) للنظر في مـا أدعاه الناكثون، والمقتضى الدلالي للنص أنّ الإمام (ع) بريء مما نسب إليهِ من إكراه الآخرين على بيعته ويشهد بذلك من تخلَّف عن نصرتهِ ولم يبايعه، وهكذا تعددت المنطلقات في الخطاب السابق للوصول إلى الهدف المطلوب وهو إقناع أكبر عدد ممن حارب الإمام بضرورة ترك حربه وقد تمّ ذلك على وفـق مـا

---

[١] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣٥.

[٢] ينظر في ذلك: البداية والنهاية: ٧/٢٥٣.

[٣] ينظر في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٩، والبداية والنهاية: ٧/٢٥٥.

[٤] نهج البلاغة: ٦٨٤.

يسمى اليوم بمنطق المحادثة الذي يقوم على الحوار بعيدا عن نمط القهر والتكفير لمن خالفه(ع).

ثانيا: الخطاب الموجّه إلى أتباع الإمام (ع)

بعد أن تناولت منطلقات الحجاج في الخطاب الموجّه إلى أعداء الإمام سأتناول منطلقات الحجاج الموجّه إلى أتباعه(ع) للوقوف عليها، وعلى النتائج التي أرادها الإمام من توجيهه حجاجه إليهم، فضلا عن المقتضيات الدلالية للخطاب، وفي مقدمة تلك النصوص وصية الإمام إلى الحسن(ع) بعد معركة (صفين)، وفيها مضامين عقائدية عالية قصد بها الإمام الجمهور الكوني من خلال توجيه الخطاب إلى الحسن(ع)، وقد انطلق الحجاج في مجمله من مجموعة حقائق فلسفية ودينية تتعلق بحال الدنيا الفانية وأثر الموعظة والتقوى في الإنسان، يقول(ع):"**أحيِّ قلبَكَ بالموعظة، وأمتهُ بالزهادة، وقوِّه باليقين، ونوِّرهُ بالحكمة، وذلِّلهُ بذكر الموت، وقرِّرهُ بالفناء، وبصِّره فجائع الدَّنيا، وحذِّرهُ صولة الدّهر**"[1]؛ فقد انطلق الإمام(ع) من الموعظة والزهد واليقين والحكمة، وغير ذلك من المفاهيم التي تعد كل منها منطلقا فلسفيا ودينيا في حواره الذي يسعى عبر توجيهه للحسن(ع) إلى ترسيخ هذه المفاهيم في أذهان الجمهور المتلقي للخطاب عبر الجمهور الخاص المتمثل بالحسن، والملاحظ أنَّ الحجاج بُني في النَّص بصيغة الأمر في جميع الجمل وقد أشارت بعض الدراسات التداولية إلى أنَّ صيغة الأمر تعد من أهم الوسائل اللغوية في استراتيجيات الخطاب ولاسيما الإستراتيجية التوجيهية[2]، التي تقرب كثيرا فيما

---

[1] نهج البلاغة: ٦١٦.

[2] ينظر في ذلك: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: ٣٤٠.

يبدو لي من جوهر الحجاج الذي يوجِّه المتلقي للسير في نمط معين من النتائج تمثِّل المفهوم الدلالي من الخطاب[1]. وصيغة الأمر تتناسب مع مقام الخطاب فالمخاطب المباشر هو ابن الإمام، والمخاطب الكوني يخاطبه الإمام بما له(ع) من مقام ديني، وهنا أرغب في الإجابة عن تساؤل ربما يتولد عند القارئ يتعلق بالسبب الذي يجعلني أتناول هذا الخطاب ضمن الخطاب الموّجه إلى أتباع الإمام(ع)؛ إذ ما الذي يجعلنا نتناول الخطاب السابق في قسم الخطاب الحجاجي الخاص ما دام المستهدف بالحجاج هو الجمهور الكوني؟، وللإجابة عن هذا التساؤل أقول إنَّ المستهدف بالخطاب السابق وإن كان هو الجمهور الكوني إلا أنَّ لشخصية الناقل للخطاب أو(الجمهور المباشر) المتمثل بالإمام الحسن(ع) أثر كبير في إيصال تلك المفاهيم للجمهور الكوني؛ فالإمام علي(ع) إنما اختار الإمام الحسن(ع) ليخاطب من خلاله الجمهور ويقنعه؛ نظرا للمنزلة الخاصة التي يملكها الحسن(ع)؛ فالحجاج المتضمن تلك الحقائق الدينية المتعلقة بعلاقة الإنسان المؤمن بربِّه من جانب وعلاقته بالآخرين من جانب آخر لانجده على لسان أقرب المقربين من الإمام(ع) بل جاء موجَّها من الإمام علي إلى الحسن(عليهما السلام) ومنه إلى الجمهور الكوني، وكان الإمام متأثرا في حجاجه بأسلوب القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى؛ إذ يُوجَّه الخطاب الإلهي للناس كافة من طريق أفضل الناس وأعلاهم مرتبة وهم الأنبياء والمرسلون؛ فالله تعالى يختار في مقام التبليغ عنه من تصل به الكمالات الأخلاقية أعلى المراحل، وفهم الخطاب نفسه يحتاج استعدادا أخلاقيا وفكريا عاليا ليقوم الشخص بنقله إلى

---

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٣.

الجمهور، قال تعالى:﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1]، فالخطاب ذي المفاهيم الحجاجية العميقة والموجّه إلى جمهور واسع يقتضي وجود من يدرك النتيجة المطلوبة من الحجاج ليقوم بإيضاحه للجمهور، و من ذلك من الخطاب نفسه قوله (ع):"**وأعلم أنَّ مالك الموتِ هو مالك الحياة، وأنَّ الخالق هو المميت، وأنَّ المفني هو المعيدُ، وأنَّ المبتليَ هو المعافي**"[2]، فانطلق الإمام(ع) مما يتضمنه توحيد الله تعالى من صفات قد تكون متضادة بحسب الفهم الإنساني لكنّها متحدة في ذات الله تعالى؛ فصفاته عزّ وجل هي عين ذاته، ولم يكتف الإمام بإثباتها فقط بل أكّد تلك المفاهيم بأداة التوكيد ليثبت لنا أنه ليس من الممكن اتحاد هذه الصفات المتضادة إلا في ذات الله تعالى، والإمام يثبت توحيد الله بنصٍّ يتصف باليسر بعيدا عن نصوص الفلاسفة والمتكلمين الذين خاضوا في هذه المسائل؛ فيقول(ع):" **لو كان لربِّكَ شريكٌ لأتتك رسلُهُ ولرأيت آثار ملكهِ، وسلطانهِ، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّهُ إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسه، لا يضادُّهُ في ملكه أحدٌ، ولا يزولُ أبدا ولم يزل، أولٌ قبل الأشياء بلا أوليةٍ، وآخرٌ بعد الأشياء بلا نهايةٍ. عظم أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلبٍ أو بصرٍ**"[3]، فهو يحاول إقناع الجمهور أو زيادة إقناعهم بعقيدة التوحيد على النحو الذي يرسمه الإمام(ع) بعيدا عن أطروحات الديانات السابقة أو كلمات الفلاسفة من يونانٍ وغيرهم ممن انتقلت آراؤهم إلى الفكر الإسلامي في العصور اللاحقة، ثم يدعو إلى المبادرة بالدعاء و بوصيه وصايا شتى منها قوله(ع):"**وإيّاك والاتكال على المُنى، فإنّها**

---

[1] الحاقة:١٢.

[2] نهج البلاغة: ٦٢٠- ٦٢١.

[3] المصدر نفسه: ٦٢١.

بضائع النَّوكى، والعقلُ حفظُ التجارب، وخيرُ ما جرَّبتَ ما وعظكَ، بادر الفرصة قبلِ أن تكونَ غُصَّة"[١]، فالإمام يوصي الجمهور بعدم الاتكال على ما يتمناه من دون أن يقرن ذلك بالعمل الصالح، فما تقدَّم نتيجة تلتها حجة مؤكدة وقعت بعد فاء السببية، والاتكال على ما يتمناه الإنسان من دون عمل هي من عمل(النَّوكى)، وهم الحمقى[٢]، ثم يأمره بالمبادرة بالعمل الصالح قبل أن يفوته ذلك، وما ذكرتُه كان أمثلة يسيرة من الوصية، والحجاج في مجمله أنبنى على حقائق دينية ويبدو لي أن السبب في ذلك هو أنَّهُ كان يأمر بالأخذ بمفاهيم قد طرح الإسلام جزءا رئيسا منها ضمن نصوص القرآن الكريم التي كانت الأساس الفكري الذي انطلق منه الإمام(ع) فضلا عن مفاهيم أخرى كانت أحكاما أطلقها الإمام بما يملكهُ من بصيرةٍ بالأمور.

ومن الخطاب الحجاجي الموجَّه لأتباع الإمام(ع) عهده لمالك الأشتر عندما ولاَّه مصر وقد عُدَّ هذا العهد أجمع كتب الإمام للمحاسن[٣]، فهو دستور عمل للحاكم؛ وفيه إشارة إلى أهم فئات المجتمع وطريقة التعامل مع كلٍّ واحدة منها، وعلاقة الحاكم ببطانتهِ، ومن كان يعمل في إمرة الحكام الظالمين فضلا عن وصايا أخرى، والفرق الرئيس بين وصيتهِ إلى الحسن(ع) وعهده إلى مالك الأشتر يكمن في أنَّ الأول يتناول مباحث فلسفية ودينية تتعلق بتوحيد الله تعالى والمعاد فضلا عن وصايا أخلاقية واجتماعية، أمَّا عهدهُ إلى مالك الأشتر فهو قانون عمل للحاكم يبين فيه مهامه أي أنَّهُ يهتم بتنظيم علاقة الحاكم بالرعية؛

---

(١) نهج البلاغة: ٦٢٨.

(٢) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية (نوك): ٤/ ١٦١٢- ١٦١٣.

(٣) نهج البلاغة: ٦٦٠.

فالإمام انطلق من ثنائية(حق الراعي، وحق الرعية) في إلزام ولاة الأمور بحفظ مصالح الرعية[١]، وبملاحظة أنَّ عهده للأشتر يعد قانون عمل للحاكم انطلق حجاجه(ع) من حقائق تقرب من(السنن الإلهية) أو القوانين التي تحكم حركة المجتمع، وفي ضوء ما يترتب على هذهِ القوانين من آثار يستقيم أمر الأمة أو ينهار، وقد استعمل الإمام السّنن الإلهية في حجاجه؛ لإقناع ولاة الأمور من خلال الحجاج الموجَّه إلى الأشتر بأنَّ صلاح البلدان يتوقف في جانب كبير منه على صلاح الحكّام وسياستهم.

وسأقف على جملة من الحقائق وبضمنها تلك السنن الإلهية، ومن ذلك قوله (ع): "**وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللُّطف بهم، ولا تكونَنَّ عليهم سَبُعا ضاريا تغتنم أكْلَهم؛ فإنّهم صنفان:إما أخٌ في الدينً، وإمّا نظيرٌ لك في الخلق**"[٢]؛ فالحجاج انطلق من حقيقة دينية هي المساواة في أصل الخلقة الإنسانية وهو ما يوجب معاملة الرعية على نحو متساوٍ، ومقتضى النص أنَّ الولاة والحكام بهم حاجة إلى ترسيخ هذا المفهوم في أذهانهم، وقدّم(ع) المَفهوم وهي رحمة الرعية ومحبتهم وارتبط ذلك المفهوم بالحجّة بعده بفاء السببية، وقد أكَّد(ع) الحجّة بـــ(إنّ)، والملاحظ أنَّ الإمام استعمل الأداة(إمّا) في سياق طرحه وجود قسمين للناس، وذكر جمهور النحاة أنّها حرف عطف وخالفهم آخرون فرأوا أنَّها ليست بعاطفة معللين ذلك بأنّ دخول الواو عليها يعني دخول حرف العطف على حرف عطف مثله[٣]، واستدل الرماني(ت٣٨٤هـ)على عطفها بأنَّ

---

[١] ينظر: (الحجاج في خطب الإمام علي) بحث ضمن مجلة ق، العدد الأول: ٥١.

[٢] نهج البلاغة: ٦٦١.

[٣] ينظر في ذلك: رصف المباني في شرح حروف المعاني: ١٠٠، ومغني اللبيب:٦٥.

الواو العاطفة تفيد الجمع وليست هنا كذلك؛ لأنَّ الكلام لأحد الشيئين وبهذا كان العطف بـ(إمّا)[1]، ولها معانٍ متعددة منها التفصيل[2]، وقد وردت بهذا المعنى في النَّص السابق؛ فالإمام وظَّف دلالة الأداة في الحقيقة التي انطلق منها، والرعية بهذا المفهوم لا تخرج عن أحد قسمين فهم أخوة لولي الأمر في الدين أو نظراء له في الإنسانية وعليه أن يتعامل معهم على وفق هذا المفهوم، وبعد أن يذكر حق الرعية في معاملتهم برفق ورحمة ومساواة ينتقل إلى بيان حق الله فيقول: "**ولا تنصبنّ نفسك لحرب الله؛ فإنَّهُ لا يَدْيَ لك بنقمتهِ، ولا غنى بك عن عفوهِ ورحمته**"[3]؛ فالإمام في النص السَّابق ينهى عامله عن حرب الله وقد تطابق النَّص المتضمن النهي مع مفهومه بلاغيا؛ فهو:"قول ينبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء"[4]؛ إذ إنَّ الإمام(ع) وهو الخليفة ينهى عامله عن حرب الله، وهذا المفهوم له تأويلات متعددة من أهمها عدم ظلم الرعية؛ فالمعنى المستلزم لحرب الله هو ظلم الرعية باعتبار أنَّ الخطاب موجَّه لولي الأمر، و(اليدي) أصل(يد) التي تدل على(القوة)[5]، فلا قوة للحاكم مهما بلغ ملكه أمام نقمة الله تعالى وهذه حقيقة انطلق منها الإمام في حجاجه.

ومن الحجاج المنطلق من الحقائق في الخطاب نفسه قوله(ع): "**أنصف الله وأنصف النَّاس من نفسك ومن خاصَّة اهلكَ، ومن لك فيهِ هوىً من رعيتك؛**

---

[1] ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٥٢٩.

[2] ينظر: مغني اللبيب: ٦٦.

[3] نهج البلاغة: ٦٦٢.

[4] الطراز: ٣/١٥٦.

[5] ينظر في ذلك: لسان العرب (يدي): ١٥/ ٤١٩-٤٢٢.

فإنّك إلاّ تفعل تظلمْ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عبادهِ، ومن خاصمهُ الله أدحض حجتهُ، وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب"[1]؛ فالحجاج انطلق من جملة حقائق فلسفية؛ فالحاكم الذي لا ينصف الله، ولا الناس من نفسهِ ومن يتصل بهِ من أهلهِ ظالم للرعية، ثم يتبع ذلك بحقيقة أخرى هي أنَّ الله تعالى سيكون خصما له، ومن خاصمهُ الله لا حجَّة له أو عذر يوم القيامة، وهو في حالة حرب لله تعالى حتى يتوب، والمفهوم الدلالي للنص يرتبط بالنص الذي سبقه والذي نهى فيه الإمامُ ولاة الأمر عن محاربة الله وهو ما يستلزم دلاليا ظلم الرعية، وقد استعمل الإمام صيغة الأمر التي هي: "صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء"[2]، في حجاج عامله ومثّل تركيب الأمر النتيجة المطلوبة المرتبطة بسلم حجاجي بعدها بفاء السببية مع توكيد الحجج بـ(إنَّ)؛ فعدم الإنصاف يعني ظلم الرعية، وظلمهم يعني مخاصمة الله من دون النظر إلى خصومة العباد وهو ما يعني أنَّ الظالم عليه أن يعي أنه يحارب الله تعالى وأنَّ الله سينتقم منه.

ومن الحِجاج المنطلق من الحقائق في الخطاب نفسه، قوله(ع): "**وإياكَ والإعجاب بنفسك، والثقةَ بما يعجبُكَ منها، وحبَّ الإطراء؛ فإنَّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسك ليمحقَ ما يكون من إحسان المحسنين"**[3]؛ إذ بني الحجاج على أسلوب التحذير الذي يتأسس بوجود محذَّرٍ معطوف عليه محذَّرٌ

---

[1] نهج البلاغة: ٦٦٣.

[2] الطراز: ١٥٥/٣.

[3] نهج البلاغة: ٦٨١.

منه وقد نُصِب(المحذَّر) بفعل مضمر[1]، فالإمام يحذِّر عامله من الإعجاب بما لديه ويعطف عليه حب المدح والحجّة بعد ذلك المفهوم مؤكدة، وهي حقيقة أنَّ الزهو والإعجاب يمكّنان الشيطان من النفس وهو ما يضيع أيَّ عمل صالح يقوم به الإنسان وبخاصة وليُّ الأمر؛ لأنّه يؤدي إلى الاستكبار عن سماع نصح الآخرين.

وقد وردت نصوص أخرى ضمن الخطاب نفسه انطلق فيها الإمام(ع) من الحقائق الكونية أو السنن الإلهية التي تحكم حركة المجتمع، وقد وردت في حجاجه الأشتر؛ لكونه سيتصدى لإمارة مصر والحجاج السابق إنّما للولاة بما لهم من تأثير في حركة الأمة وهو ما ميز ذلك الخطاب من غيره مما درسناه سابقا، والسنن الاجتماعية قوانين تحكم المجتمع؛ وهذه السنن تتصف بالكونية، ويسير فيها الوجود الإنساني بغض النظر عن عقيدته إلا ما كان خاصا بالمؤمنين أو الكافرين[2]، ومن الحقائق الاقتصادية التي انطلق منها الإمام في حجاجه قوله(ع): **"وليكن نظرُك في عمارة الأرض أبلغَ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأنّ ذلك لا يُدرَك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمرهُ إلا قليلا"**[3]؛ فالإمام(ع) يرى وجوب قيام الوالي بإعمار الأرض قبل أن يلزم الفلاح بجباية الخراج معلِّلا ذلك بحقيقة اقتصادية هي أنّ جباية الخراج تتوقف على عمارة الأرض، فلكي تعطيك الأرض خيراتها عليك أن تعمرها، ثم يشير الإمام إلى ما يرقى إلى سنّةٍ إلهية،

---

[1] ينظر في ذلك: شرح الرَّضي على الكافية: ١/٤٨٠، وهمع الهوامع: ٣/٢٤-٢٥.

[2] ينظر: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: ٢٧.

[3] نهج البلاغة: ٦٧٢.

أو حقيقة تاريخية هي أنَّ جباية الخراج وإكراه الرعية على دفع الأموال من غير أن يقوم الخليفة وعماله بما يجب عليهم من إصلاح الأرض ستؤدي إلى خراب البلاد وإهلاك الرعية، وقد أكّد الحجّة بالتوكيد بالأداة وبأسلوب القصر الذي يلزم المتلقي بالاقتناع بما يطرح عليه من أفكار فعدم إدراك الخراج إلا بعمارة الأرض يجعل ولي الأمر يكرّس جهده في توفير مستلزمات إعمارها إن كان حريصا على ذلك، أمّا لو اكتفى الإمام بطرح ذلك المفهوم من غير استعمال التوكيد بالقصر كأن يقول في استجلاب الخراج: ذلك يدرك بالعمارة، فإنَّ هذا يعني دلاليا أننا نستطيع إدراك ذلك بعمارة الأرض وغيرها، وبذلك حصر الإمام الحصول على الخراج بما يجب على الحاكم أن يؤديه.

ومن الخطاب الحجاجي الذي يعدُّ جزءاً من السنن الإلهية، قوله(ع): "**إيّاك والدِّماءَ وسفكَها بغير حلِّها؛ فإنّه ليس شيءٌ أدعى لنقمةٍ ولا أعظمَ لتبعةٍ، ولا أحرى بزوال نعمةٍ، وانقطاع مدَّة من سفك الدِّماء بغير حقِّها، واللهُ سبحانه مبتدئٌ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدمّاءِ يوم القيامة، فلا تقوينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام؛ فإنَّ ذلك مما يضعفهُ ويوهِنهُ، بل يزيلهُ وينقلهُ**"[1]؛ فالإمام ينطلق في حجاجه من حقيقة أنَّ سفك الدماء هو أسرع ما يزيل المُلك، فلا يدوم حكم بالظلم وأهم مظاهر الظلم هو قتل الأبرياء، وقد وظّف الإمام أسلوب التحذير للنهي عن سفك الدماء؛ فبعد أن ذكر الإمام أنّ انهيار النظام الاقتصادي للبلد يأتي من إرهاق العباد بالضرائب من دون قيام المؤسسات الحاكمة بما يلزم من إصلاح الاقتصاد انطلق الإمام في حفظ حياة المجتمع من حقيقة أخرى فضلاً عن الجانب الاقتصادي بل لعلّها تفوقه وهي قضية سفك

---

[1] نهج البلاغة: ٦٨١.

الدَّماء بغير حقٍّ؛ فالسُّنة الإلهية التي طرحها عليٌّ(ع) هي أنَّه ليس كسفك الدِّماء بغير حق سببٌ في زوال النعم وحلول النِّقم بالمجتمعات، وأول ما يبدأ الحساب بهِ يوم القيامة هو القضاء في ما سُفِك من دماء، وهنا أشير إلى مسألة مهمة قادتني إليها الصيغة المطروحة في النص أعلاه فيما يتعلق بـ(سفك الدِّماء)؛ وهي استعماله صيغة(تفاعل) في التعبير عنها فقال: (تسافكوا من الدِّماء)، وهذه الصيغة تدل على معان متعددة منها المشاركة[1]، واستعمل الإمام هذه الصيغة؛ لإقناع جمهور ولاة الأمر بأنَّ الله سيقاضي الطرفين اللذين يتقاتلان، ومجرد الوقوف بين يدي الله للمساءلة عن الدماء ينبغي أن تكون رادعا عن سفكها وهذه القضية من مقتضيات النَّص؛ فالحقيقة التي ينطلق منها أنَّ سفك الدماء لا يقوي السلطان بل على عكس وذلك هو من أهم أسباب ضعفهِ ومن ثم زواله، ويرتبط بما ذكره الإمام من السنن الإلهية في زوال الحكم قوله(ع): "**وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم؛ فإنَّ الله سميع دعوة المظلومين، وهو للظالمين بالمرصاد**"[2]؛ فالنَّص يخدم نتيجة مضمرة تمثِّل المفهوم الدلالي منه وهي حرمة ظلم ولاة الأمور الرعيةَ، وقد ترابطت الحجَّتان فيه برابط السببية مع توكيد الجانب الحجاجي الثاني من النَّص بـ(إنَّ)، والحجَّة الأولى جرى تعزيزها بالثانية؛ فالإقامة على الظلم تسرع بزوال النعمة من البلد وتعجيل نقمة الله، ولم يكتف الإمام بذلك بل رسَّخ مفهوم حرمة الظلم بحجة أخرى هي أنَّ الله يسمع دعوة المظلوم وهو للظالم بالمرصاد.

---

[1] ينظر في ذلك: الكتاب: ٢/ ٢٣٩، وشرح المفصل: ٧/ ١٥٨.

[2] نهج البلاغة: ٦٦٣.

وبذلك الحجاج المبني على الحقائق والسنن الإلهية أراد الإمام إقناع الأشتر بما له من منصب سياسي ومن خلاله جمهور ولاة الأمور الذين سيصلهم كتاب الإمام(الجمهور الكوني) بضرورة قيامهم بما يلزم في حفظ حقوق الرعية والابتعاد عن صور الظالم كافة، وعدم اتخاذ بطانة سوء، وتعهُّد أسر كل طبقةٍ من طبقات المجتمع بما يصلحها ويبعد عنها الفساد والظلم.

ومما يعد امتدادا للخطاب السابق ما ورد في كتابهِ(ع) إلى عمالهِ على الخراج؛ ففيه انطلق الإمام من جملة حقائق؛ نظراً لعظمة المسؤولية الملقاة على عاتق هؤلاء في حفظ الأمانة ومنه قوله: "**فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم؛ فإنَّكم خزّان الرعية، ووكلاء الأمَّة، وسفراء الأئمة**"[1]؛ فالإمام يأمرهم أن لا يقدموا منافعهم ومكاسبهم على منافع الرّعية وقد عبّر عن ذلك بإنصاف الرعية من(نفس) الوالي؛ لأنَّ الولاة غالبا ما يظلمون الرّعية للحصول على الأموال، وقد اقترنت تلك الحقيقة برابط السببية الذي دخل على الحجّة المؤكدة.

وهكذا نلاحظ أنَّ الخطاب الموّجه إلى الخلّص من شيعته انطلق من جملة حقائق منها ما كان دينيا وفلسفيا ومنها ما يدخل في باب السنن الاجتماعية على أنَّ الانطلاق من الحقائق وإن كان سمة غالبة في الخطاب الحجاجي الموجّه إلى أتباع الإمام إلا أنني رصدت بعض الخطابات الحجاجية التي انطلق منها الإمام(ع) من الوقائع؛ ففيها استهدف الإمام إقناع المتلقي وكان هذا الإقناع يقتضي توظيف الوقائع؛ نظرا لما تتصف به من قوة حجاجية فهي غير قابلة للدحض والشّك فضلا عن أنَّ هذه الخطابات كانت تناقش أفكارا تتعلق بأعداء

---

[1] نهج البلاغة: ٦٥٨.

الإمام وما يطرحونه من أفكار وهذهِ المناقشة وطرح الأفكار البديلة عنها اقتضت الاستناد إلى الوقائع، ومن ذلك ما ورد في كتاب الإمام(ع) إلى أخيهِ عقيل بن أبي طالب جوابا عن كتاب بعثه إليهِ بخصوص جيش بعثهُ الإمام إلى بعض الذين أرسلهم معاوية للإغارة على ولايات الخلافة[1]؛ قال:"**فدع عنك قريشا وتركاضهم في الضلال، وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التِّيه؛ فإنَّهم قد أجمعوا على حربي كأجماعهم على حرب رسول الله (ص) قبلي، فجزت قريشا عني الجوازي؛ فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أمي**"[2]؛ فالإمام(ع) انطلق من الوقائع في إقناعهِ عقيلا عبر صيغة الأمر بوصفه الخليفة أولا والإمام ثانيا بضرورة التصدي لهم وعدم الخضوع لاستكبار معاوية وأبناء الطلقاء؛ لأنَّهم يركضون في التِّيه والشِّقاق وهذا هو واقعهم فهم بالأمس القريب حاربوا النبي(ص)، واليوم يحاربون عليا(ع) قاطعين بذلك رحمه منهم، وقد سلبوه حقَّه في الخلافة، والحجاج مبدوء بالنتيجة وتلتها الحجة مقترنة بفاء السببية مع توكيد عنصر الحجاج بمؤكدينِ هما(إنَّ)، و(قد) لبيان مدى إجماعهم على حربه(ع).

ومن الخطاب الحجاجي المنطلق من الوقائع ما ورد في كتابهِ(ع) إلى أهل مصر عندما ولَّى الأشتر عليهم؛ ففيه يقول الإمام(ع):"**قد بعثت إليكم عبدا من عبادِ الله عز وجل، لا ينام أيَّام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشدَّ على الفجَّار من حريق النار**"[3]؛ فالحجاج انطلق من الواقع المؤكَّد بـ(قد) الداخلة على فعل ماضٍ، فمالك الأشتر(لا ينام أيام الخوف) وهذا تعبير

---

[1] ينظر في ذلك: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢/ ١١٨- ١١٩.

[2] نهج البلاغة: ٦٣٧.

[3] المصدر نفسه: ٦٣٩.

مجازي عن عدم سكونه وإخلاده للراحة أيام الخوف والشدة، وهو أشدُّ على الأعداء من حريق النار، وهاتان الصفتان تمثلان واقع الأشتر، وهنا يحاول إقناع جمهور أهل مصر بلزوم طاعته، والمقتضى الدلالي للنص أنَّ هناك من يضعف عند مواجهة الأعداء ويخون الأمانة أمّا الأشتر رحمه الله فأول صفة له أنّهُ(عبدٌ لله) بحسب ما وصفه الإمام فليس كغيره من عبيد الشهوات والسلطة ثم لا تأخذه في الله لومة لائم، وهنا يقتضي النص دلالة أخرى انطلقت من الوقائع التي يسوقها الإمام وهي أنَّ أعداء الإمام(فجّار)، و(الفجور): (الميل عن الحق)[1]، وأعداء الإمام مالوا عن الحق وهو طاعة الخليفة، ويظهر أنَّ الفجور لا يطلق لمجرد الميل البسيط عن الحق؛ لأنّها تقترن معجميا بالفسق، ومن كان فاجرا يجب أن يُحارَب، ويجب على المؤمنين في الوقت نفسه أن ينصروا من يحارب الفجار، وبذلك انطلقت حجاجية النّص من الوقائع.

ومن الخطاب الحجاجي المنطلق من الوقائع ما ورد في كتاب له(ع) إلى زياد بن أبيه عندما بلغه أن معاوية يريد خديعته باستلحاقهِ، فقال: "**قد عرفتُ أنَّ معاوية كتب إليك يستزلُّ لبّك، ويستَفلُّ غربَكَ، فاحذرهُ؛ فإنّما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفهِ، وعن يمينه وعن شماله؛ ليقتحم غفلتهُ، ويستلِبَ غِرّتَهُ**"[2]؛ فالإمام(ع) انطلق في النص المذكور من واقع حدث مع زياد استدعى تنبيهه إلى عدم الانجرار وراء ألاعيب معاوية؛ لأنّه(شيطان) وأكّد الإمام ذلك المفهوم بالقصر بـ(إنما) وحصر بذلك دلالة النص حجاجيا، فهل يصح الاستماع إلى الشيطان؟، الجواب(لا)؛ والانتساب إنّما يكون نتيجة عقد

---

[1] ينظر: لسان العرب(فجر): ٥/ ٤٧.

[2] نهج البلاغة: ٦٤٦- ٦٤٧.

شرعي لا أن يكون عن طريق السفاح، وقد مزج الإمام(ع) الواقع الذي انطلق منه بحقيقة معاوية موظّفا أهم صفة الشيطان وهي غوايته الإنسان من جميع السُبل التي تتاح له، و(يستفلّ غَرْبك) أي: يطلب فلّ حدّتك؛ لأنّ(الغَرْب): (الحدّة)[1]، و(يستلب غرّته) أي أخذ ما يستدل على غفلته؛ فالغِرَّة: (الغفلة)[2].

ثم انتقل الإمام إلى واقعة أخرى؛ ليقنع بها زيادا بعدم الاستماع لمزاعم معاوية، فقال(ع): "**وقد كانت من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتةٌ من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان، لا يثبت بها نسبٌ، ولا يستحق بها إرثٌ**"[3]، فالإمام(ع) يشير إلى أنّ أبا سفيان هو من طرح فكرة أنّ زياد ابن له؛ إذ رآه يخطب يوما في مجلس الخليفة عمر وأعجب بخطابته بعض الحاضرين، فقال أبو سفيان: "إنّه لقرشيّ، وإنّي لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال علي(ع): ومن هو؟ قال: أنا"[4]، فالإمام هنا يذكرهُ بتلك الحادثة التي ربما بقيت آثارها في نفس زياد، وقد وظّف الإمام الواقع الشرعي في رفض انتساب زياد لأبي سفيان؛ فالأنساب إنّما تثبت، وبحسب حديث النبي(ص) بالزواج لا الزنى، يقول النبي(ص): "الولد للفراش وللعاهر الحجر"[5]، وما فعله معاوية كانت مخالفة للسنة النبوية، ومقتضى النص أنّ معاوية قد استثمر هذه الدعوى

---

[1] ينظر: لسان العرب(غرب): ١/ ٦٤١.

[2] ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية(غرر): ٢/ ٧٦٨.

[3] نهج البلاغة: ٦٤٧.

[4] الاستيعاب: ٢٥٥.

[5] مسند الإمام محمد الشافعي: ١/ ١١١٥، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ٩/ ٤١٤.

للحصول على تأييد زياد أو تحييدهِ على أقل تقدير في المواجهة مع علي(ع) ومن بعده الحسن(ع)، ومسألة نسب زياد وتسميته بـ(ابن أبيه) تثير في نفس المتلقي سؤالا يتعلق بكيفية تولّي شخص لا يُعرَف والدُه منصب الولاية أو إدارة بعض شؤون الأمصار ولاسيما البصرة، وهو ما يستلزم الإجابة عن هذا التساؤل؛ فقد حاول بعضهم تصحيح نسب زياد إلى أبي سفيان؛ لتسويغ توليه بعض أمور الولايات، وأنّ قضية التسمية بـ(ابن أبيه) إنما كانت نكاية من أتباع الإمام علي وشيعته بزياد الذي ترك ولاء الإمام(ع) وتولّى معاوية، والملاحظ أنّ ما يمكن أن يدعى من نكاية جمهور الشيعة بزياد لا يصح تاريخيا لأنّ لزياد نسب معروف عند القبائل ثم جاء زياد نفسه وأنكر نسبه وانتسب إلى رجل آخر مثبتا فكرة زنى أبي سفيان بأمه لأنها من البغايا؛ فنسب زياد عند تولّيه بعض أعمال الأمصار أيام الخلفاء قبل معاوية كان إلى (عبيد الثقفي)، وعبيد هذا كان مولى للحارث بن كلدة الثقفي الطبيب المشهور في زمنهِ فادعاهُ ونسب إلى ثقيف[1]، وبهذا النسب عُرِف في خلافة الإمام(ع) ومن سبقه حتى كرّر معاوية ادعاءاته بعد استشهاد الإمام فقبلها زياد ممنيا نفسه بالحصول على الخلافة بعد وفاة معاوية فصار ابنا لأبي سفيان وانتفى من أبيه عبيد الثقفي، ومسألة تولّيه بعض أعمال الولايات لم تكن خاصة بخلافة الإمام(ع)؛ فقد استعمله الخليفة عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة، وكان ممن يتصف بحسن التدبير لما يستعمل عليه[2]، وقد انطلق الإمام من تلك الواقعة التي حدثت في زمن الخليفة

---

[1] ينظر في ذلك: الاستيعاب: ٢٥٤، وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٦/ ١٧٩-١٨٠.

[2] ينظر: الأخبار الطوال: ٢٢١، والاستيعاب: ٢٥٥.

عمر للردِّ على معاوية وإقناع زياد بأنَّ مسألة انتسابه إلى أبي سفيان ليســت إلا كذبة وحتى لو صحّت مثل هذه الأقوال فإنّها لا يترتب عليها أثر شرعي.

وختاما وبدراسة أمثلة الخطاب الحجاجي العام وقفت على مقدمات الحجاج فيه فكانت تتوزع على أهم عنصرين منها هما الحقائق والوقائع، وقد انطلقت بعض النصوص من المزج بين الحقائق والوقائع، ويبدو أنَّ مقام الخطاب استدعى ذلك التماهي بينهما، وفي موارد أخرى مُزِجت الوقائع بالافتراضات وتصدى الإمام للإجابة عنها عندما طرح تلك الافتراضات ليرسّخ بذلك المفاهيم الحجاجية، وكانت الحقائق الدينية والفلسفية في ذلك الحجاج طاغية؛ لكون هذه الخطابات موجهة إلى جمهور عام لكن عندما كان الأمر يتعلق ببيان موقف الإمام من الأطراف الرافضة لخلافته (ع) وكشف كذب ادعاءاتهم وإقناع الجمهور بالأطروحات البديلة كان الحجاج يستند إلى الوقائع فضلا عن الافتراضات ليصل إلى النتيجة المطلوبة وهي التصدي لأعداء الخلافة، وتغيير ما يحصل من قناعة عند الجمهور بآراء الخصوم.

وتأسيسا على ما ذكرهُ (برلمان وتيتيكاه) من أنَّ منطلقات الحجاج أو مقدماته ترجع في مجملها إلى ضربين، هما(الواقع) ، و(المفضل)[1]، نرى أنَّ الحجاج في نهج البلاغة سواء ما توجّه إلى جمهور عام أم جمهور خاص انطلق من القسم الأول وهو المتعلق بـــ(الوقائع والحقائق والافتراضات)، وهو ما يكشف لنا أنَّ الخطاب الحجاجي في نهج البلاغة هو من أقوى أنماط الحجاج في تراثنا الفكري.

---

[1] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣١٣.

وفيما يتعلق بالحجاج الموجّه إلى الجمهور الخاص من أعدائه نجد أنّ الاستناد إلى الوقائع قد مثّل سمة غالبة في حجاجه لجمهور أعدائه؛ لما تتصف به من قوة في إقناع الجمهور بما يطرحه الإمام لاستناده إلى أحداث وقعت، وقد وردت في سياق الوقائع افتراضات أجاب الإمام عنها، كما تمّ الانطلاق من الحقائق في حجاج جمهور الأعداء وقد امتزجت أحيانا مع الوقائع بحسب ما يقتضيه المقام.

أمّا الخطاب الموجّه إلى أتباعه فكان يتسم بالانطلاق من جملة حقائق وسنن إلهية ولاسيما الحجاج الموجّه إلى الأشتر بوصفه واليا على مصر، وقد طرح تلك السنن الإلهية المتعلقة بالنهي عن الظلم بمستوياته المختلفة كسفك الدماء، وجباية الخراج بغير حق، وتفضيل الخاصة على العامة؛ لأنّها تؤدي إلى انهيار الحكم وزواله، كما انطلق حجاجه(ع) من الوقائع عندما كان يتصدى لتفنيد ادعاءات أعدائه ولاسيما معاوية في الرسائل بينهما، فكان كلٌّ منهما يعرض الحجج التي تؤيد ما يطرحه من أفكار، ويحاول إقناع جمهور الطرف الاخر بتبني أطروحاته، فكانت الوقائع أهم تلك المنطلقات؛ فهي غير معرضة للدحض، والشك[1]، وبهذا انبنى الخطاب الحجاجي المعارض لما يطرحه الخصوم في مجمله على(الوقائع)؛ لترسيخ ما يراه(ع) عند من يتبعه.

وامتزجت منطلقات الحجاج بعوامل وروابط حجاجية تربط النتائج بالحجج، وهذا الأمر يدل على اهتمام الإمام بترسيخ ما يطرحه عبر منطلقات فكرية، وأدوات لغوية، كما تأسست الافتراضات على روابط الشرط، وقد وردت بعض تلك الافتراضات في سياق الوقائع المؤكدة وبذلك تداخلت أدوات الحجاج

---

[1] ينظر: الحجاج، مفهومه ومجالاته: ٢/ ١٩٣ .

بتداخل المنطلقات، وهذا الأمر يؤكد ما ذكرته سابقا من أنَّ خطاب نهج البلاغة يتصف بطاقة حجاجية عالية، وهذهِ الطاقة تأتي من قوة المنطلقات في خطابه(ع) فضلا عن البنية اللغوية للنص من عوامل، وروابط، وألفاظ اســتلزمت معــانٍ ضمنية تأسست على الدلالات العرفية للألفاظ.

الخاتمة

بحثت لسانيات الحجاج في أهم خطاب في تراثنا الفكري بعد القرآن الكريم، والخطاب النبوي الشريف؛ فدرست آليات الحجاج في نهج البلاغة عبر محوريه، اللغوي، والفكري، فكان أن بحثت مستويين من مستويات الدرس اللساني في الخطاب الحجاجي، هما: المستوى النّحوي، والمستوى التّداولي، ووقفت على عناصر رئيسة فيهما، ثم بحثت قضية تعد من أهم ما طرحه (برلمان) في نهضة الحجاج، وهي المنطلقات التي ينطلق منها الخطيب في محاولته إقناع الجمهور بما يطرحه من أفكار، ونستطيع أن نجمل النتائج بما يأتي:

١. دراسة أيّ خطاب حجاجي تقوم على محورين لا يصح أن يُغفَل أحدهما، هما المستوى اللغوي، والمستوى الفكري؛ فالطاقة الحجاجية للخطاب يتماهى فيها الحجاج المؤسّس على البنية اللغوية للنص مع مقدمات الحجاج التي تدل على قوته في إقناع الجمهور، وبذلك تمت دراسة هذين المستويين في حجاج نهج البلاغة.
٢. يتصف خطاب النهج بظاهرة تميّزه من سائر النُّصوص في تراثنا، هي تضمنه أهم نمطين لاستعمال اللغة يقربان من الوحدتين الحجاجيتين الرئيستين اللتين أشار إليهما أرسطو في بحثه آليات الإقناع، وهما:الخطب، والمناقشات الجدلية؛ فقد تمثلت الخطب بكلمات الإمام(ع) للجمهور المتلقي للحجاج، أمّا كتب الإمام ورسائله فتقترب من المناقشات الجدلية.
٣. كلمات الإمام(ع)، وكتبه محل الدراسة الحجاجية لا تتوقف عند حوار أعدائه (ع)، بل تتجاوز ذلك إلى حجاجه أتباعه؛ فالحجاج في الدراسات الحديثة يعني الحوار الإقناعي وهذا الحوار لا يختص بالأعداء بل يتعلق فضلا عن

ذلك بالأتباع والأصدقاء؛ لأن الإمام(ع) في كلا الحالين يناقش أطروحة ما مستهدفا إمّا تثبيتها وإمّا نقضها وترسيخ أخرى، ولا يجعل اهتمامه ينصب على الجمهور أو الشخص المتلقي إلا بالمقدار الذي يقتضيه المقام، فحتى في الحجاج الموجّه إلى أتباعه أو الجمهور(المحايد) كان يتصدى لما يطرحه الآخرون من أفكار، أو يؤسس لأطروحات تتعلق بالحكم أو علاقة الإنسان بربه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فهذه المباحث كلها تدخل في صميم عملية الحجاج، والحجاج بهذا المفهوم هو أوسع نظرة من الجدل المختص بالخصومة .

٤. مفهوم الحجاج في الدراسات الحديثة يختلف عما نجده عند القدماء؛ فقد ترادف عندهم مع (البرهان)، و(الجدل) وهذان المفهومان غالبا ما وظّفا وهما يحملان مصطلح (الحجّة) في حوار الآخر المخالف أو المعادي أحيانا، لكننا نجد الدراسات الحديثة قد أثبتت أنّ الحجاج هو حوار يستهدف إقناع المتلقي سواء كان مخالفا أم محايدا أم من مؤيدي الخطيب؛ فلم يعد مفهومه يرادف(الجدل) أي (شدة الخصومة) بل اتسع ليشمل مختلف أنواع الحوار مع الآخر، وكذلك الحال مع مفهوم (البرهان) الذي يُعنى بالضروريات بخلاف(الحجاج) الذي يتسع ليشمل(الممكن) وبذلك ينحصر مفهوم(البرهان) بالعلوم التطبيقية أمّا مفهوم(الحجاج) فمجاله العلوم الإنسانية فضلا عن العلوم التطبيقية، ويقوم(الحجاج) على ذكر الأمثلة التي تؤسّس للواقع الذي يريده الخطيب بخلاف(البرهان) الذي يبتعد عن ذكر الأمثلة ويقوم على الاستنباط، و(الحجاج) يرتبط بالذات الإنسانية وبمقام الخطاب على نحو كبير بخلاف (البرهان) الذي يستقلُّ عن ذات المتكلم والمخاطب ومقام التلفظ وهو بذلك قوانين عامة.

٥. الخطابة القديمة تختلف عن (الحجاج) في أنَّ هدفها الإقناع بكـل الوسـائل حتى المغالطة السفسطائية منها، ولصورة الخطيب أثر مهـم فـي عمليـة الإقناع، والجمهور خاص في الخطابة القديمة وليس جمهورا كونيا مثلما نجد ذلك في الخطابة الجديدة(الحجاج)، والجمهور(سلبي) فهو لا يتفاعـل مـع الخطيب بل يتلقى الأطروحة منه بخلاف الجمهـور المخاطـب بالحجـاج فهو(إيجابي) متفاعل؛ فقد يجيب عن تساؤل يطرحه الخطيـب أو يتسـاءل فيجيب الخطيب؛ واقترنت الخطابة القديمة بالسفسطة التي ترى أنَّ الإنسـان هو المقياس فلا خير أو شر إلا ما يتعلق بملذات الإنسان ومصالحه، فحاول الفلاسفة الردَّ على مغالطاتهم وبيان أوجه الخطأ في أقيسـتهم التـي تـوهم الجمهور وتظلِّله والتي ترجع في جانب كبير منها إلى ما تحدثه الألفاظ في المعاني من لبس وغموض نتيجة لاشتراك معاني مختلفة في لفظ واحـد؛ إذ يستعمل السفسطائي دلالة من هذه الدلالات ليؤسِّس عليها خطابه المغـالطي فضلا عن توظيف التركيب النحوي للجملة بما يخدم تلك المغالطات .

٦. نهوض الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بعد تقلُّص دورها عبـر العصـور بسبب (اليقينية) التي سيطرت على طرق التفكير ولاسيما العلوم الإنسـانية؛ لأن الاعتقاد باليقين قضى على مساحة الحوار وإبداء الآراء، فـلا صـوت مقابل ما يُعتقَد أنَّه الحق، وانشغلت الدراسات ولاسيما اللغوية منها على مدى القرون التي ضَعُف فيها أثر الخطابة بالبحث في أسلوبية النص وعناصـره اللغوية من غير أن تتجاوز ذلك إلى البحث في حجاجيته، والنتيجة المطلوبة منه، وأثر البناء اللغوي في تماسك النص بما يتضمنه من أفكار تؤدي إلـى إقناع الجمهور؛ إذ لا يستطيع الخطيب أن يقنع الجمهور بفكرة ما من غيـر أن يسوقها في خطاب متماسك.

٧. ظهور الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بجهود (برلمان)، ومفهومه الحجاجي هو الأساس الذي انطلقت منه مفاهيم الحجاج الأخرى وإن كانت تعالج فكرة (الحجاج) بطرق مختلفة، وقد طرح (برلمان) مفهوم(المنطق غير الصوري) الذي يأخذ بالحجج سواء القوية منها أم الضعيفة، والنتائج المطلوبة منها، وطريقة بناء الخطاب الحجاجي في مقابل(المنطق الصوري) المبني على نتائج تدل عليها مقدمات خاصة في جمل يستقل بعضها عن بعض فلا يوجد خطاب يتضمن مقاما خاصا به، وسلسلة جمل متتابعة ضمن الدراسات المنطقية، وقد اقترح فلسفة اللغة الطبيعية بدلا من اللغة المنطقية، ومن أهم ما قدّمه(برلمان) هو إعادة شمل(الحجاج) بعد أن توزّع على مباحث(الفلسفة، والجدل، ونظرية الأدب)، فقد جمع هذه الأقسام الثلاثة ضمن مفهوم(الحجاج) مع اهتمام خاص بـ(اللوغوس) الذي يتعلق بما يُطرَح من أفكار عبر النص لإقناع الجمهور.

٨. من أهم ما طرحه(برلمان وتيتيكاه) هو دراسة منطلقات الحجاج؛ والمنطلقات فكرة مشتركة بين أفراد الجماعة التي ينتمي لها الخطيب، وأهم المنطلقات هي(الوقائع، و الحقائق)، ويكتسب هذان المنطلقان أهميتهما من كونهما غير قابلين للدحض والتشكيك؛ لأنّ(الوقائع) أحداث وقعت في المجتمع، و(الحقائق) قوانين يؤمن بها أفراد المجتمع، وتأتي(الافتراضات) في سياق(الحقائق،والوقائع) لتقوية الحجاج، وقد بحث(برلمان) فضلا عن المنطلقات تقنيات عرض الحجج من طرق شبه منطقية، وأخرى مؤسِّسة لبنى الواقع، ومؤسَّسة عليه، ويعد(التشبيه التمثيلي) أقرب قسم من أقسام(التشبيه) إلى مفهوم(التمثيل) الذي ذكره(برلمان) .

٩. مفهوم الحجاج عند(ديكرو) يقع في صميم الدراسات التداولية، ولسانيات الخطاب، لأنّه بحسب ما أرى يرتبط بهذه الدراسات بثلاثة محاور رئيسة، الأول دراسته الألفاظ الحجاجية ولاسيما الروابط التي تربط بين الجمل في الخطاب والتي تكون حججا أو حججا ونتائج ودراسة نظام الربط النحوي هي إحدى أسس لسانيات النص، والمحور الثاني تأثره بنظرية الأفعال الكلامية وقد طرح في سياق ذلك وجود فعلين أو حدثين ينجزان في عملية الحجاج هما(حدث الاقتناع)، و(حدث الاقتضاء)؛ فالحدث المنجز عبر عملية الحوار بين الخطيب والجمهور هو الاقتناع بما يُطرح من أفكار وفي الوقت نفسه يقتضي الخطاب دلالة معينة تنجز عند طرحه، أمّا المحور الثالث فكان طرح(ديكرو) لمبدأ(التداولية المدمجة) وهذا المبدأ يؤمن باندماج المستوى التداولي بالمستوى الدلالي، ومشروع (ديكرو) يمثل حالة وسطى بين اتجاهين في الدراسات اللسانية الأول دلاليٌ يرفض عدّ السياق عنصرا من عناصر بيان دلالة النص ويكتفي بالدلالة الوضعية للألفاظ، والثاني يعدُّ مقام الخطاب وسياقه محورا رئيسا في بيان دلالة النص؛ فـ(التداولية المدمجة) بحسب مصطلحها تعني اندماج دراسة التداولية مع الدلالة أي الأخذ بمقام التلفظ والسياق في توجيه دلالة اللفظ ضمن الخطاب الذي يرد فيه.

١٠. مفهوم (مايير) متأثّر إلى حد كبير بما طرحه (برلمان) من خلال الحديث عن المنطق غير الصوري واهتمامه بالركائز الفكرية للحجاج، ويقوم هذا المفهوم على حركة (السؤال والجواب) أساسا في الحجاج سواء في عنصر الجدل أم الخطابة، وقد عبَّر عن(الجواب) بـ(المظهر)، و(التساؤل) بـ(المضمر)، وهذا التقسيم ينطلق من فرضية كون

الخطاب(إخباريا) غير مبدوء بأداة(سؤال)؛ فإن كان الخطاب تساؤلا سيكون ذلك التساؤل هو الجانب(المظهر) من الخطاب، و(المضمر) هو الإجابة عنه؛ وتبقى هذه الثنائية موجودة حتى فيما يتعلق بالنصوص التي تتضمن التساؤلات والإجابة عنها؛ فالمضمر فيها هو الإقرار والعمل بموجب ذلك الإقرار.

١١. الشروط التي ذكرها اللسانيون للوقوف على حجاجية النص تتطابق على نحو كبير مع خطاب نهج البلاغة ولاسيما الخطب والكتب؛ فالإمام انطلق من مقتضيات الحال ومن المعارف المشتركة في محاولته إقناع الجمهور واستعمل أدوات اللغة بما يخدم هذا التصور؛ وبناء على ذلك كانت الألفاظ المستعملة ذات دلالة واضحة يفهمها الجمهور، وليست من قبيل المشترك اللفظي لأنّه يفقد الخطاب طاقته الحجاجية، كما إنّ من صفات الحجاج الناجح هو الادعاء بالحقيقة وتقديم الأدلة التي تدعم ذلك الادعاء، لذلك كان حجاج الإمام(ع) يتصف بالقوة في اعتماد أقوى المنطلقات، فضلا عن اتصاف الحجاج في نهج البلاغة بأهم صفات الخطاب الحجاجي، وهي خاصية التفاعل التي تنتج عن مبدأي الادعاء والاعتراض؛ فالإمام(ع) كان في مواطن متعددة من حجاجه يفترض بعض ما يطرحه الخصوم في(تزاوج) في ذات الخطيب المحاجج بين ذات المتكلم، والمخاطَب؛ فكان(ع) يطرح ما يريده من أفكار ثم يشير إلى أهم ما يمكن أن يكون معارضا لما يطرحه عندما يقتضي مقام الخطاب ذلك ثم يجيب عن تلك الافتراضات(ع)، ومن أهم الصفات التي يتصف بها خطاب النهج قيام(الحجاج) فيه على عنصر(الالتباس) بين(واقع) اللفظ أو دلالته الوضعية، و(قيمة) التلفظ به في مقام الخطاب، وهو ما يعني استلزام اللفظ

دلالة تناسب حجاجية الخطاب وفي الوقت نفسه تنطلق من الدلالة الحرفية للفظ؛ فالمعرفة بـ(واقع اللفظ) تعني إدراك دلالته الحرفية والاشتغال بـ(القيمة) التي يحملها ذلك الملفوظ؛ فهناك تداخل كبير بين ذكر اللفظ بما يحمله من دلالة حرفية، وما يقصده الخطيب من معنى حجاجي هو ما عبر عنه طه عبد الرحمن بـ(العلم بالحقائق، والعمل بالمقاصد)؛ فالحجاج في النهج اتصف بالالتباس الذي درسته في ضوء نظرية الاستلزام الحواري، كما اتصف حجاج النهج باستهداف اعتقاد الجمهور بصفات الحكم ووظائف الحاكم ولاسيما أن من سبق الإمام(ع) في الخلافة ابتعد عن المنهج الذي اتبعه النبي(ص) في توزيع الثروات على الرعية فضلا عن استهداف اعتقاد الجمهور بما يطرحه خصومه(ع) من أفكار، أو بما يخاطب به الجمهور الكوني وبضمنهم ولاة الأمور واضعا أسس العدالة في الحكم.

١٢. دراسة مستويات اللغة ولاسيما النحوية، والتداولية في الخطاب الحجاجي ينبغي أن لا تُغفِل دراسة(مقتضى النّص)، وهذا مما طرحه (ديكرو) الذي أشار إلى أنّ تحليل مقتضى الخطاب يتزامن مع البحث في حجاجيته، وقد سبق علماؤنا القدماء المحدثين في الوقوف على أهمية مقتضى النّص عندما تصدوا لتحليل الخطاب القرآني وبيان دلالته؛ ومن أهم ما نقف عليه دراسة الخطاب الحجاجي فضلا عن المقتضى دراسة(المفهوم الدلالي) منه، ومن خلال التعريف الذي ساقه علماء الأصول للمفهوم يتبين أنّ دلالة اللفظ هي معناه، أما صورته في الذهن فهي(المفهوم)، وبذلك نرى أنّ النتيجة المطلوبة من(الحجاج) تعدُّ المفهوم الدلالي منه؛ لأنّ النتيجة لابد أن تحصل صورتها في ذهن المتلقي، وهذا يعني أنّ وجود(مقتضى

النص) يسبق وجود المفهوم لأنَّ المقتضى يولد مع النص أمَّا المفهوم فيرتبط بحصول صورته في ذهن المتلقي؛ وهذا يستلزم قيام دراسة الحجاج على(المقتضى، والمفهوم) .

١٣. دراسة الأدوات النحوية في الخطاب الحجاجي تشتمل على مستويين:الأول يتعلق بدراسة عوامل الحجاج التي ترسِّخ المفاهيم التي يطرحها الخطيب، والآخر يتعلق بدراسة الروابط النحوية بين أركان الخطاب الحجاجي كالربط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج مما يؤسس لـ(العلاقات الحجاجية)، نحو: التتابع، والسببية، والاستنتاج، ولا يصح إغفال أحد هذين الجانبين؛ لأنَّ التراكيب النحوية إنما تتأسس على ما يتصدر الجملة من أدوات، وفي الوقت نفسه يُحكَم الخطاب الحجاجي بمجموعة من العلاقات تقوم هي الأخرى على أنماط معينة من الأدوات؛ ورصد أثر الدلالة المرتبطة بالخطاب الحجاجي للأدوات هو مما اختصت به لسانيات الحجاج؛ فقد انفردت بالبحث في تلك الدلالات على الرغم من أنَّ لسانيات النص قد تناولت الربط النحوي بأنماطه المختلفة ومنها الربط بالأدوات إلا أنَّها لم تنتبه لاستعمالها في الحجاج، ويبدو أنَّ سبب ذلك هو عدم اتضاح مفهوم الحجاج عند الباحثين في لسانيات النص وهو ما استدعى البحث في دلالة الروابط في الحجاج.

١٤. عوامل التوكيد الحجاجية كانت من أهم الوسائل التي استعملها الإمام في ترسيخ أطروحاته، وكان التوكيد بالأداة(إنَّ) سمة بارزة في التوكيد، وقد وردت في سياقها(فاء السببية) التي تمثل إحدى أهم الروابط الحجاجية وترد في الخطاب الحجاجي بين النتيجة المتقدمة، والحجَّة المتأخرة، كما وردت في سياق التوكيد(فاء الاستنتاج) وهي بخلاف رابط السببية تتقدم

الحجّة فيها وتدخل الفاء على النتيجة المطلوبة، ووردت(ألا) التي تفيد التنبيه والتوكيد داخلة على(إنّ) في سياقات خاصة مبالغة منه(ع) في توكيد المفاهيم التي يطرحها، ومنها توكيده زهده في ملذات الدنيا ولاسيما الخلافة، ومنها ترسيخه فكرة وجوب مواجهة الشيطان الذي جمع أتباعه لمحاربة الإمام(ع).

١٥. من أدوات توكيد الخطاب الحجاجي(قد)، وورد في سياقها في بعض الأمثلة ما يعرف بـ(التوازي التركيبي) وهو من صور(السبك أو الربط النحوي)، وفيه تُستعمل صيغة الجملة نفسها مع تغيير محتواها الدلالي، وهذا القسم من أقسام (الربط) يوظّف أثر الصيغة في إقناع المتلقي لما لنغمة الصوت المرتبطة بتكرير البنية النحوية من تأثير، واقترنت(قد) بـ(اللام) في بعض النصوص، ومن عوامل التوكيد الأخرى(نون التوكيد) التي وردت بكثرة في وصيته لعماله على الصدقات، وفي وصيته للحسن(ع) لتعلق هذين الخطابين الحجاجين بما يقع مستقبلا، كما احتل توكيد المفاهيم الحجاجية بالقسم مساحة مهمة من أنماط التوكيد؛ ويرتبط التوكيد بالقسم بنظرية(أفعال الكلام) على نحو كبير؛ فالبلاغيون العرب وإن كانوا قسّموا تركيب القسم على خبري وإنشائي إلا أنّ رصد سيبويه لاستعمالات القسم يشعر أنّه يميل إلى كونه طلبيا، وهو ماترسَّخ في لسانيات الحجاج التي ترى أنّ استعمال اللغة يعني انجاز فعل الإقناع، وبذلك يكون (القسم) انجازا لحدث وليس إخبارا عنه، وكان القسم بالحرف مع المقسم به(لفظ الجلالة) أبرز صور القسم كما ورد القسم بالجملة الفعلية(أقسم) وقد اقترنت بالمقسم به مبالغة في حجاجه مع دخول(إنّ)

المؤكدة على جملة القسم في مواضع معينة؛ لتأكيد ما يوصي به(ع) ولاته من حرمة خيانة الرعية.

١٦. اقترن القسم بالشرط في حجاج الإمام وقد كان الجواب للشرط في موضع من تلك المواضع بخلاف ما نصّ عليه النحاة من أنّ الجواب للقسم المتقدم؛ ويبدو أن مقام الخطاب اقتضى كون الجواب للشرط لا للقسم لما يضيفه تركيب الشرط من معنى جديد للخطاب، ومن أهم أنماط توكيد الخطاب الحجاجي التوكيد بالقصر وأهميته تكمن في توجيه المتلقي للإقرار بالنتيجة التي يريدها الخطيب وذلك بحصر دلالة الجملة على المعنى المطلوب، وما ذكره علماؤنا من فرق بين استعمال(إنما)، و(النفي، وإلا) وجدناه واضحا في خطاب النهج وهو مما يؤشر عمق تحليلهم لأنماط التوكيد بالقصر، واستعمال(إنما) كان فيما لا ينكره المخاطب سواء كان ممن يتبع الإمام أم ممن يعاديه؛ فالهدف هو تنبيهه لأمر مقتنع به، أمّا استعمال(النفي، وإلا) فكان في الحجاج الموجّه إلى الجمهور الذي يعارض ما يطرحه الإمام(ع) من أفكار؛ فالجمهور وإن كان ممن يَعدُّ من أتباع الإمام إلا أنّه ليس بالضرورة ممن يعتقد على نحو مطلق بأطروحاته(ع)، وفي كلا النمطين كانت وظيفة التوكيد بالقصر حصر دلالة الخطاب بالمفهوم الدلالي من الحجاج.

١٧. من الأدوات التي أسّست الخطاب أدوات(التساؤل) التي يعبر عنها في تراثنا اللغوي بأدوات الاستفهام، ومصطلح(المساءلة) أقرب من الاستفهام إلى مضمون الحجاج؛ فـ(التساؤل) مفهوم بدأ يشيع في الدراسات والمقالات التي تُعنى بعرض الأفكار ومناقشتها، وتنبّه أبو هلال العسكري إلى الفرق بين(الاستفهام) و(السؤال)؛ فالتساؤل يكون عن علم أحيانا

أمّا(الاستفهام) فحقيقته لمن يجهل الشيء فيستفهم عنه، ولا داعي لتأويل(الاستفهام) بكونه غير حقيقي أو مجازي، بل نستعمل مصطلح(التساؤل) ليكون المصطلح أكثر تطابقا مع المفهوم، وصيغة(الاستفهام) في حد ذاتها تعني طلب الفهم بخلاف صيغة(سأل) التي تعني(الطلب) مطلقا، ولا يخفى أنّ جوهر عملية الحجاج يقوم على طلب الاقتناع بالفكرة التي يطرحها الخطيب، وقد ارتبط مفهوم الحجاج قديما وحديثا بحركة(السؤال والجواب)؛ فاستعمال اللغة تعبير عن(إشكالية) ما أو هو جواب عن(إشكال) مطروح، ومفهوم(مايير) انطلاقا من هذه النظرة يدرس جميع أنواع النصوص من خبرية وإنشائية، وخصصت النصوص الحجاجية المبدوءة بأدوات(المساءلة) بالبحث؛ فالإشكال يتمثل بما يطرحه الإمام، والجواب كان إقرار الجمهور بالنتيجة التي يريدها الإمام.

١٨. التساؤل بالهمزة كان سمة غالبة في حجاج النهج؛ لإقرار جمهور المتلقي بما يطرحه(ع) من أفكار ولاسيما عند دخول الهمزة على أداة نفي، ومن أدوات المساءلة(هل)، وقد أفادت معنى(التقرير) الممتزج بالتوبيخ في مواضع الحجاج خلافا لما ذكره سيبويه وجمهور النحاة من أنّها لا تفيد معنى الإقرار؛ فطاقتها الحجاجية تأتي من حملها المتلقي على الإقرار بما يُطرَح، ومن أدوات المساءلة الحجاجية(ما) التي تساءل بها عن صفات من يستحق أن يكون مؤهلا لتقويم حركة الإمام(ع)، ووردت أدوات أخرى للمساءلة تأسّست عليها حجاجية الخطاب؛ فقد انطلق الإمام(ع) من الدلالة التي تحملها تلك الأدوات في بناء حجاجية الخطاب، إذ تنوعت تلك الأدوات تبعا لما يقتضيه مقام الحجاج من استعمال أداة مساءلة بعينها؛ فمنها ما دلّ على(المكان) محل الإشكال، ومنها ما دلّ على(الحال) التي

استوجبت المساءلة ومنها ما دلّ على(الزمن) الذي أراده الإمام من الحجاج، وغير ذلك من أدوات المساءلة التي أنجز بها حدث الإقناع ولاسيما أنّ نظرية الانجازيات عدت(الاستفهام) حدثا منجزا فضلا عن الحجاج .

١٩. من الأدوات التي تأسست عليها حجاجية الخطاب أدوات الشرط التي تعرف في الدراسات الحجاجية بروابط الاقتضاء، أي يقتضي فيها الشرط وجود جواب له، وهذا التلازم بين ركني جملة الشرط دفع بعض النحاة إلى القول بأنّها جملة واحدة؛ فلا معنى لأحدهما بمعزل عن الآخر، وانطلق هؤلاء العلماء من فكرة كون الإفادة شرطا رئيسا للجملة التي هي عندهم بمعنى الكلام؛ فلا تتحقق الإفادة في تركيب الشرط إلا باجتماع ركنيه(الشرط، والجواب)، ومن رفض الترادف بين مصطلحي(الكلام)، و(الجملة) لم يشترط الإفادة في الجملة، فلم يجد بناءا على ذلك مانعا من عدّ كلٍّ من الشرط والجواب جملتين تستقلُّ كل واحدة منهما عن الأخرى، وعدم التفريق بينهما يمثّل التوجّه الصحيح لدراسة الخطاب ولاسيما الحجاجي؛ فتركيب الشرط يدخل بجزأيه في الحوار الإقناعي ولا نستطيع فهم(الحجاج) من دون النظرة الكاملة لقسمي الجملة؛ إذ يمثلان جانب(الحجّة) التي تخدم المفهوم الدلالي(النتيجة).

٢٠. اتصف تركيب الشرط في الخطاب الحجاجي بأنّه مثّل حجّة تخدم نتيجة مضمرة أو مذكورة في النّص نفسه؛ ففي مواضع كثيرة كان النص المؤسّس على روابط الشرط نصًّا حجاجيا في مجمله ويخدم مفهوما دلاليا، ومن تلك الأدوات التي يبنى عليها الشرط(إذا) التي دخلت على ضمير رفع منفصل بخلاف ما اشترطه النحاة من دخولها على فعل،

ويبدو أنّ التقديم كان لغرض توكيد المفهوم المقتضي للجواب الذي سيق من أجله النَّص في محاولة إقناع المتلقي، ومن تلك الأدوات(لو) التي وردت بدلالة تخالف ما نصّ عليه بعض النحاة من كونها لتعليق الجواب في الماضي فجاءت لتعليق الجواب في المستقبل في أمثلة متعددة.

٢١. في مقدمة ما طرحته لسانيات الخطاب دراسة المستوى التداولي، وترتبط الدراسة الحجاجية لخطاب ما بدراسة المنهج التداولي على نحو وثيق؛ لأنّ الحجاج يُعنَى بدراسة مقام الخطاب وأثره في استعمال الألفاظ بدلالات خاصة وهو ما قدّمته دراسات(الاستلزام الحواري) فضلا عن أنّ من أهم ما طرحه(ديكرو) في مشروعه ترسيخ حجاجية النص بما فيه من أدوات(العوامل والروابط الحجاجية)؛ فالتداولية المدمجة ترفض التعارض بين الدلالة الحرفية للفظ، ومعنى التلفُّظ به في سياق ما .

٢٢. ما قدّمه مفهوم(الاستلزام الحواري) من رؤية الانطلاق من المعنى الحرفي أو الدلالة الوضعية للوصول إلى الدلالة المستلزمة سبقته بحوث(الحقيقة والمجاز) في البلاغة العربية إلا أنّ ما يميز دراسة مفهوم(الاستلزام الحواري) هي النظرة المعاصرة لمعالجة قضية دلالة اللفظ على معنى مرتبط بالمقام؛ إذ تتصف هذه النظرية بأنّها بنيت على مبدأ(التعاون) الذي يقدّم فرضية مهمة تتعلق بإبلاغ المتكلم المخاطب معنىً معينا في الوقت نفسه يبذل المخاطب الجهد اللازم للتعرف على قصد المتكلم من الخطاب.

٢٣. دراسة(الاستلزام الحواري) ترتبط على نحو وثيق بدراسة الأفعال الكلامية؛ لأنّ (الأفعال الكلامية) كانت المهاد الذي انطلقت فيه دراسة ظاهرة(الاستلزام الحواري)؛ فالعلماء الذين بحثوا في هذين المفهومين التداوليين كانت جهودهم تتقارب في إطارها العام وتختلف في التفاصيل؛

فقد ترابطت جهودهم في تحليل الخطاب، ودراسة الغرض الحقيقي من التواصل، والفرق بين ما يقال وما يتم إبلاغه المتلقي، وكانت جهود(أوستن) في دراسة الفعل الكلامي وأقسامه هي الأساس في الدراسات التي قدمها(سيرل)،و(غرايس)؛ فهما وإن قدّما مقاربتين تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى في المسائل الإجرائية إلا أنّهما تتفقان في الغرض الرئيس وهو تفسير دلالة النص على معنى غير المعنى الحرفي للنص، وهذا التقارب بين الجهدين يدل على انبثاق مفهوم(الاستلزام الحواري) من مفهوم (أفعال الكلام) .

٢٤. أشار(غرايس) إلى وجود معنيين للألفاظ في الخطاب، أحدهما المعنى(الحرفي)، والآخر المعنى(الضمني)، والمعنى الضمني هو المقصود بدراسة(الاستلزام الحواري) وخروج دلالة اللفظ من معناها الحرفي إلى المعنى المستلزم من أهم خصائص الخطاب الحجاجي، وقد رصد ذلك الأستاذ(طه عبد الرحمن) الذي بحث الترابط بين مفردات(الخطاب، والحجاج، والمجاز)؛ فالمجاز عنده هو القيمة التي يحملها استعمال لفظ ما؛ لأنّ العلاقة بين(اللفظ)، و(قيمته) هي علاقة(العبارة) بـ(الإشارة)، وهذا الأمر يشير إلى أهمية دراسة الحجاج على وفق المفاهيم التداولية ولاسيما مفهوم الاستلزام الحواري .

٢٥. نشوء ظاهرة الاستلزام الحواري يرتبط بخرق القواعد المتفرعة من مبدأ التعاون، وهي قواعد:(الكم، والقيمة أو الكيف، والعلاقة أو المناسبة، والطريقة أو الصيغة)؛ ولأهمية دراسة الاستلزام الحواري بحسب مفهوم(غرايس) وقفت على أمثلة متنوعة من الخطاب الحجاجي؛ لتحليلها على وفق ما تضمّنته من خرق لمبدأ التعاون معتمدا التقسيم الذي طرحه

(أرسطو) في دراسة أنماط الصناعة القولية من خطب ومناقشات جدلية بوصفه الأقرب إلى نمط الخطاب في نهج البلاغة وبخاصة قسمي الخطب والكتب، ودرست توظيف الألفاظ بدلالتها المستلزمة في الحجاج، فقُسِّمت تبعا لذلك دراسة ظاهرة (الاستلزام الحواري) على محورين الأول يبحثها في خطب الإمام وكلماته، والثاني يبحثها في كتب الإمام (ع) ورسائله؛ ومع أنّ مفهوم(برلمان وتيتيكاه) يرى أنّ الفصل بين هذين النمطين الحجاجيين أمر مغلوط إلا أنّه لا يمكن التسليم بذلك الرفض؛ لأنّ الدراسات الحجاجية قد نصّت على جملة فروق جوهرية بينهما أهمها أنّ مهمة الحجاج الجدلي هو(فحص الفكرة) وتقليبها على وجوه متعددة لبيان صلاحها، أمّا الحجاج الخطابي فهو حجاج (يبني الفكرة) ويرتبط بحركة المجتمع المتلقي سياسيا وفكريا.

٢٦. الاستلزام الحواري في خطب الإمام وكلماته نشأ في معظم الحالات بخرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) التي تنصّ على تجنب اللبس والغموض في الكلام، و اللبس المقصود هنا هو من قبيل المشترك اللفظي، أو الغموض التركيبي الذي يقبل أكثر من تأويل؛ لأنّ ذلك يدخل في باب المغالطات السفسطائية والتلاعب بالجمهور أمّا(الحجاج) فيقوم على(الالتباس) في مستويات متعددة منها التباس شخصية المدعي بالمعترض على الفكرة المطروحة، والتباس الدلالة الحرفية لبعض الألفاظ بمعطيات المقام مما ينتج الدلالة المستلزمة، أي عبارة اللفظ، وإشارته، وهذا التوجّه لتفسير قيام ظاهرة الاستلزام الحواري على التداخل بين الدلالة الحرفية ومقاصد التلفظ يمثل دليلا على ارتباط هذه الظاهرة بمفهوم(التداولية المدمجة) التي ترفض الفصل بين الدلالة الحرفية للفظ، وقصد التلفظ به في مقام خاص.

٢٧. الاستلزام الحواري في كتب الإمام(ع) ورسائله تضمَّن خرقا متنوعا لمبدأ (التعاون)؛ فقد وردت نصوص حجاجية موجَّهة إلى أعدائه ولاسيما معاوية وجمهوره خُرقت فيه قاعدة (العلاقة أو المناسبة)، وقد وردت نصوص أخرى جرى فيها خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة)، وقاعدة (العلاقة)، وقاعدة (القيمة أو الكيف)، وهذا يدل على اهتمام الإمام(ع) بتوظيف طرائق متعددة في استلزم حواره الدلالات المطلوبة؛ فقد اعتمد(ع) الحجاج في مواجهة معاوية وجمهوره ولم يلجأ إلى السيف معهم إلا بعد أن يئس من إقناعهم، ومع تنوع أنماط الاستلزام الحواري إلا أنَّ خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) كان حالة عامة في معظم الأمثلة التي درستها، وذلك يعود إلى أهمية عنصر (الالتباس) في خلق طاقة النص الحجاجية، والإمام (ع) لم يجعل كلامه مباشرا بل عمد إلى استعمال ألفاظ لها دلالات حرفية تستلزم دلالات أخرى عند استعمالها في مقام خاص.

٢٨. دراسة المنطلقات أو المقدمات في الخطاب الحجاجي تجعلنا نقف على أهم ما يميز الخطاب الذي يُدرَس من غيره من الخطابات من ناحية ما يملكه من وسائل إقناع، ودراسة مقدمات الحجاج من أهم ما طرحه (برلمان)؛ فهي الركائز الفكرية التي يستند إليها الحجاج، والحجاج الموجَّه إلى الجمهور العام انطلق في مجمله من(الحقائق)، و(الوقائع) مع تداخل أحيانا بين المنطلقات أو المقدمات ولاسيما بين الوقائع والافتراضات، إلا أنَّ السِّمة الغالبة هي انطلاق الحجاج من الحقائق؛ لأنَّ نوع الجمهور ووظيفة الإمام(ع) اقتضيا ذلك النمط في الحجاج؛ فالإمام (حاكم) يطرح أفكاره المتعلقة ببناء الدولة فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، والمخاطب جمهور الرعية الذي ينتظر أطروحات الإمام، ووجدنا الحجاج الموجَّه إلى

الجمهور العام ينطلق من الوقائع عندما يتعلق ببيان حال المناوئين، وكانت الخطبة الشقشقية في مقدمة النصوص الحجاجية العامة التي انطلقت من الوقائع ولاسيما فيما يتعلق بأحقيته بالخلافة، واعتماد الوقائع في طرح الأفكار كان في المواضع التي تتعلق بدحض آراء الخصوم؛ فلجأ إلى الانطلاق من الوقائع ليبني عليها حجاجه فضلا عن الانطلاق من الافتراضات؛ لإقناعهم بخطأ ما يطرحه الآخرون .

٢٩. الحجاج في الخطاب الخاص انقسم على قسمين الأول كان موجها لجمهور الأعداء، والآخر للخاصة من أتباعه(ع) ، ومن الحجاج الموجَّه إلى جمهور الأعداء ما وجَّهه الإمام إلى الناكثين ومعاوية وفي كلا النمطين الحجاجيين انطلق الإمام من سلسلة وقائع مزجت بالحقائق لتكون أبلغ في إقناع الجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الخاصة بأعداء الإمام ما توجَّه به(ع) إلى الخوارج، وبني على سلسلة من الافتراضات الممتزجة بالوقائع ردًّا على أطروحتهم في تكفير جمهور المسلمين.

٣٠. ومن الحجاج الخاص بأتباع الإمام ما توجَّه به إلى الحسن وقد انطلق في مجمله من حقائق دينية تتعلق بالزهد والتقوى وغيرها؛ فالإمام علي بحجاجه هذا طرح تلك المفاهيم التي أرادها أن تصل إلى الجمهور الكوني، وكان لشخصية الإمام الحسن(ع) أثر كبير في تلقي هذه المفاهيم ونقلها للجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الموجَّهة إلى جمهور خاص عهده لمالك الأشتر الذي انطلق فيه (ع) من مجموعة حقائق اجتماعية أو (سنن إلهية) تحكم حركة المجتمع وتتصف بالكونية ولا ترتبط بمجتمع دون آخر، وهذه النقطة تمثل الخلاف الجوهري بين حجاج الإمام الحسن، وحجاج الأشتر؛ فالأول انطلق من حقائق دينية ترتبط

بعلاقة الإنسان بربه بخلاف الثاني فهو يتعلق بالسنن الإلهية التي تحكم المجتمع، وصفات الحكم العادل، وما يؤدي إليه الظلم من ضعف الحكم وزواله فضلا عن انهيار المجتمعات؛ فالخطابان الحجاجيان وإن انطلقا من (الحقائق) إلا أنّ نمط تلك الحقائق في كلٍّ منهما يختلف عن الآخر.

٣١. لم تغفل دراسة المنطلقات الحجاجية الوقوف على أهم العناصر اللغوية في الخطاب الحجاجي؛ فقد تمّت الإشارة إلى بعض الروابط الحجاجية، وتوظيف بعض الألفاظ بدلالات معينة بما يخدم عملية الحجاج، ومن أهم أنماط التداخل بين وظيفة اللغة والمقدمات الحجاجية نشوء "الافتراضات" عن طريق تركيب الشرط، وقد وظفت الافتراضات في مواضع متعددة من حجاجه (ع) ولاسيما عند مخاطبة أعدائه (ع).

الخاتمة

بحثت لسانيات الحجاج في أهم خطاب في تراثنا الفكري بعد القرآن الكريم، والخطاب النبوي الشريف؛ فدرست آليات الحجاج في نهج البلاغة عبر محوريه، اللغوي، والفكري، فكان أن بحثت مستويين من مستويات الدرس اللساني في الخطاب الحجاجي، هما: المستوى النَّحوي، والمستوى التَّداولي، ووقفت على عناصر رئيسة فيهما، ثم بحثت قضية تعد من أهم ما طرحه (برلمان) في نهضة الحجاج، وهي المنطلقات التي ينطلق منها الخطيب في محاولته إقناع الجمهور بما يطرحه من أفكار، ونستطيع أن نجمل النتائج بما يأتي:

١. دراسة أيِّ خطاب حجاجي تقوم على محورين لا يصح أن يُغفل أحدهما، هما المستوى اللغوي، والمستوى الفكري؛ فالطاقة الحجاجية للخطاب يتماهى فيها الحجاج المؤسَّس على البنية اللغوية للنص مع مقدمات الحجاج التي تدل على قوته في إقناع الجمهور، وبذلك تمت دراسة هذين المستويين في حجاج نهج البلاغة.

٢. يتصف خطاب النهج بظاهرة تميِّزه من سائر النُّصوص في تراثنا، هي تضمنه أهم نمطين لاستعمال اللغة يقربان من الوحدتين الحجاجيتين الرئيستين اللتين أشار إليهما أرسطو في بحثه آليات الإقناع، وهما:الخطب، والمناقشات الجدلية؛ فقد تمثلت الخطب بكلمات الإمام(ع) للجمهور المتلقي للحجاج، أمَّا كتب الإمام ورسائله فتقرب من المناقشات الجدلية.

٣. كلمات الإمام(ع)، وكتبه محل الدراسة الحجاجية لا تتوقف عند حوار أعدائه (ع)، بل تتجاوز ذلك إلى حجاجه أتباعه؛ فالحجاج في الدراسات الحديثة يعني الحوار الإقناعي وهذا الحوار لا يختص بالأعداء بل يتعلق فضلا عن

ذلك بالأتباع والأصدقاء؛ لأن الإمام(ع) في كلا الحالين يناقش أطروحة ما مستهدفا إمَّا تثبيتها وإمَّا نقضها وترسيخ أخرى، ولا يجعل اهتمامه ينصب على الجمهور أو الشخص المتلقي إلا بالمقدار الذي يقتضيه المقام، فحتى في الحجاج الموجَّه إلى أتباعه أو الجمهور(المحايد) كان يتصدى لما يطرحه الآخرون من أفكار، أو يؤسس لأطروحات تتعلق بالحكم أو علاقة الإنسان بربه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فهذه المباحث كلها تدخل في صميم عملية الحجاج، والحجاج بهذا المفهوم هو أوسع نظرة من الجدل المختص بالخصومة .

٤. مفهوم الحجاج في الدراسات الحديثة يختلف عما نجده عند القدماء؛ فقد ترادف عندهم مع (البرهان)، و(الجدل) وهذان المفهومان غالبا ما وظِّفا وهما يحملان مصطلح (الحجَّة) في حوار الآخر المخالف أو المعادي أحيانا، لكننا نجد الدراسات الحديثة قد أثبتت أنَّ الحجاج هو حوار يستهدف إقناع المتلقي سواء كان مخالفا أم محايدا أم من مؤيدي الخطيب؛ فلم يعد مفهومه يرادف(الجدل) أي (شدة الخصومة) بل اتسع ليشمل مختلف أنواع الحوار مع الآخر، وكذلك الحال مع مفهوم (البرهان) الذي يُعنَى بالضروريات بخلاف(الحجاج) الذي يتسع ليشمل(الممكن) وبذلك ينحصر مفهوم(البرهان) بالعلوم التطبيقية أمَّا مفهوم(الحجاج) فمجاله العلوم الإنسانية فضلا عن العلوم التطبيقية، ويقوم(الحجاج) على ذكر الأمثلة التي تؤسِّس للواقع الذي يريده الخطيب بخلاف(البرهان) الذي يبتعد عن ذكر الأمثلة ويقوم على الاستنباط، و(الحجاج) يرتبط بالذات الإنسانية وبمقام الخطاب على نحو كبير بخلاف (البرهان) الذي يستقلُّ عن ذات المتكلم والمخاطب ومقام التلفظ وهو بذلك قوانين عامة.

٥. الخطابة القديمة تختلف عن (الحجاج) في أنّ هدفها الإقناع بكل الوسائل حتى المغالطة السفسطائية منها، ولصورة الخطيب أثر مهم في عملية الإقناع، والجمهور خاص في الخطابة القديمة وليس جمهورا كونيا مثلما نجد ذلك في الخطابة الجديدة(الحجاج)، والجمهور(سلبي) فهو لا يتفاعل مع الخطيب بل يتلقى الأطروحة منه بخلاف الجمهور المخاطب بالحجاج فهو(إيجابي) متفاعل؛ فقد يجيب عن تساؤل يطرحه الخطيب، أو يتساءل فيجيب الخطيب؛ واقترنت الخطابة القديمة بالسفسطة التي ترى أنّ الإنسان هو المقياس فلا خير أو شر إلا ما يتعلق بملذات الإنسان ومصالحه، فحاول الفلاسفة الردّ على مغالطاتهم وبيان أوجه الخطأ في أقيستهم التي توهم الجمهور وتظلّله والتي ترجع في جانب كبير منها إلى ما تحدثه الألفاظ في المعاني من لبس وغموض نتيجة لاشتراك معاني مختلفة في لفظ واحد؛ إذ يستعمل السفسطائي دلالة من هذه الدلالات ليؤسّس عليها خطابه المغالطي فضلا عن توظيف التركيب النحوي للجملة بما يخدم تلك المغالطات.

٦. نهوض الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بعد تقلُّص دورها عبر العصور بسبب (اليقينية) التي سيطرت على طرق التفكير ولاسيما العلوم الإنسانية؛ لأن الاعتقاد باليقين قضى على مساحة الحوار وإبداء الآراء، فلا صوت مقابل ما يُعتقَد أنّه الحق، وانشغلت الدراسات ولاسيما اللغوية منها على مدى القرون التي ضَعُف فيها أثر الخطابة بالبحث في أسلوبية النص وعناصره اللغوية من غير أن تتجاوز ذلك إلى البحث في حجاجيته، والنتيجة المطلوبة منه، وأثر البناء اللغوي في تماسك النص بما يتضمنه من أفكار تؤدي إلى إقناع الجمهور؛ إذ لا يستطيع الخطيب أن يقنع الجمهور بفكرة ما من غير أن يسوقها في خطاب متماسك.

٧. ظهور الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بجهود (برلمان)، ومفهومه الحجاجي هو الأساس الذي انطلقت منه مفاهيم الحجاج الأخرى وإن كانت تعالج فكرة (الحجاج) بطرق مختلفة، وقد طرح (برلمان) مفهوم(المنطق غير الصوري) الذي يأخذ بالحجج سواء القوية منها أم الضعيفة، والنتائج المطلوبة منهـا، وطريقة بناء الخطاب الحجاجي في مقابل(المنطق الصوري) المبني علـى نتائج تدل عليها مقدمات خاصة في جمل يستقل بعضها عن بعض فلا يوجد خطاب يتضمن مقاما خاصا به، وسلسلة جمل متتابعـة ضـمن الدراسـات المنطقية، وقد اقترح فلسفة اللغة الطبيعية بدلا من اللغة المنطقية، ومن أهـم ما قدّمه(برلمان) هو إعادة شمل(الحجاج) بعد أن توزّع على مباحث(الفلسفة، والجدل، ونظرية الأدب)، فقد جمع هذه الأقسام الثلاثة ضمن مفهوم(الحجاج) مع اهتمام خاص بـ(اللوغوس) الذي يتعلق بما يُطرَح من أفكار عبر النص لإقناع الجمهور.

٨. من أهم ما طرحه(برلمان وتيتيكاه) هـو دراسـة منطلقـات الحجـاج؛ والمنطلقات فكرة مشتركة بين أفراد الجماعة التي ينتمي لهـا الخطيـب، وأهم المنطلقات هي(الوقائع، و الحقائق)، ويكتسـب هـذان المنطلقـان أهميتهما من كونهما غير قابلين للدحض والتشكيك؛ لأنَّ(الوقائع) أحـداث وقعت في المجتمع، و(الحقائق) قـوانين يـؤمن بهـا أفـراد المجتمـع، وتأتي(الافتراضات) في سياق(الحقائق،والوقائع) لتقويـة الحجـاج، وقـد بحث(برلمان) فضلا عن المنطلقات تقنيات عرض الحجج من طرق شبه منطقية، وأخرى مؤسَّسة لبنى الواقع، ومؤسَّسـة عليـه، ويعد(التشـبيه التمثيلي) أقرب قسم مـن أقسام(التشـبيه) إلـى مفهوم(التمثيـل) الـذي ذكره(برلمان) .

٩. مفهوم الحجاج عند(ديكرو) يقع في صميم الدراسات التداولية، ولسانيات الخطاب، لأنّه بحسب ما أرى يرتبط بهذه الدراسات بثلاثة محاور رئيسة، الأول دراسته الألفاظ الحجاجية ولاسيما الروابط التي تربط بين الجمل في الخطاب والتي تكون حججا أو حججا ونتائج ودراسة نظام الربط النحوي هي إحدى أسس لسانيات النص، والمحور الثاني تأثره بنظرية الأفعال الكلامية وقد طرح في سياق ذلك وجود فعلين أو حدثين ينجزان في عملية الحجاج هما(حدث الاقتناع)، و(حدث الاقتضاء)؛ فالحدث المنجز عبر عملية الحوار بين الخطيب والجمهور هو الاقتناع بما يُطرَح من أفكار وفي الوقت نفسه يقتضي الخطاب دلالة معينة تنجز عند طرحه، أمَّا المحور الثالث فكان طرح(ديكرو) لمبدأ(التداولية المدمجة) وهذا المبدأ يؤمن باندماج المستوى التداولي بالمستوى الدلالي، ومشروع (ديكرو) يمثل حالة وسطى بين اتجاهين في الدراسات اللسانية الأول دلاليٌّ يرفض عدَّ السياق عنصرا من عناصر بيان دلالة النص ويكتفي بالدلالة الوضعية للألفاظ، والثاني يعدُّ مقام الخطاب وسياقه محورا رئيسا في بيان دلالة النص؛ فـ(التداولية المدمجة) بحسب مصطلحها تعني اندماج دراسة التداولية مع الدلالة أي الأخذ بمقام التلفظ والسياق في توجيه دلالة اللفظ ضمن الخطاب الذي يرد فيه.

١٠. مفهوم (مايير) متأثِّر إلى حد كبير بما طرحه (برلمان) من خلال الحديث عن المنطق غير الصوري واهتمامه بالركائز الفكرية للحجاج، ويقوم هذا المفهوم على حركة (السؤال والجواب) أساسا في الحجاج سواء في عنصر الجدل أم الخطابة، وقد عبَّر عن(الجواب) بـ(المظهر)، و(التساؤل) بـ(المضمر)، وهذا التقسيم ينطلق من فرضية كون

الخطاب(إخباريا) غير مبدوء بأداة(سؤال)؛ فإن كان الخطاب تساؤلا سيكون ذلك التساؤل هو الجانب(المظهر) من الخطاب، و(المضمر) هو الإجابة عنه؛ وتبقى هذه الثنائية موجودة حتى فيما يتعلق بالنصوص التي تتضمن التساؤلات والإجابة عنها؛ فالمضمر فيها هو الإقرار والعمل بموجب ذلك الإقرار.

١١. الشروط التي ذكرها اللسانيون للوقوف على حجاجية النص تتطابق على نحو كبير مع خطاب نهج البلاغة ولاسيما الخطب والكتب؛ فالإمام انطلق من مقتضيات الحال ومن المعارف المشتركة في محاولته إقناع الجمهور واستعمل أدوات اللغة بما يخدم هذا التصور، وبناء على ذلك كانت الألفاظ المستعملة ذات دلالة واضحة يفهمها الجمهور، وليست من قبيل المشترك اللفظي لأنّه يفقد الخطاب طاقته الحجاجية، كما إنَّ من صفات الحجاج الناجح هو الادعاء بالحقيقة وتقديم الأدلة التي تدعم ذلك الادعاء، لذلك كان حجاج الإمام(ع) يتصف بالقوة في اعتماد أقوى المنطلقات، فضلا عن اتصاف الحجاج في نهج البلاغة بأهم صفات الخطاب الحجاجي، وهي خاصية التفاعل التي تنتج عن مبدأي الادعاء والاعتراض؛ فالإمام(ع) كان في مواطن متعددة من حجاجه يفترض بعض ما يطرحه الخصوم في(تزاوج) في ذات الخطيب المحاجج بين ذات المتكلم، والمخاطَب؛ فكان(ع) يطرح ما يريده من أفكار ثم يشير إلى أهم ما يمكن أن يكون معارضا لما يطرحه عندما يقتضي مقام الخطاب ذلك ثم يجيب عن تلك الافتراضات(ع)؛ ومن أهم الصفات التي يتصف بها خطاب النهج قيام(الحجاج) فيه على عنصر(الالتباس) بين(واقع) اللفظ أو دلالته الوضعية، و(قيمة) التلفظ به في مقام الخطاب، وهو ما يعني استلزام اللفظ

دلالة تناسب حجاجية الخطاب وفي الوقت نفسه تنطلق من الدلالة الحرفية للفظ؛ فالمعرفة بـ(واقع اللفظ) تعني إدراك دلالته الحرفية والاشتغال بـ(القيمة) التي يحملها ذلك الملفوظ؛ فهناك تداخل كبير بين ذكر اللفظ بما يحمله من دلالة حرفية، وما يقصده الخطيب من معني حجاجي هو ما عبر عنه طه عبد الرحمن بـ(العلم بالحقائق، والعمل بالمقاصد)؛ فالحجاج في النهج اتصف بالالتباس الذي درسته في ضوء نظرية الاستلزام الحواري، كما اتصف حجاج النهج باستهداف اعتقاد الجمهور بصفات الحكم ووظائف الحاكم ولاسيما أن من سبق الإمام(ع) في الخلافة ابتعد عن المنهج الذي اتبعه النبي(ص) في توزيع الثروات على الرعية فضلا عن استهداف اعتقاد الجمهور بما يطرحه خصومه(ع) من أفكار، أو بما يخاطب به الجمهور الكوني وبضمنهم ولاة الأمور واضعا أسس العدالة في الحكم.

١٢. دراسة مستويات اللغة ولاسيما النحوية، والتداولية في الخطاب الحجاجي ينبغي أن لا تُغفِل دراسة(مقتضى النّص)، وهذا مما طرحه (ديكرو) الذي أشار إلى أنّ تحليل مقتضى الخطاب يتزامن مع البحث في حجاجيته، وقد سبق علماؤنا القدماء المحدثين في الوقوف على أهمية مقتضى النَّص عندما تصدوا لتحليل الخطاب القرآني وبيان دلالاته؛ ومن أهم ما تقف عليه دراسة الخطاب الحجاجي فضلا عن المقتضى دراسة(المفهوم الدلالي) منه، ومن خلال التعريف الذي ساقه علماء الأصول للمفهوم يتبين أنّ دلالة اللفظ هي معناه، أما صورته في الذهن فهي(المفهوم)، وبذلك نرى أنّ النتيجة المطلوبة من(الحجاج) تعدُّ المفهوم الدلالي منه؛ لأنّ النتيجة لابد أن تحصل صورتها في ذهن المتلقي، وهذا يعني أنّ وجود(مقتضى

النص) يسبق وجود المفهوم لأنّ المقتضى يولد مع النص أمّا المفهوم فيرتبط بحصول صورته في ذهن المتلقي؛ وهذا يستلزم قيام دراسة الحجاج على(المقتضى، والمفهوم) .

١٣. دراسة الأدوات النحوية في الخطاب الحجاجي تشتمل على مستويين:الأول يتعلق بدراسة عوامل الحجاج التي ترسّخ المفاهيم التي يطرحها الخطيب، والآخر يتعلق بدراسة الروابط النحوية بين أركان الخطاب الحجاجي كالربط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج مما يؤسس لـ(العلاقات الحجاجية)، نحو: التتابع، والسببية، والاستنتاج، ولا يصح إغفال أحد هذين الجانبين؛ لأنّ التراكيب النحوية إنما تتأسس على ما يتصدر الجملة من أدوات، وفي الوقت نفسه يُحكَم الخطاب الحجاجي بمجموعة من العلاقات تقوم هي الأخرى على أنماط معينة من الأدوات؛ ورصد أثر الدلالة المرتبطة بالخطاب الحجاجي للأدوات هو مما اختصت به لسانيات الحجاج؛ فقد انفردت بالبحث في تلك الدلالات على الرغم من أنّ لسانيات النص قد تناولت الربط النحوي بأنماطه المختلفة ومنها الربط بالأدوات إلا أنّها لم تنتبه لاستعمالها في الحجاج، ويبدو أنّ سبب ذلك هو عدم اتضاح مفهوم الحجاج عند الباحثين في لسانيات النص وهو ما استدعى البحث في دلالة الروابط في الحجاج.

١٤. عوامل التوكيد الحجاجية كانت من أهم الوسائل التي استعملها الإمام في ترسيخ أطروحاته، وكان التوكيد بالأداة(إنّ) سمة بارزة في التوكيد، وقد وردت في سياقها(فاء السببية) التي تمثل إحدى أهم الروابط الحجاجية وترد في الخطاب الحجاجي بين النتيجة المتقدمة، والحجّة المتأخرة، كما وردت في سياق التوكيد(فاء الاستنتاج) وهي بخلاف رابط السببية تتقدم

الحجّة فيها وتدخل الفاء على النتيجة المطلوبة، ووردت(ألا) التي تفيد التنبيه والتوكيد داخلة على(إنّ) في سياقات خاصة مبالغة منه(ع) في توكيد المفاهيم التي يطرحها، ومنها توكيده زهده في ملذات الدنيا ولاسيما الخلافة، ومنها ترسيخه فكرة وجوب مواجهة الشيطان الذي جمع أتباعه لمحاربة الإمام(ع).

١٥. من أدوات توكيد الخطاب الحجاجي(قد)، وورد في سياقها في بعض الأمثلة ما يعرف بـ(التوازي التركيبي) وهو من صور(السبك أو الربط) النحوي، وفيه تُستعمل صيغة الجملة نفسها مع تغيير محتواها الدلالي، وهذا القسم من أقسام (الربط) يوظّف أثر الصيغة في إقناع المتلقي لما لنغمة الصوت المرتبطة بتكرير البنية النحوية من تأثير. واقترنت(قد) بـ(اللام) في بعض النصوص، ومن عوامل التوكيد الأخرى(نون التوكيد) التي وردت بكثرة في وصيته لعماله على الصدقات، وفي وصيته للحسن(ع) لتعلق هذين الخطابين الحجاجين بما يقع مستقبلا، كما احتل توكيد المفاهيم الحجاجية بالقسم مساحة مهمة من أنماط التوكيد؛ ويرتبط التوكيد بالقسم بنظرية(أفعال الكلام) على نحو كبير؛ فالبلاغيون العرب وإن كانوا قسّموا تركيب القسم على خبري وإنشائي إلا أنّ رصد سيبويه لاستعمالات القسم يشعر أنّه يميل إلى كونه طلبيا، وهو ماترسّخ في لسانيات الحجاج التي ترى أنّ استعمال اللغة يعني انجاز فعل الإقناع، وبذلك يكون (القسم) انجازا لحدث وليس إخبارا عنه؛ وكان القسم بالحرف مع المقسم به(لفظ الجلالة) أبرز صور القسم كما ورد القسم بالجملة الفعلية(أقسم) وقد اقترنت بالمقسم به مبالغة في حجاجه مع دخول(إنّ)

المؤكدة على جملة القسم في مواضع معينة؛ لتأكيد ما يوصي به(ع) ولاته من حرمة خيانة الرعية.

١٦. اقترن القسم بالشرط في حجاج الإمام وقد كان الجواب للشرط في موضع من تلك المواضع بخلاف ما نصّ عليه النحاة من أنّ الجواب للقسم المتقدم؛ ويبدو أن مقام الخطاب اقتضى كون الجواب للشرط لا للقسم لما يضيفه تركيب الشرط من معنى جديد للخطاب، ومن أهم أنماط توكيد الخطاب الحجاجي التوكيد بالقصر وأهميته تكمن في توجيه المتلقي للإقرار بالنتيجة التي يريدها الخطيب وذلك بحصر دلالة الجملة على المعنى المطلوب، وما ذكره علماؤنا من فرق بين استعمال(إنما)، و(النفي، وإلا) وجدناه واضحا في خطاب النهج وهو مما يؤشر عمق تحليلهم لأنماط التوكيد بالقصر، واستعمال(إنما) كان فيما لا ينكره المخاطب سواء كان ممن يتبع الإمام أم ممن يعاديه؛ فالهدف هو تنبيهه لأمر مقتنع به، أمّا استعمال(النفي، وإلا) فكان في الحجاج الموجّه إلى الجمهور الذي يعارض ما يطرحه الإمام(ع) من أفكار؛ فالجمهور وإن كان ممن يَعدُّ من أتباع الإمام إلا أنّه ليس بالضرورة ممن يعتقد على نحو مطلق بأطروحاته(ع)، وفي كلا النمطين كانت وظيفة التوكيد بالقصر حصر دلالة الخطاب بالمفهوم الدلالي من الحجاج.

١٧. من الأدوات التي أسّست الخطاب أدوات(التساؤل) التي يعبر عنها في تراثنا اللغوي بأدوات الاستفهام، ومصطلح(المساءلة) أقرب من الاستفهام إلى مضمون الحجاج؛ فـ(التساؤل) مفهوم بدأ يشيع في الدراسات والمقالات التي تُعنَى بعرض الأفكار ومناقشتها، وتنبّه أبو هلال العسكري إلى الفرق بين(الاستفهام) و(السؤال)؛ فالتساؤل يكون عن علم أحيانا

أمّا(الاستفهام) فحقيقته لمن يجهل الشيء فيستفهم عنه، ولا داعي لتأويل(الاستفهام) بكونه غير حقيقي أو مجازي، بل نستعمل مصطلح(التساؤل) ليكون المصطلح أكثر تطابقا مع المفهوم، وصيغة(الاستفهام) في حد ذاتها تعني طلب الفهم بخلاف صيغة(سأل) التي تعني(الطلب) مطلقا، ولا يخفى أنّ جوهر عملية الحجاج يقوم على طلب الاقتناع بالفكرة التي يطرحها الخطيب، وقد ارتبط مفهوم الحجاج قديما وحديثا بحركة(السؤال والجواب)؛ فاستعمال اللغة تعبير عن(إشكالية) ما أو هو جواب عن(إشكال) مطروح، ومفهوم(ماير) انطلاقا من هذه النظرة يدرس جميع أنواع النصوص من خبرية وإنشائية، وخصصت النصوص الحجاجية المبدوءة بأدوات(المساءلة) بالبحث؛ فالإشكال يتمثل بما يطرحه الإمام، والجواب كان إقرار الجمهور بالنتيجة التي يريدها الإمام.

١٨. التساؤل بالهمزة كان سمة غالبة في حجاج النهج؛ لإقرار جمهور المتلقي بما يطرحه(ع) من أفكار ولاسيما عند دخول الهمزة على أداة نفي، ومن أدوات المساءلة(هل)، وقد أفادت معنى(التقرير) الممتزج بالتوبيخ في مواضع الحجاج خلافا لما ذكره سيبويه وجمهور النحاة من أنّها لا تفيد معنى الإقرار؛ فطاقتها الحجاجية تأتي من حملها المتلقي على الإقرار بما يُطرَح، ومن أدوات المساءلة الحجاجية(ما) التي تساءل بها عن صفات من يستحق أن يكون مؤهلا لتقويم حركة الإمام(ع)، ووردت أدوات أخرى للمساءلة تأسّست عليها حجاجية الخطاب؛ فقد انطلق الإمام(ع) من الدلالة التي تحملها تلك الأدوات في بناء حجاجية الخطاب، إذ تنوعت تلك الأدوات تبعا لما يقتضيه مقام الحجاج من استعمال أداة مساءلة بعينها؛ فمنها ما دلّ على(المكان) محل الإشكال، ومنها ما دلّ على(الحال) التي

استوجبت المساءلة ومنها ما دلّ على(الزمن) الذي أراده الإمام من الحجاج، وغير ذلك من أدوات المساءلة التي أنجز بها حدث الإقناع ولاسيما أنّ نظرية الانجازيات عدت(الاستفهام) حدثا منجزا فضلا عن الحجاج .

١٩. من الأدوات التي تأسست عليها حجاجية الخطاب أدوات الشرط التي تعرف في الدراسات الحجاجية بروابط الاقتضاء، أي يقتضي فيها الشرط وجود جواب له، وهذا التلازم بين ركني جملة الشرط دفع بعض النحاة إلى القول بأنّها جملة واحدة؛ فلا معنى لأحدهما بمعزل عن الآخر، وانطلق هؤلاء العلماء من فكرة كون الإفادة شرطا رئيسا للجملة التي هي عندهم بمعنى الكلام؛ فلا تتحقق الإفادة في تركيب الشرط إلا باجتماع ركنيه(الشرط، والجواب)، ومن رفض الترادف بين مصطلحي(الكلام)، و(الجملة) لم يشترط الإفادة في الجملة، فلم يجد بناءا على ذلك مانعا من عدِّ كلٍّ من الشرط والجواب جملتين تستقلُّ كل واحدة منهما عن الأخرى، وعدم التفريق بينهما يمثّل التوجّه الصحيح لدراسة الخطاب ولاسيما الحجاجي؛ فتركيب الشرط يدخل بجزأيه في الحوار الإقناعي ولا نستطيع فهم(الحجاج) من دون النظرة الكاملة لقسمي الجملة؛ إذ يمثلان جانب(الحجّة) التي تخدم المفهوم الدلالي(النتيجة).

٢٠. اتصف تركيب الشرط في الخطاب الحجاجي بأنّه مثّل حجّة تخدم نتيجة مضمرة أو مذكورة في النّص نفسه؛ ففي مواضع كثيرة كان النص المؤسّس على روابط الشرط نصًّا حجاجيا في مجمله ويخدم مفهوما دلاليا، ومن تلك الأدوات التي يبنى عليها الشرط(إذا) التي دخلت على ضمير رفع منفصل بخلاف ما اشترطه النحاة من دخولها على فعل،

ويبدو أنَّ التقديم كان لغرض توكيد المفهوم المقتضي للجواب الذي سيق من أجله النَّص في محاولة إقناع المتلقي، ومن تلك الأدوات(لو) التي وردت بدلالة تخالف ما نصّ عليه بعض النحاة من كونها لتعليق الجواب في الماضي فجاءت لتعليق الجواب في المستقبل في أمثلة متعددة.

٢١. في مقدمة ما طرحته لسانيات الخطاب دراسة المستوى التداولي، وترتبط الدراسة الحجاجية لخطاب ما بدراسة المنهج التداولي على نحو وثيق؛ لأنَّ الحجاج يُعنى بدراسة مقام الخطاب وأثره في استعمال الألفاظ بدلالات خاصة وهو ما قدَّمته دراسات(الاستلزام الحواري) فضلا عن أنَّ من أهم ما طرحه(ديكرو) في مشروعه ترسيخ حجاجية النص بما فيه من أدوات(العوامل والروابط الحجاجية)؛ فالتداولية المدمجة ترفض التعارض بين الدلالة الحرفية للفظ، ومعنى التلفُّظ به في سياق ما .

٢٢. ما قدَّمه مفهوم(الاستلزام الحواري) من رؤية الانطلاق من المعنى الحرفي أو الدلالة الوضعية للوصول إلى الدلالة المستلزمة سبقته بحوث(الحقيقة والمجاز) في البلاغة العربية إلا أنَّ ما يميز دراسة مفهوم(الاستلزام الحواري) هي النظرة المعاصرة لمعالجة قضية دلالة اللفظ على معنى مرتبط بالمقام؛ إذ تتصف هذه النظرية بأنَّها بنيت على مبدأ(التعاون) الذي يقدِّم فرضية مهمة تتعلق بإبلاغ المتكلم المخاطَب معنىً معينا في الوقت نفسه يبذل المخاطب الجهد اللازم للتعرف على قصد المتكلم من الخطاب.

٢٣. دراسة(الاستلزام الحواري) ترتبط على نحو وثيق بدراسة الأفعال الكلامية؛ لأنَّ (الأفعال الكلامية) كانت المهاد الذي انطلقت فيه دراسة ظاهرة(الاستلزام الحواري)؛ فالعلماء الذين بحثوا في هذين المفهومين التداوليين كانت جهودهم تتقارب في إطارها العام وتختلف في التفاصيل؛

فقد ترابطت جهودهم في تحليل الخطاب، ودراسة الغرض الحقيقي من التواصل، والفرق بين ما يقال وما يتم إبلاغه المتلقي، وكانت جهود(أوستن) في دراسة الفعل الكلامي وأقسامه هي الأساس في الدراسات التي قدمها(سيرل)،و(غرايس)؛ فهما وإن قدّما مقاربتين تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى في المسائل الإجرائية إلا أنّهما تتفقان في الغرض الرئيس وهو تفسير دلالة النص على معنى غير المعنى الحرفي للنص، وهذا التقارب بين الجهدين يدل على انبثاق مفهوم(الاستلزام الحواري) من مفهوم (أفعال الكلام) .

٢٤. أشار(غرايس) إلى وجود معنيين للألفاظ في الخطاب، أحدهما المعنى(الحرفي)، والآخر المعنى(الضمني)، والمعنى الضمني هو المقصود بدراسة(الاستلزام الحواري) وخروج دلالة اللفظ من معناها الحرفي إلى المعنى المستلزم من أهم خصائص الخطاب الحجاجي، وقد رصد ذلك الأستاذ(طه عبد الرحمن) الذي بحث الترابط بين مفردات(الخطاب، والحجاج، والمجاز)؛ فالمجاز عنده هو القيمة التي يحملها استعمال لفظ ما؛ لأنّ العلاقة بين(اللفظ)، و(قيمته) هي علاقة(العبارة) بـ(الإشارة)، وهذا الأمر يشير إلى أهمية دراسة الحجاج على وفق المفاهيم التداولية ولاسيما مفهوم الاستلزام الحواري .

٢٥. نشوء ظاهرة الاستلزام الحواري يرتبط بخرق القواعد المتفرعة من مبدأ التعاون، وهي قواعد:(الكم، والقيمة أو الكيف، والعلاقة أو المناسبة، والطريقة أو الصيغة)؛ ولأهمية دراسة الاستلزام الحواري بحسب مفهوم(غرايس) وقفت على أمثلة متنوعة من الخطاب الحجاجي؛ لتحليلها على وفق ما تضمّنته من خرق لمبدأ التعاون معتمدا التقسيم الذي طرحه

(أرسطو) في دراسة أنماط الصناعة القولية من خطب ومناقشات جدلية بوصفه الأقرب إلى نمط الخطاب في نهج البلاغة وبخاصة قسمي الخطب والكتب، ودرست توظيف الألفاظ بدلالتها المستلزمة في الحجاج، فقُسِّمت تبعا لذلك دراسة ظاهرة (الاستلزام الحواري) على محورين الأول يبحثها في خطب الإمام وكلماته، والثاني يبحثها في كتب الإمام (ع) ورسائله؛ ومع أنَّ مفهوم(برلمان وتيتيكاه) يرى أنَّ الفصل بين هذين النمطين الحجاجيين أمر مغلوط إلا أنَّه لا يمكن التسليم بذلك الرفض؛ لأنَّ الدراسات الحجاجية قد نصَّت على جملة فروق جوهرية بينهما أهمها أنَّ مهمة الحجاج الجدلي هو(فحص الفكرة) وتقليبها على وجوه متعددة لبيان صلاحها، أمَّا الحجاج الخطابي فهو حجاج (يبني الفكرة) ويرتبط بحركة المجتمع المتلقي سياسيا وفكريا.

٢٦. الاستلزام الحواري في خطب الإمام وكلماته نشأ في معظم الحالات بخرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) التي تنصُّ على تجنب اللبس والغموض في الكلام، و اللبس المقصود هنا هو من قبيل المشترك اللفظي، أو الغموض التركيبي الذي يقبل أكثر من تأويل؛ لأنَّ ذلك يدخل في باب المغالطات السفسطائية والتلاعب بالجمهور أمَّا(الحجاج) فيقوم على(الالتباس) في مستويات متعددة منها التباس شخصية المدعي بالمعترض على الفكرة المطروحة، والتباس الدلالة الحرفية لبعض الألفاظ بمعطيات المقام مما ينتج الدلالة المستلزمة، أي عبارة اللفظ، وإشارته، وهذا التوجُّه لتفسير قيام ظاهرة الاستلزام الحواري على التداخل بين الدلالة الحرفية ومقاصد التلفظ يمثل دليلا على ارتباط هذه الظاهرة بمفهوم(التداولية المدمجة) التي ترفض الفصل بين الدلالة الحرفية للفظ، وقصد التلفظ به في مقام خاص.

٢٧. الاستلزام الحواري في كتب الإمام(ع) ورسائله تضمَّن خرقا متنوعا لمبدأ (التعاون)؛ فقد وردت نصوص حجاجية موجَّهة إلى أعدائه ولاسيما معاوية وجمهوره خُرِقت فيه قاعدة (العلاقة أو المناسبة)، وقد وردت نصوص أخرى جرى فيها خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة)، وقاعدة (العلاقة)، وقاعدة (القيمة أو الكيف)، وهذا يدل على اهتمام الإمام(ع) بتوظيف طرائق متعددة في استلزم حواره الدلالات المطلوبة؛ فقد اعتمد(ع) الحجاج في مواجهة معاوية وجمهوره ولم يلجأ إلى السيف معهم إلا بعد أن يئس من إقناعهم، ومع تنوع أنماط الاستلزام الحواري إلا أنَّ خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) كان حالة عامة في معظم الأمثلة التي درستها، وذلك يعود إلى أهمية عنصر (الالتباس) في خلق طاقة النص الحجاجية، والإمام (ع) لم يجعل كلامه مباشرا بل عمد إلى استعمال ألفاظ لها دلالات حرفية تستلزم دلالات أخرى عند استعمالها في مقام خاص.

٢٨. دراسة المنطلقات أو المقدمات في الخطاب الحجاجي تجعلنا نقف على أهم ما يميز الخطاب الذي يُدرَس من غيره من الخطابات من ناحية ما يملكه من وسائل إقناع، ودراسة مقدمات الحجاج من أهم ما طرحه (برلمان)؛ فهي الركائز الفكرية التي يستند إليها الحجاج، والحجاج الموجَّه إلى الجمهور العام انطلق في مجمله من(الحقائق)، و(الوقائع) مع تداخل أحيانا بين المنطلقات أو المقدمات ولاسيما بين الوقائع والافتراضات، إلا أنَّ السِّمة الغالبة هي انطلاق الحجاج من الحقائق؛ لأنَّ نوع الجمهور ووظيفة الإمام(ع) اقتضيا ذلك النمط في الحجاج؛ فالإمام (حاكم) يطرح أفكاره المتعلقة ببناء الدولة فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، والمخاطب جمهور الرعية الذي ينتظر أطروحات الإمام، ووجدنا الحجاج الموجَّه إلى

الجمهور العام ينطلق من الوقائع عندما يتعلق ببيان حال المناوئين، وكانت الخطبة الشقشقية في مقدمة النصوص الحجاجية العامة التي انطلقت من الوقائع ولاسيما فيما يتعلق بأحقيته بالخلافة، واعتماد الوقائع في طرح الأفكار كان في المواضع التي تتعلق بدحض أراء الخصوم؛ فلجأ إلى الانطلاق من الوقائع ليبني عليها حجاجه فضلا عن الانطلاق من الافتراضات؛ لإقناعهم بخطأ ما يطرحه الآخرون .

٢٩. الحجاج في الخطاب الخاص انقسم على قسمين الأول كان موجها لجمهور الأعداء، والآخر للخاصة من أتباعه(ع) ، ومن الحجاج الموجّه إلى جمهور الأعداء ما وجّهه الإمام إلى الناكثين ومعاوية وفي كلا النمطين الحجاجيين انطلق الإمام من سلسلة وقائع مزجت بالحقائق لتكون أبلغ في إقناع الجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الخاصة بأعداء الإمام ما توجّه به(ع) إلى الخوارج، وبني على سلسلة من الافتراضات الممتزجة بالوقائع ردًّا على أطروحتهم في تكفير جمهور المسلمين.

٣٠. ومن الحجاج الخاص بأتباع الإمام ما توجّه به إلى الحسن وقد انطلق في مجمله من حقائق دينية تتعلق بالزهد والتقوى وغيرها؛ فالإمام علي بحجاجه هذا طرح تلك المفاهيم التي أرادها أن تصل إلى الجمهور الكوني، وكان لشخصية الإمام الحسن(ع) أثر كبير في تلقي هذه المفاهيم ونقلها للجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الموجّهة إلى جمهور خاص عهده لمالك الأشتر الذي انطلق فيه (ع) من مجموعة حقائق اجتماعية أو (سنن إلهية) تحكم حركة المجتمع وتتصف بالكونية ولا ترتبط بمجتمع دون آخر، وهذه النقطة تمثل الخلاف الجوهري بين حجاج الإمام الحسن، وحجاج الأشتر؛ فالأول انطلق من حقائق دينية ترتبط

بعلاقة الإنسان بربه بخلاف الثاني فهو يتعلق بالسنن الإلهية التي تحكم المجتمع، وصفات الحكم العادل، وما يؤدي إليه الظلم من ضعف الحكم وزواله فضلا عن انهيار المجتمعات؛ فالخطابان الحجاجيان وإن انطلقا من (الحقائق) إلا أنَّ نمط تلك الحقائق في كلٍّ منهما يختلف عن الآخر.

٣١. لم تغفل دراسة المنطلقات الحجاجية الوقوف على أهم العناصر اللغوية في الخطاب الحجاجي؛ فقد تمَّت الإشارة إلى بعض الروابط الحجاجية، وتوظيف بعض الألفاظ بدلالات معينة بما يخدم عملية الحجاج، ومن أهم أنماط التداخل بين وظيفة اللغة والمقدمات الحجاجية نشوء "الافتراضات" عن طريق تركيب الشرط، وقد وظِّفت الافتراضات في مواضع متعددة من حجاجه (ع) ولاسيما عند مخاطبة أعدائه (ع).

ثبت المظانّ

القرآن الكريم

أولاً: الكتب المطبوعة

١. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د.محمود أحمد نحلة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة،١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٢. الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(ت٣٩٥هـ): سامية بن يامنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٣. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت٩١١هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان،١٩٧٣م.

٤. الإحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الآمدي(ت٦٣١هـ)، تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ط١، دار الصيمعي للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

٥. الأخبار الطوال: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري(ت٢٨١هـ)، صحَّحه وضبط ألفاظه محمد سعيد الرافع، ط١، مطبعة السعادة بمصر،١٣٣٠هـ .

٦. الأزهية في علم الحروف: علي بن محمد الهرويّ(ت٤١٥هـ)، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٧. الأساليب الإنشائية في النحو العربي: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٨. أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: د. قيس إسماعيل الأوسي، جامعة بغداد، بيت الحكمة،١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٩. استراتيجيات الخطاب،مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م.
١٠. الاستلزام الحواري في التداول اللساني: العياشي أدرواي، ط١، منشورات الاختلاف- الجزائر، دار الأمان- الرباط، ١٤٣٢هـ -٢٠١١م .
١١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي(ت٤٦٣هـ)، صحَّحه وخرَّج أحاديثه عادل مرشد، ط١، دار الأعلام،عمَّان- الأردن،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٢. الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه: د.إدريس مقبول، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ٢٠٠٦م.
١٣. أسس الفلسفة والمذهب الواقعي: السيد محمد حسين الطباطبائي، تعليق الشهيد مرتضى المطهري، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، ط٢، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
١٤. إشكالات النَّص،دراسة لسانية نصية: جمعان عبد الكريم، ط١، النادي الأدبي بالرياض، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٩م.
١٥. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: محمد الشَّاوش، ط١، كلية الآداب- منوبة، والمؤسسة العربية للتوزيع، تونس،١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٦. أصول السَّرخسي: أبو بكر أحمد بن أبي سهل السَّرخسي(ت٤٩٠هـ)، تحقيق محمد رضا الأنصاري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
١٧. أصول الفقه: الشيخ محمد رضا المظفر، ط٢، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان،١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
١٨. الأصول في النحو: أبو بكر محمد بن سهل بن السَّراج(ت٣١٦هـ)، تحقيق د.عبد الحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٩. الاقتضاء وانسجام الخطاب: د.ريم الهمّامي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ٢٠١٣م.
٢٠. أمالي ابن الشَّجري: هبة الله بن علي بن محمد الحسني العلوي(ت٥٤٢هـ)، تحقيق ودراسة د.محمود محمد الطناحي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
٢١. الإمامة والسِّياسة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(٢٧٦هـ)، تحقيق علي شيري، ط١، منشورات الشَّريف الرَّضي، قم- إيران،١٤١٣هـ .
٢٢. الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: د.خالد ميلاد، ط١، كلية الآداب- منوبة، والمؤسسة العربية للتوزيع، تونس،١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
٢٣. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمُّود، منشورات كلية الآداب-منّوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، د.ت.

٢٤. أوزان الفعل ومعانيها: هاشم طه شلاش، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١م.
٢٥. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الخطيب القزويني(ت٧٣٩هـ)، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .
٢٦. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)، ط٢، منشورات المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٩٨هـ .
٢٧. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٨. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي(ت٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩١هـ- ١٩٧٢م.
٢٩. البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم، ابن وهب الكاتب(ت القرن الرابع للهجرة)، تحقيق د.أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديثي، ط١، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مطبعة العاني- بغداد، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
٣٠. البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني: د.قدور عمران، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ٢٠١٢م.
٣١. بلاغة الخطاب وعلم النّص: د.صلاح فضل، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ١٩٩٦م.

٣٢. البلاغة والأسلوبية: هنريش بليت، ترجمة وتقديم وتعليق د.محمد العمري، ط٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان،١٩٩٩م.

٣٣. البهجة المرضية على ألفية ابن مالك: جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، تعليق مصطفى الحسيني، ط١٤، مطبعة إسماعيليان، قم- إيران، ١٤٢٥هـ.

٣٤. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣٥. تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، تحقيق السيِّد أحمد صقر، مكتبة دار التراث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٣٦. تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حمّاد الجوهري(ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان،١٩٩٠م.

٣٧. تاريخ الطَّبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٣٨. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق اليعقوبي(ت٢٩٢هـ)، علّق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٣٩. تاريخ نظريات الحجاج: فيليب بروتون وجيل جوتييه، ترجمة د.محمد صالح ناحي الغامدي، ط١، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز- المملكة العربية السعودية،١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٤٠. التِّبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي(٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، ١٤٠٩هـ.

٤١. التَّحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه: تنسيق حمُّو النَّقاري، ط١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤٢. التَّحليل التَّداولي لخطاب الحجاج النَّحوي: د.محمد عديل عبد العزيز، ط١، دار البصائر، القاهرة، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٤٣. التَّحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان،١٩٩٣م.

٤٤. التَّحويل في النَّحو العربي، مفهومه- أنواعه- صوره: د.رابح بو معزة، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٤٥. تداوليات الخطاب السياسي: نور الدين اجعيط، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد-الأردن،٢٠١٢م.

٤٦. التَّداوليات علم استعمال اللغة: إعداد وتقديم د.حافظ إسماعيلي علوي، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد-الأردن،٢٠١٠م.

٤٧. التَّداولية: جورج يول، ترجمة د.قصي العتابي، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، دار الأمان- الرباط،١٤٣١هـ- ٢٠١٠م .

٤٨. التّداولية عند العلماء العرب: د.مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.
٤٩. التّداولية والحجاج، مداخل ونصوص: صابر الحباشة، ط١، صفحات للدراسات والنشر، دمشق- سورية، ٢٠٠٨م.
٥٠. التّداولية اليوم،علم جديد في التواصل: آن روبول- جاك موشلار، ترجمة د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، نشر وتوزيع دار الطليعة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٣م.
٥١. التّذييل والتّكميل في شرح كتاب التّسهيل: أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، تحقيق د.حسن هنداوي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٥٢. التّراكيب الإسنادية،الجمل الظرفية- الوصفية- الشّرطِية: د.علي أبو المكارم، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٥٣. التّراكيب اللغوية في العربية، دراسة وصفية تطبيقية: د.هادي نهر، نشر الجامعة المستنصرية، مطبعة الإرشاد، بغداد،١٩٨٧م.
٥٤. التّعريفات: أبو الحسن علي بن محمد الشّريف الجرجاني(ت٨١٦هـ)، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٥٥. تفسير القرآن العظيم: الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، قدّم له د.عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان،١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .
٥٦. تلخيص السّفسطة: أبو الوليد بن رشد(ت٥٩٥هـ)، تحقيق محمد سليم سالم، مطبعة دار الكتب، القاهرة،١٩٧٢م.

٥٧. تلخيص كتاب الجدل: ابن رشد(ت٥٩٥هـ)، تحقيق د.تشارلس بتروورث، ود.أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٩م.

٥٨. تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري(ت٣٧٠هـ)، تقديم وفهرسة عبد السلام هارون، تحقيق جماعة من المحققين، الدار المصرية للتأليف والترجمة،١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٥٩. توجيه اللُّمع: أحمد بن الحسين بن الخباز(ت٦٣٩هـ)، دراسة وتحقيق د.فايز زكي محمد دياب، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٦٠. الجامع لأحكام القرآن،والمبين لما تضمَّنه من السُّنة وآي الفرقان: أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر القرطبي(ت٦٧١هـ)، تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسَّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٦١. الجمل: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت٤٧١هـ)، تحقيق علي حيدر، منشورات دار الحكمة، دمشق،١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م .

٦٢. الجنى الداني في حروف المعاني: الحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق د.فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٦٣. حاشية الدسوقي على مغني اللبيب: مصطفى محمد عرفة الدسوقي (ت١٢٠٣هـ)، ضبطه وصححه ووضع حواشيه عبد السلام محمد أمين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٦٤. حاشية الصبّان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني: محمد بن علي الصبان(ت١٢٠٦هـ)، تحقيق محمد بن الجميل، ط١، مكتبة الصّفا، القاهرة،١٤٢٣هـ- ٢٠٠٤م.

٦٥. الحجاج بين المنوال والمثال: د.علي الشبعان، ط١، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠٨م.

٦٦. الحجاج بين النظرية والأسلوب: باتريك شارودو، ترجمة د.أحمد الوردني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م.

٦٧. الحجاج في البلاغة المعاصرة: د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م .

٦٨. الحجاج في الشعر العربي،بنيته وأساليبه: د.سامية الدريدي، ط٢، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن،١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٦٩. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: د.عبد الله صولة، ط٢، دار الفارابي- بيروت، كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة، ودار المعرفة للنشر- تونس،٢٠٠٧م.

٧٠. الحجاج، مفهومه ومجالاته: إعداد وتقديم د.حافظ إسماعيل علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن،١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٧١. الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة: أمينة الدّهري، ط١، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء،١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٧٢. الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: د.علي الشبعان، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان،٢٠١٠م.

٧٣. حـروف المعـاني: أبـو القاسـم عبـد الـرحمن بـن إسـحاق الزجاجي(ت٣٤٠هـ)، تحقيق د.علي توفيق الحمد، ط٢، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، دار الأمل، إربد- الأردن، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٧٤. حقائق الأصول: السِّيد محسن الطباطبائي الحكيم، ط٥، مكتبة بصـيرتي، قم، ١٤٠٨هـ.
٧٥. الحكمة عند الإمام علي(ع) في نهجه: الشيخ جـوادي آملـي، ط١، دار الهادي، بيروت- لبنان،١٤١٣هـ- ١٩٩٢م .
٧٦. الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ)، تحقيق محمـد علـي النجار، دار الكتب المصرية، ١٣٧٢هـ- ١٩٥٢م.
٧٧. الخطابة: أبو نصر الفارابي(ت٣٣٩هـ)، تحقيق د.محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية،١٩٧٦م.
٧٨. الخطابة: أرسطو، ترجمة د.عبد الرحمن بدوي، دار الرَّشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية،١٩٨٠م.
٧٩. الخطاب اللساني العربي: د.بنعيسى عسو أزايـيط، ط١، عـالم الكتـب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن،٢٠١٢م.
٨٠. الخطاب والحجاج: د.أبو بكر العزاوي، ط١، مؤسسة الرِّحـاب الحديثـة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ٢٠١٠م .
٨١. دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات: د.شكري المبخـوت، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ٢٠١٠م.
٨٢. دراسات في نهج البلاغة: محمد مهدي شمس الدين، ط٣، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،١٤٠٢هـ-١٩٨١م .

٨٣. دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول(ت القرن الثاني عشر الهجري)،عرَّب، عباراته الفارسية حسن هاني فحص، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٨٤. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)، تحقيق د.رضوان الداية، ود.فايز الداية، ط٢، مكتبة سعد الدين، دمشق،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٨٥. دلالة الجملة الإسمية في القرآن الكريم: د.شكر محمود عبد الله، ط١، دار دجلة، عمان- الأردن، بغداد- العراق، ٢٠٠٩م.

٨٦. الدلالة الزمنية للجملة العربية في القرآن الكريم: د نافع علوان بهلول الجبوري، ط١، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني، العراق،١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٨٧. الدلالة والتقعيد النّحوي،دراسة في فكر سيبويه: د.محمد سالم صالح، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ،٢٠٠٨م.

٨٨. الرّسائل السياسية بين الإمام علي(ع) ومعاوية: عبد الرِّضا الزبيدي، ط١، دار الكتاب الإسلامي، قم،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .

٨٩. رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي (ت٧٠٢هـ)، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٤هـ.

٩٠. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة،١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٩١. السُّنن الكبرى: أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي(ت٤٥٨هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

٩٢. سيرة النَّبي(ص): أبو محمد عبد الملك بن هشام(ت٢١٨هـ)، تحقيق ودراسة مجدي فتحي السيد، ط١، دار الصحابة للتراث بطنطا للنشر والتحقيق والتوزيع، مصر،١٤١٦هـ-١٩٩٥م .

٩٣. شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم: بدر الدين محمد بن جمال محمد بن مالك (ت٦٨٦هـ)، تصحيح وتنقيح محمد بن سليم اللبابيدي، المكتبة العثمانية، بيروت،١٣١٢هـ.

٩٤. شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان: ابن رشد(ت٥٩٥هـ)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، ط١، المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٩٥. شرح التَّسهيل: جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك(ت٦٧٢هـ)، تحقيق د.عبد الرحمن السيد، ود.محمد بدوي المختون، ط١، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة- مصر،١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٩٦. شرح التَّصريح على التوضيح: خالد بن عبد الله الأزهري(ت٩٠٥هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م.

٩٧. شرح جمل الزَّجاجي(الشرح الكبير): ابن عصفور الاشبيلي(ت٦٦٩هـ)، تحقيق د.صاحب أبو جناح، ط١، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٩٨. شرح الرَّضي على الكافية: محمد بن الحسن الرَّضي الإستراباذي(ت٦٨٦هـ)، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، ط٢، مؤسسة الصَّادق للطباعة والنشر، طهران،١٤٢٦هـ .
٩٩. شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت .
١٠٠. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، ابن هشام الأنصاري(ت٧٦١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة ،٢٠٠٤م.
١٠١. شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: جمال الدين محمد بن مالك(ت٦٧٢هـ)، تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري، مطبعة العاني، بغداد،١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
١٠٢. شرح كتاب سيبويه: الحسن بن عبد الله بن المرزبان،أبو سعيد السِّيرافي (ت٣٦٨هـ)، تحقيق أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٠٣. الشرح المختصر على تلخيص المفتاح: سعد الدين التفتازاني(ت٧٩١هـ)، ط١، مطبعة إسماعيليان، قم،١٤٢٥هـ.
١٠٤. شرح المفصَّل: موفق الدين بن يعيش(ت٦٤٦هـ)،عالم الكتب، بيروت، د.ت.
١٠٥. شرح نهج البلاغة: عز الدين بن هبة الله بن محمد،ابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار إحياء

الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر،١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١٠٦. صحيح ابن حبَّان(٣٥٤هـ) بترتيب ابن بلبان: علاء الدين بن بلبان(٧٣٩هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٠٧. الصناعتين،الكتابة والشعر: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية،١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

١٠٨. الطِّراز: يحيى بن حمزة العلوي(ت٧٠٥هـ)، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٠٩. العدة في أصول الفقه: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت٤٦٠هـ)، تحقيق محمد رضا الأنصاري، ط١، مطبعة ستارة، قم،١٤١٧هـ.

١١٠. العقل واللغة والمجتمع: جون سيرل، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، منشورات الاختلاف- الجزائر، المركز الثقافي العربي- المغرب، والدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت،١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١١١. العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث: د.محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة،١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١١٢. علم اللغة العام: فردينان دي سوسور، ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النَّص العربي د.مالك المطلبي، دار آفاق عربية للنشر، بغداد ١٩٨٥م.

١١٣. علم المعاني،تأصيل وتقييم: د.حسن طبل، ط١، مكتبة الإيمان، القـاهرة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١١٤. عندما نتواصل نغير،مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجـاج: د.عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب،٢٠٠٦م.
١١٥. العوامل الحجاجية في اللغة العربية: د.عز الدين الناجح، ط١، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس- تونس،٢٠١١م.
١١٦. العين: الخليل بن أحمـد الفراهيـدي(ت١٧٥هـ)، تحقيـق د.مهـدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، ط٢، مؤسسة دار الهجـرة، إيـران، ١٤٠٩هـ.
١١٧. عيون الحكمة: ابن سينا(ت٤٢٧هـ)، تحقيق عبد الرحمن بـدوي، ط٢، وكالة المطبوعات-الكويت، دار القلم- بيروت،١٩٨٠م.
١١٨. غريب نهج البلاغة: د.عبد الكريم حسين السـعداوي، ط١، دار الغـدير للطباعة والنشر والتوزيع، النجف الأشرف،١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .
١١٩. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر الـبلاذري(ت٢٧٩هـ)، نشـره ووضع ملاحقه وفهارسه د.صلاح الدين المنجد، مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م.
١٢٠. الفَرق بين الفِرق: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي(ت٤٢٩هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
١٢١. الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)، تحقيق محمد إبـراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٢٢. فلسفة اللغة: د.محمد مهران رشوان، ود.عصام زكريا جميل، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان- الأردن،١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
١٢٣. الفلسفة والبلاغة: د.عمار ناصر، ط١، منشورات الاختلاف-الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٢٤. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: د.طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،٢٠٠٠م.
١٢٥. في النَّحو العربي نقد توجيه : د.مهدي المخزومي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،٢٠٠٥ .
١٢٦. القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر-آن ريبول، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف، عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، ط٢، المركز الوطني للترجمة- دار سيناترا، تونس،٢٠١٠م.
١٢٧. الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان، سيبويه(ت١٨٠هـ)، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر،١٣١٦هـ .
١٢٨. كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج(رسائله نموذجا): د.علي محمد علي سلمان، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان،٢٠١٠م.
١٢٩. كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: العلَّامة محمد علي التهانوي(ت القرن الثاني عشر الهجري)، تقديم وإشراف ومراجعة د.رفيق العجم، تحقيق د.علي دحروج، نقل النَّص الفارسي إلى العربية د.عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د.جورج زيناتي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان،١٩٩٦م.

١٣٠. الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.
١٣١. الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(ت١٠٩٤هـ)، قابله على نسخ خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه د.عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ-٢٠٠٥م.
١٣٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين علي المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه الشيخ بكري حياني، والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
١٣٣. لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، د.ت.
١٣٤. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: د.طه عبد الرحمن، ط١، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت،١٩٩٨م.
١٣٥. لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتّلفظ والتّداولية: صابر الحباشة، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية- سوريا،٢٠١٠م.
١٣٦. لسانيات الخطاب، مباحث في التّأسيس والإجراء: د.نعمان بوقرة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م .
١٣٧. لسانيات النّص،مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت،٢٠٠٦م.
١٣٨. اللغة، دفاتر فلسفية: إعداد وترجمة محمد سبيلا، وعبد السلام بنعبد العالي، ط٤، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠٥م.

١٣٩. اللغة العربية معناها ومبناها: د.تمّام حسّان، ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٤٠. لغة القانون في ضوء علم لغة النّص: د.سعيد أحمد بيومي، تقديم المستشار محمد أمين المهدي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة،١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١٤١. اللغة والحجاج: د.أبو بكر العزاوي، ط١، دار الأحمدية للطباعة، الدار البيضاء- المغرب،١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

١٤٢. اللغة والمعنى،مقاربات في فلسفة اللغة: تأليف مجموعة من الباحثين، إعداد وتقديم مخلوف سيد أحمد، ط١، منشورات الاختلاف- الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت،١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١٤٣. ما هو نهج البلاغة: السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، دار الثقافة، النجف، ١٣٨٠هـ.

١٤٤. مبادئ الوصول إلى علم الأصول: جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهَّر الحلي(٧٢٦هـ)، تحقيق عبد الحسين محمد علي البقال، ط٣، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، قم ،١٤٠٤هـ.

١٤٥. مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني(ت٥١٨هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السُّنة المحمدية،١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٤٦. المحكم في أصول الفقه: السيِّد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، ط١، مطبعة جاويد- إيران، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

١٤٧. مدخل إلى علم لغة النّص: روبرت دي بوجراند، ولفغانغ دريسلر، إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ط١، مطبعة دار الكاتب، مركز نابلس للكمبيوتر، فلسطين،١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٤٨. مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه: د.محمد الأخضر الصبيحي، ط١، منشورات الاختلاف- الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٤٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي(ت ٣٤٦هـ)، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١٥٠. المستصفى من علم الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي(ت٥٠٥هـ)، تحقيق د. محمد سليمان الأشقر، ط١، مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٥١. مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي(٢٠٤هـ): ويليه ترتيب مسند الإمام رتّبه سنجر بن عبد الله الناصري(ت٧٤٥هـ): حققه وخرّجه د.رفعت فوزي عبد المطلب، ط١، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٥٢. مصادر نهج البلاغة وأسانيده: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، ط٣، دار الأضواء، بيروت-لبنان،١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

١٥٣. مصباح الأصول: السّيد محمد سرور الواعظ الحسيني، ط٥، المطبعة العلمية، قم- إيران،١٤١٧هـ.

١٥٤. معارج الأصول: أبو القاسم جعفر بن الحسن الهذلي،المحقق الحلي(٦٧٦هـ)، إعداد محمد حسين الرَّضوي، ط١، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، قم-إيران، ١٤٠٣هـ.

١٥٥. معالم الدين وملاذ المجتهدين: جمال الدين الحسن بن زين الدين العاملي (ت١٠١١هـ)، تحقيق لجنة التحقيق في مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د.ت.

١٥٦. معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء(ت٢٠٧هـ)، تحقيق محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، ط٣، عالم الكتب، بيروت،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٥٧. معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو، ودومنيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري، وحمادي صمّود، مراجعة صلاح الدين الشَّريف، دار سيناترا- المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨.

١٥٨. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق د.مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

١٥٩. مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السَّكاكي(ت٦٢٦هـ)، المطبعة الميمنية، مصر، ١٣١٨هـ.

١٦٠. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني(ت٥٢١هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط٤، منشورات ذوي القربى، قم، ١٤٢٥هـ.

١٦١. المفصَّل في صنعة الإعراب: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تقديم د.إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٦٢. المقاربة التداولية لخطاب المناظرة،العهد العباسي نموذجا: د.محمد عديل عبد العزيز، ط١، دار البصائر، القاهرة،١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١٦٣. المقتصد في شرح الإيضاح: عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)، تحقيق د.كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرَّشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م.

١٦٤. المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد(ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت،١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

١٦٥. مقدمة شرح نهج البلاغة: كمال الدين ميثم البحراني(ت٦٧٩هـ)، تقديم وتحقيق د.عبد القادر حسين، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٦٦. المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون(ت٨٠٨هـ)، تحقيق عبد السلام الشدادي، ط١، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء،٢٠٠٥م.

١٦٧. الملل والنِّحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(٥٤٨هـ)، تحقيق أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، ط٣، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت -لبنان،١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٦٨. المناقب: الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي(ت٥٦٨هـ)، تحقيق مالك المحمودي، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ،١٤١١هـ.

١٦٩. المنطق الصُّوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة: د.علي سامي النَّشار، ط٥، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر، ٢٠٠٠م.
١٧٠. منطق الكلام: حمّو النقاري، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، منشورات الاختلاف- الجزائر، دار الأمان- الرباط، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
١٧١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني(ت٦٨٤هـ)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٦م.
١٧٢. المنهاج في ترتيب الحجاج: أبو الوليد الباجي(ت٤٧٤هـ)، تحقيق عبد المجيد تركي، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ٢٠٠١م.
١٧٣. ميزان الحكمة: محمد الري شهري، ط٢، دار الحديث، قم- إيران، ١٤١٦هـ.
١٧٤. النّحو الكوفي،مباحث في معاني القرآن للفرّاء: د.كاظم إبراهيم كاظم، ط١، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
١٧٥. نحو النص،إطار نظري ودراسات تطبيقية: د.عثمان أبو زنيد، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
١٧٦. نحو النّص،نقد النّظرية وبناء أخرى: د.عمر أبو خرمة، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
١٧٧. نسيج النّص: الأزهر الزناد، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.
١٧٨. النّص والخطاب والاتصال: د.محمد العبد، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٧٩. النّص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ترجمة د.تمّام حسّان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م .
١٨٠. نظام الارتباط والرَّبط في تركيب الجملة العربية: د.مصطفى حميدة، ط١، الشَّركة المصرية العالمية للنشر لونجمان- مصر، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت،١٩٩٧م.
١٨١. نظرية أفعال الكلام العامة،كيف ننجز الأشياء بالكلمات: جون لانكشتون أوستن، ترجمة عبد القادر قنيني، ط٢، إفريقيا الشّرق، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠٨م.
١٨٢. نظرية التأويل،الخطاب وفائض المعنى: بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٦م.
١٨٣. نظرية علم النّص،رؤية منهجية في بناء النص النثري: د. حسام أحمد فرج، تقديم د.سليمان العطّار، ود.محمود فهمي الحجازي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٨٤. نظرية الفعل الكلامي: هشام إ.عبد الله الخليفة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان- مصر، ٢٠٠٧م.
١٨٥. نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده، مكتبة النهضة العربية، د.ت .
١٨٦. نهج البلاغة: المختار من كلام أمير المؤمنين(ع) لجامعه محمد بن الحسين بن موسى، الشّريف الرّضي(ت٤٠٦هـ)، تحقيق السّيد هاشم الميلاني، ط٣، نشر العتبة العلوية المقدسة- مكتبة الروضة الحيدرية، النجف،١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١٨٧. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٨٨. الوصائل في تحليل المحادثة،دراسة في إستراتيجيات الخطاب: د.خليفة الميساوي، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن،٢٠١٢م.

ثانيا: الدوريات

١. الخطاب: دورية أكاديمية محكمة تُعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، منشورات مخبر تحليل الخطاب،جامعة مولود معمري، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة- تيزي وزو، الجزائر، العدد الثالث:٢٠٠٨م.
٢. عالم الفكر: مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد١، المجلد ٣٠، يوليو-سبتمبر،٢٠٠١م، والعدد ٢، المجلد ٤٠، أكتوبر- ديسمبر،٢٠١١م.
٣. المصباح: مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار القرآن الكريم، العتبة الحسينية المقدسة، العدد الثاني-صيف (١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
٤. مجلة ق: مجلة فصلية تعنى بالبحوث والدراسات القرآنية، تصدر عن مركز أوراق للإبداع الثقافي، بغداد، العدد الأول(٢٠١١م).

ثالثا: الرّسائل الجامعية:

١- الاحتجاج العقلي في النحو العربي: محمد جواد محمد سعيد الطريحي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية،١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية
رقم 1190 لسنة 2017